١٥٥
البيان
مركز البحوث و الدراسات

نفحات رمضانية

إعداد
مركز البحوث والدراسات بمجلة البيان

نفحات رمضانية

حقوق الطبع محفوظة

الطبعـة الأولـى

مجلة البيان، ١٤٣٣هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

مجلة البيان

نفحات رمضانية. / مجلة البيان - الرياض، ١٤٣٣هـ

٣٠٦ص، ١٥ × ٢١سم

ردمك: ٨-١٤-٨١٠١-٦٠٣-٩٧٨

١- الصوم أ. العنوان

ديوي ٣,٢٥٢ ١٤٣٣ / ٥٩٣٣

رقم الإيداع: ١٤٣٣ / ٥٩٣٣

ردمك: ٨-١٤-٨١٠١-٦٠٣-٩٧٨

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، أما بعد. . .

فاغتناما للأوقات الفاضلة في نشر العلم النافع والتواصي بالحق يطيب لـ «مجلة البيان» أن تقدم لقرائها الكرام هذا المجموع المنتخب «نفحات رمضانية» لعام ١٤٣٣هـ.

وهذا المجموع منتزَعٌ من كتب السلف المتقدمين وكتابات المعاصرين، ليكون زادًا للقارئ في شحذ همته ليقبل على عبادة ربه في هذا الشهر الكريم بفقه ودراية، فإن الرسول ﷺ قال: «**من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين**»(١)، وهذا الخير سببه - والله أعلم- أن المسلم بفقهه لنصوص الوحيين والفهم لمقاصد العبادات، وحسن التصور والإدراك لأنواعها وأولوياتها، ينال أفضل الأجور، وأسنى المطالب، وخير الأعمال، وأشرف المراتب، بأقل جهد وأيسر سبيل.

ولما كان رمضان شهر القرآن كما قال تعالى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ

(١) رواه البخاري، ٦٨٨٢، عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه.

﴿وَٱلْفُرْقَانِۚ﴾ كان لبيان تدبر القرآن نصيب وافر في هذا المجموع، لأن فهم كتاب اللَّه وتدبره مفتاح لطهارة القلب، وزكاة النفس، وأساس الثبات على الهداية.

و«مركز البحوث والدراسات» في مجلة البيان الذي أشرف على إعداد هذا المجموع يتطلع إلى أن يحقق الهدف والمقصد من إصداره السنوي ومشروعه الرمضاني «بينات»، ولا يزال يتطلع إلى مزيد من التطوير والارتقاء في الإصدارات القادمة وذلك من خلال تلقي اقتراحات وآراء القراء الكرام في الشكل والمضمون على هذا البريد: buhooth@albayan. co. uk

ومن المهم التنبيه إلى أن طبيعة جمع المقالات في مثل هذا المجموع تستدعي التصرف في أصل المقال بالحذف والإضافة قدر الحاجة لتتناسب مع السياق الجديد.

سائلين المولى أن يبارك في الجهود ويسدد الخطى.

وصلى اللَّه على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

هدى للناس

١- الوصية بالقرآن الكريم

لسماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ

من عبد العزيز بن عبد الله بن باز، إلى من يراه من المسلمين سلك الله بي وبهم سبيل عباده المؤمنين، وأعاذني وإياهم من طريق المغضوب عليهم والضالين آمين.

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أما بعد. . . أوصيكم ونفسي بالإقبال على تلاوة القرآن العظيم والإكثار منها ليلًا ونهارًا مع التدبر والتفكر والتعقل لمعانيه العظيمة المطهرة للقلوب المحذرة من متابعة الهوى والشيطان، فإن الله سبحانه أنزل القرآن هداية وموعظة وبشيرًا ونذيرًا ومعلمًا ومرشدًا ورحمة لجميع العباد، فمن تمسك به واهتدى بهداه فهو السعيد الناجي ومن أعرض عنه فهو الشقي الهالك. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] وقال تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩] وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧] وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت: ٤٤] وفي الحديث الصحيح عن النبي

ﷺ أنه قال: «إني تارك فيكم ثِقْلين أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله وتمسكوا به»(١) فحث على كتاب الله ورغب فيه، وقال ﷺ في خطبته في حجة الوداع: «إني تارك فيكم ما لن تضلوا إن اعتصمتم به كتاب الله»(٢)، وقال ﷺ: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»(٣).

وقال ﷺ لأصحابه: «أيكم يحب أن يغدو إلى بطحان أو العقيق فيأتي بناقتين كوماوين في غير إثم أو قطع رحم؟ فقالوا: كلنا يا رسول الله نحب ذلك، قال: أفلا يغدو أحدكم إلى المسجد فيعلم أو يقرأ آيتين في كتاب الله خير له من ناقتين، وثلاث خير له من ثلاث، وأربع خير له من أربع، ومن أعدادهن من الإبل»(٤) والآيات والأحاديث في فضل القرآن والترغيب في تلاوته وتعلمه وتعليمه كثيرة معلومة. والمقصود من التلاوة هو التدبر والتعقل للمعاني ثم العمل بمقتضى ذلك كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤] وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟

(١) مسلم (٢٤٠٨)

(٢) مسلم (١٢١٨).

(٣) البخاري (٤٧٣٩).

(٤) مسلم (٨٠٣).

ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩] فبادروا - رحمكم الله - إلى تلاوة كتاب ربكم وتدبر معانيه وعمارة الأوقات والمجالس بذلك. والقرآن الكريم هو حبل الله المتين وصراطه المستقيم الذي من تمسك به وصل إلى الله وإلى دار كرامته ومن أعرض عنه شقي في الدنيا والآخرة. واحذروا - رحمكم الله - ما يصدكم عن كتاب الله ويشغلكم عن ذكره من الصحف والمجلات وما أشبهها من الكتب التي ضررها أكثر من نفعها. وما دعته الحاجة إلى مطالعة شيء من ذلك فليجعل لذلك وقتًا مخصوصًا، وليقتصر على قدر الحاجة وليجعل لتلاوة كتاب الله وسماعه ممن يتلوه وقتًا مخصوصًا يستمع فيه كلام ربه، ويداوي بذلك أمراض قلبه ويستعين به على طاعة خالقه ومربيه المالك للضر والنفع والعطاء والمنع لا إله غيره ولا رب سواه»[(١)].

* * *

(١) مجموع فتاوى العلامة عبد العزيز بن باز رحمه الله، (٣/ ٢٤٩).

٢- ذكرٌ منزلٌ محفوظٌ

للعلامة الشيخ عبدالرحمن السعدي رحمه الله

قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ اشتملت هذه الآية على فوائد عديدة:

الأولى: أن القران كلام اللّه غير مخلوق.

الثانية: أن اللّه تعالى عليٌّ على خلقه. وهذا مأخوذ من قوله ﴿نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ فإنه نزل به جبريل من اللّه العزيز العليم، فكونه نازلاً من عند اللّه يدل على علو اللّه، وكونه أيضًا من عنده يدل على أنه كلام اللّه، فإن الكلام صفة للمتكلم ونعت من نعوته.

الثالثة: عظمة القرآن ورفعة قدره وعلو شأنه، حيث أخبر تعالى في هذه الآية بما أخبر أنه الذي تولى إنزاله وحفظه ولم يكل ذلك إلى أحد من خلقه.

الرابعة: أن القرآن مشتمل على كل ما يحتاج العباد إليه من أمور الدنيا وأمور الدين ومن الأحوال الظاهرة والباطنة. فإن معنى الذكر: أنه متضمن لتذكير العباد وتنبيههم لكل ما يحتاجون إليه وتتعلق به منافعهم ومصالحهم والأمر كذلك فإنه مشتمل على أمور الدين والدنيا ومصالحهما على أكمل وجه وأشمله بحيث لو تذكر الخلق بتذكيره ومشوا على إرشاده لاستقامت لهم جميع

الأمور ولاندفعت عنهم الشرور. ولهذا أكثر اللَّه في القرآن من حث العباد على الاهتداء به في كل شيء والتفكر والتدبر لمعانيه النافعة. ويترتب على هذا المعنى الفائدة التالية:

الخامسة: وهي أن من قام بالقرآن وتذكر به كان رفعة له وشرفًا وفخرًا وحسن ذكر وثناء وبهذا أول قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ أي: شرف ورفعة لمن تذكر به واستقام عليه.

السادسة: أن التذكير بغيره غير مفيد ولا مجد على صاحبه نفعًا لأنه إذا ثبت وتقرر أنه مادة التذكير لجميع المنافع علم أن ما ناقضه وخالفه فهو بضد هذا الوصف. ولهذا أتى بالألف واللام المفيدة للاستغراق والعموم.

السابعة: أنه أتى بما يوافق العقل الصحيح والفطر المستقيمة فليس فيه شيء مخالف ولا مناقض للمحسوس ولا معاكس للقياس الصحيح ولا مضاد للعدل والقسط والميزان والحق لأن اللَّه سماه ذكرًا، والذكر هو الذي يذكر العباد ما تقرر من فطرهم السليمة وعقولهم الصحيحة من الحق والحث على الخير والنهي عن الشر فهو مذكر لهم ما عرفوه مجملاً ولم يهتدوا إلى كثير من تفاصيله. فبه تزداد العقول وتتفتق الأذهان وتزكوا الفطر ولشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا المعنى كتاب «موافقة العقل الصريح للنقل الصحيح».

الثامنة: أن اللّه تكفل بحفظه حال إنزاله فلا يمكن أن يقربه شيطان فيغيره ويزيد فيه وينقص، أو يختلط بغيره، بل نزل به القوي الأمين جبريل على قلب الرسول محمد ﷺ الزكي الذكي الذي هو أكمل قلوب الخلق على الإطلاق، وضمن لرسوله قرآنه وبيانه ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾.

التاسعة: وتكفل اللّه أيضًا بحفظه بعد ما نزل وتقرر، فأكمله اللّه تعالى وأكمل به على عباده النعمة، واستحفظه لهذه الأمة على اختلاف طبقات علمائها وأئمتها، ووكلهم به وائتمنهم عليه. فكل قرن حمل عدوله وأزكياؤه - الذين ضمن اللّه لهم العصمة عند اتفاقهم - ألفاظه ومعانيه غضة طرية لا تغيير فيها ولا تبديل، وكل من أراد إدخال شيء فيه أو إخراج شيء منه قيض اللّه من يذب عنه ويحفظه وهذا من حفظه، ويؤيد هذا:

الفائدة العاشرة: أن هذا من أدلة صدقه وصدق ما اشتمل عليه وصدق مَنْ جاء به وهو محمد ﷺ فإنه تعالى أخبر بأنه أنزله وأنه حافظ له فوقع كما أخبر اللّه تعالى فصار هذا آية وبرهانًا على صدقه وصحة ما جاء به كما يشهد بذلك الواقع[١].

❊ ❊ ❊

(١) المواهب الربانية في الآيات القرآنية، (ص٥٢).

٣- أوصاف القرآن

للعلامة الشيخ الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾

افتتاح الجملة باسم الجلالة يؤذن بتفخيم أحسن الحديث المنزل بأن منزله هو أعظم عظيم، ثم الإخبار عن اسم الجلالة بالخبر الفعلي يدل على تقوية الحكم وتحقيقه... ويفيد دلالة على الاختصاص، أي: اختصاص تنزيل الكتاب باللَّه تعالى، وفي الآية خمسة أوصاف لكتاب اللَّه، بيانها كما يلي:

الوصف الأول:

أنه أحسن الحديث، أي: أحسن الخبر... وسمي القرآن حديثًا باسم بعض ما اشتمل عليه من أخبار الأمم والوعد والوعيد. وأما ما فيه من الإنشاء من أمر ونهي ونحوهما فإنه لما كان النبي ﷺ مبلغه للناس آل إلى أنه إخبار عن أمر اللَّه ونهيه.

وقد سُمي القرآن حديثًا في مواضع كثيرة كقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، ومعنى كون القرآن أحسن الحديث أنه أفضل الأخبار لأنه اشتمل على أفضل ما اشتمل

عليه الأخبار من المعاني النافعة والجامعة لأصول الإيمان، والتشريع، والاستدلال، والتنبيه على عظم العوالم والكائنات، وعجائب تكوين الإنسان، والعقل، وبث الآداب، واستدعاء العقول للنظر والاستدلال الحق، ومن فصاحة ألفاظه وبلاغة معانيه البالغين حد الإعجاز، ومن كونه مصدقًا لما تقدمه من كتب اللّه ومهيمنًا عليها، وفي إسناد إنزاله إلى اللّه استشهاد على حسنه حيث نزله العليم بنهاية محاسن الأخبار والذكر.

الوصف الثاني:

أنه كتاب، أي: مجموع كلام مراد قراءته وتلاوته، والاستفادة منه، مأمور بكتابته ليبقى حجة على مرّ الزمان فإن جعل الكلام كتابا يقتضي أهمية ذلك الكلام والعناية بتنسيقه والاهتمام بحفظه على حالته. ولما سمى اللّه القرآن كتابًا كان رسول اللّه ﷺ يأمر كُتّاب الوحي من أصحابه أن يكتبوا كلَّ آية تنزل من الوحي في الموضع المعين لها بين أخواتها استنادًا إلى أمر من اللّه، لأن اللّه أشار إلى الأمر بكتابته في مواضع كثيرة من أولها قوله: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢٢-٢٣]وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾ [الواقعة: ٧٧-٧٨].

الصفة الثالثة:

أنه متشابه، أي: متشابهة أجزاؤه متماثلة في فصاحة ألفاظها

وشرف معانيها، فهي متكافئة في الشرف والحسن... فمعانيه متشابهة في صحتها وأحكامها وابتنائها على الحق والصدق ومصادفة المحز من الحجة وتبكيت الخصوم وكونها صلاحًا للناس وهدى. وألفاظه متماثلة في الشرف والفصاحة والإصابة للأغراض من المعاني بحيث تبلغ ألفاظه ومعانيه أقصى ما تحتمله أشرف لغة للبشر وهي اللغة العربية مفردات ونظمًا، وبذلك كان معجزًا لكل بليغ على أن يأتي بمثله، وفي هذا إشارة إلى أن جميع آيات القرآن بالغ الطرف الأعلى من البلاغة وأنها متساوية في ذلك بحسب ما يقتضيه حال كل آية منها، وأما تفاوتها في كثرة الخصوصيات وقلتها فذلك تابع لاختلاف المقامات ومقتضيات الأحوال، فإن بلاغة الكلام مطابقته لمقتضى الحال، والطرف الأعلى من البلاغة هو مطابقة الكلام لجميع ما يقتضيه الحال، فآيات القرآن متماثلة متشابهة في الحسن لدى أهل الذوق من البلغاء بالسليقة أو بالعلم وهو في هذا مخالف لغيره من الكلام البليغ فإن ذلك لا يخلو عن تفاوت ربما بلغ بعضه مبلغ ألَّا يشبه بقيته، وهذا المعنى مما يدخل في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، فالكاتب البليغ والشاعر المجيد لا يخلو كلام أحد منهما من ضعف في بعضه، وأيضًا

لا تتشابه أقوال أحد منهما بل تجد لكل منهما قطعًا متفاوتة في الحسن والبلاغة وصحة المعاني.

الصفة الرابعة: كونه مثاني، ومثاني: جمع مُثَنًّى، ويجوز كونه جمع مَثنًى، وكلا الاحتمالين يطلق على معنى التكرير. فالقرآن مثاني لأنه مكرر الأغراض. وهذا يتضمن امتنانًا على الأمة بأن أغراض كتابها مكررة فيه لتكون مقاصده أرسخ في نفوسها، وليسمعها من فاته سماع أمثالها من قبل. ويتضمن أيضا تنبيهًا على ناحية من نواحي إعجازه، وهي عدم الملل من سماعه وأنه كلما تكرر غرض من أغراضه زاده تكرره قبولاً وحلاوة في نفوس السامعين. ولذا وصف رسول اللّه ﷺ القرآن: «**بأنه لا يخلق على كثرة الرد**». رواه الترمذي عن علي بن أبي طالب مرفوعا.

الصفة الخامسة: أنه تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم، وهذا الوصف مرتب على الوصف قبله وهو كون القرآن مثاني، أي: مثنى الأغراض، وهو مشتمل على ثلاث جهات: أولاها: وصف القرآن بالجلالة والروعة في قلوب سامعيه، وذلك لما في آياته الكثيرة من الموعظة التي توجل منها القلوب، وهو وصف كمال؛ لأنه من آثار قوة تأثير كلامه في النفوس، ولم يزل شأن أهل الخطابة والحكمة

الحرص على تحصيل المقصود من كلامهم؛ لأن الكلام إنما يواجه به السامعون لحصول فوائد مرجوة من العمل به. . .

وقد اقتضى قوله: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ أن القرآن يشتمل على معانٍ تقشعر منها الجلود وهي المعان الموسومة بالجزالة التي تثير في النفوس روعة وجلالة ورهبة تبعث على امتثال السامعين له وعملهم بما يتلقونه من قوارع القرآن وزواجره، وكني عن ذلك بحالة تقارن انفعال الخشية والرهبة في النفس؛ لأن الإنسان إذا ارتاع وخشي اقشعر جلده من أثر الانفعال، فمعنى ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ﴾ تقشعر من سماعه وفهمه، فإن السماع والفهم متقارنان يقال: اقشعر الجلد، إذا تقبض تقبضًا شديدًا كالذي يحصل عند شدة برد الجسد ورعدته، يقال: اقشعر جلده إذا سمع أو رأى ما يثير انزعاجه وروعه، فاقشعرار الجلود كناية عن وجل القلوب الذي تلزمه قشعريرة في الجلد غالبا.

وقد عد عياض في «الشفاء» من وجوه إعجاز القرآن: الروعة التي تلحق قلوب سامعيه عند سماعه والهيبة التي تعتريهم عند تلاوته لعلو مرتبته على كل كلام من شأنه أن يهابه سامعه، قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

وعن أسماء بنت أبي بكر: «كان أصحاب النبي ﷺ إذا قُرِئ

عليهم القرآن كما نعتهم الله تدمع أعينهم وتقشعر جلودهم».

الجهة الثانية من جهات هذا الوصف: لين قلوب المؤمنين عند سماعه أيضا عقب وجلها العارض من سماعه قبلُ، واللين: مستعار للقبول والسرور، وهو ضد للقساوة التي في قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، فإن المؤمن إذا سمع آيات الوعيد والتهديد يخشى ربه ويتجنب ما حذر منه فيقشعر جلده فإذا عقب ذلك بآيات البشارة والوعد استبشر وفرح وعرض أعماله على تلك الآيات فرأى نفسه متحلية بالعمل الذي وعد الله عليه بالثواب فاطمأنت نفسه وانقلب الوجل والخوف رجاء وترقبا، فذلك معنى لين القلوب.

وإنما يبعث هذا اللين في القلوب ما في القرآن من معاني الرحمة وذلك في الآيات الموصوفة معانيها بالسهولة نحو قوله تعالى: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، والموصوفة معانيها بالرقة نحو ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ [الزخرف: ٦٨-٦٩]، وقد علم في فن الخطابة أن للجزالة مقاماتها وللسهولة والرقة مقاماتها.

الجهة الثالثة من جهات هذا الوصف: أعجوبة جمعه بين التأثيرين المتضادين: مرة بتأثير الرهبة، ومرة بتأثير الرغبة،

ليكون المسلمون في معاملة ربهم جارين على ما يقتضيه جلاله وما يقتضيه حلمه ورحمته. وهذه الجهة اقتضاها الجمع بين الجهتين المصرح بهما وهما جهة القشعريرة وجهة اللين، مع كون الموصوف بالأمرين فريقًا واحدًا وهم الذين يخشون ربهم، والمقصود وصفهم بالتأثرين عند تعاقب آيات الرحمة بعد آيات الرهبة. قال الفخر: «إن المحققين من أهل الكمال قالوا: السائرون في مبدأ جلال اللّه إن نظروا إلى عالم الجلال طاشوا، وإن لاح لهم أثر من عالم الجمال عاشوا» اهـ. فالآية هنا ذكرت لهم الحالتين لوقوعها بعد قوله: ﴿مَّثَانِيَ﴾ كما أشرنا إليه آنفًا. وإلا فقد اقتصر على وصف حال المؤمنين بالوجل في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٥]، فالمقام هنا لبيان تأثر المؤمنين بالقرآن، والمقام هنالك للثناء على المؤمنين بالخشية من اللّه في غير حالة قراءة القرآن.

وإنما جمع بين الجلود والقلوب في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ ولم يكتف بأحد الأمرين عن الآخر كما اكتفي في قوله: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ لأن اقشعرار الجلود حالة طارئة عليها لا يكون إلا من وجل القلوب وروعتها فكني به عن تلك الروعة. وأما لين الجلود عقب تلك القشعريرة فهو رجوع الجلود إلى حالتها السابقة قبل اقشعرارها، وذلك قد

يحصل عن تناس أو تشاغل بعد تلك الروعة، فعطف عليه لين القلوب ليعلم أنه لين خاص ناشئ عن اطمئنان القلوب بالذكر كما قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] وليس مجرد رجوع الجلود إلى حالتها التي كانت قبل القشعريرة، ولم يكتف بذكر القلوب عن لين الجلود؛ لأنه قصد أن لين القلوب أعمها حتى ظهر أثره على ظاهر الجلود.

و﴿ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ هو أحسن الحديث، وعدل عن ضميره لبعد المعاد، وعدل عن إعادة اسمه السابق لمدحه بأنه ذكر من اللّٰه بعد أن مدح بأنه أحسن الحديث. والمراد بـ﴿ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ ما في آياته من ذكر الرحمة والبشارة، وذلك أن القرآن ما ذكر موعظة وترهيبا إلا أعقبه بترغيب وبشارة.

وعدي فعل ﴿تَلِينُ﴾ بحرف ﴿إِلَىٰ﴾ لتضمين ﴿تَلِينُ﴾ معنى: تطمئن وتسكن.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾.

استئناف بياني فإن إجراء تلك الصفات الغر على القرآن الدالة على أنه قد استكمل أقصى ما يوصف به كلام بالغ في نفوس المخاطبين كيف سلكت آثاره إلى نفوس الذين يخشون ربهم مما يثير سؤالا يهجس في نفس السامع أن يقول: كيف لم تتأثر به

نفوس فريق المصرين على الكفر وهو يقرع أسماعهم يومًا فيومًا، فتقع جملة ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ جوابًا عن هذا السؤال الهاجس.

فالإشارة إلى مضمون صفات القرآن المذكورة وتأثر المؤمنين بهديه، أي: ذلك المذكور هدى اللَّه، أي: جعله اللَّه سببًا كاملًا جامعًا لوسائل الهدى، فمن فطر اللَّه عقله ونفسه على الصلاحية لقبول الهدى سريعًا أو بطيئًا اهتدى به، كذلك من فطر اللَّه قلبه على المكابرة، أو على فساد الفهم ضل فلم يهتد حتى يموت على ضلاله، فأطلق على هذا الفطر اسم الهدى واسم الضلال، وأسند كلاهما إلى اللَّه؛ لأنه هو جبار القلوب على فطرتها وخالق وسائل ذلك ومدبر نواميسه وأنظمته.

فمعنى إضافة الهدى إلى اللَّه في قوله: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ﴾ راجع إلى ما هيأه اللَّه للهدى من صفات القرآن فإضافته إليه بأنه أنزله لذلك. ومعنى إسناد الهدى والإضلال إلى اللَّه راجع إلى مراتب تأثر المخاطبين بالقرآن وعدم تأثرهم بحيث كان القرآن مستوفيًا لأسباب اهتداء الناس به فكانوا منهم من اهتدى به ومنهم من ضل عنه. ويجوز أن تكون الإشارة إلى ﴿أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ وهو الكتاب، أي ذلك القرآن هدى اللَّه، أي: دليل هدى اللَّه، ومقصده: اهتدى به من شاء اللَّه اهتداءه، وكفر به من شاء اللَّه ضلاله.

فجملة ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ تذييل للاستئناف البياني.

ومعنى ﴿مَن يَشَآءُ﴾ على تقدير: من يشاء هديه، أي: من تعلقت مشيئته، وهي إرادته بأنه يهتدي فخلقه متأثرا بتلك المشيئة فقدر له الاهتداء، وفهم من قوله: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ أنه لا يهدي به من لم يشأ هديه وهو ما دلت عليه المقابلة بقوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾، أي: من لم يشأ هديه فلم يقلع عن ضلاله فلا سبيل لهديه. والمعنى: إن ذلك لنقص في الضال لا في الكتاب الذي من شأنه الهدى[١].

* * *

(١) التحرير والتنوير (٢٤ / ٦٦ - ٧٣).

تدبر القرآن

١- مدخل لتدبر القرآن

محمد بن شاكر الشريف

ذكر اللَّه - تعالى - في كتابه التدبُّر وحض عليه، فعندما حض القرآن الناس على التدبر، فقد حضهم على النظر إلى القرآن من جميع جوانبه والتأمل فيه بعمق، ولا يكتفوا فقط بالظاهر، وذلك لأن القرآن حق، فمن أي جهة نظر إليه الإنسان وتأمل فيه، فلن يملك غير الإقرار بأن الكتاب حق، وأنه من عند اللَّه العلي الكبير.

وحَضُّ المشركين على النظر العميق والتأمل في القرآن من جميع جوانبه، يُعَدُّ نوعًا من التحدي لهم، فكأن الآيات تقول لهم: اجهدوا جهدكم وافعلوا ما شئتم، وانظروا في الكتاب بعمق وكرِّروا النظر وأعيدوه أكثر من مرة، فلن يقودكم ذلك إلى وجود نقص أو اختلاف فيما جاء به، ولو كان هذا القدر الكبير من الآيات على تنوع المواضيع التي اشتمل عليها والتي تنزلت في أماكن متفرقة وأزمان متباعدة وظروف مختلفة لو كان من عند غير اللَّه - تعالى - لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا.

وأما المؤمن فإن تدبُّره لكتاب اللَّه - تعالى - يفتح له آفاقًا واسعة للانتفاع بما في هذا الكتاب من أنواع العلوم المختلفة مما

يقوده إلى استنباط كثير من الأحكام التي لم تكن تظهر عند عدم التدبُّر التام، كما أن التدبر يزيد في إيمان المسلم حتى تبدو أمامه الأمور وكأنه يراها بعينيه أو يلمسها بيديه، وقد قال الله - تعالى - في كتابه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩]، فبيَّن الله - سبحانه وتعالى - أن تدبر الآيات من المقاصد العظمى في نزول القرآن، وقد جاء الحضُّ على التدبر في آيات عدَّة من كتاب الله - تعالى - فقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، كما قال - تعالى -: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]، وقال: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٦٨].

قال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «يأمر - تعالى - بتدبر كتابه، وهو التأمل في معانيه، وتحديق الفكر فيه، وفي مبادئه وعواقبه، ولوازم ذلك؛ فإن تدبُّر كتاب الله مفتاح للعلوم والمعارف، وبه يُستنتَج كلُّ خير وتُستَخرَج منه جميع العلوم، وبه يزداد الإيمان في القلب وترسخ شجرته، فإنه يعرِّف بالرب المعبود، وما له من صفات الكمال، وما يُنزَّه عنه من سمات النقص، ويعرِّف الطريق الموصلة إليه وصفة أهلها، وما لهم عند القدوم عليه، ويعرِّف العدو الذي هو العدو على الحقيقة،

والطريق الموصلة إلى العذاب، وصفة أهلها، وما لهم عند وجود أسباب العقاب.

وكلما ازداد العبد تأملاً فيه، ازداد علمًا وعملاً وبصيرةً، لذلك أمر اللَّه بذلك وحث عليه وأخبر أنه (هو) المقصود بإنزال القرآن»[١].

كيف يكون التدبر؟

والتدبر يكون عن طريق النظر والتأمل في النص وفي مفرداته وكيفية تركيب هذه المفردات معًا، وفي المعاني التي اشتمل عليها، وما يلزم ذلك من المعاني المبنيَّة عليها، كما يكون التدبر بالنظر في عدة نصوص؛ ليربط بينها فيبدو منها مجتمعة ما لم يكن باديًا عند النظر على الانفراد لكل منها.

والتدبر هو: محاولة إخراج ما في النص من مختلف الدلالات التي لا تظهر بادي الرأي، وليس من معنى التدبر: الإتيان بالغريب من الأقوال التي تعارض ظاهر النصوص، وإنما هو كشف لمعاني مستكِنَّة في النصوص لا تتحصل إلا بالفهم العميق والنظر والتأمل الكثير؛ فالتدبر وإن لم يكن تفسيرًا لكنه لا يناقض التفسير، بل يمثل رافدًا له.

---

(١) تفسير ابن سعدي (١/ ١٨٩-١٩٠).

معوِّقات التدبر:

مما يعيق تدبر المرء عند قراءته للقرآن، العادة والإلف، فإن المسلم - نظرًا لكثرة قراءته ومداومته النظر في كتاب اللَّه العزيز - يصير ما اشتمل عليه من المعاني العالية والعجائب اللطيفة من قبيل العادات؛ فلا يشعر القارئ بما فيها من عجائب الأمور ودقيق المعاني، كما أن الغفلة أثناء القراءة عما يقرؤه الإنسان تشكِّل عقبة كأداء في طريق التدبر؛ حيث يسرح القارئ بفكره في أمور كثيرة لا علاقة لها بما يقرأ، ويضاف إلى ذلك رغبته في الانتهاء من وِرْده، ولذلك قال مَن قال من السلف: «لا يكن همُّ أحدكم آخر السورة، ولا تهذُّوه كهذِّ الشَّعر ولا تنثروه نثر الدقل[1] بل قفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب».

* * *

(١) الدقل: هو رديء التمر ويابسه، لسان العرب: مادة (دقل).

٢- منزلة تدبر القرآن

إبراهيم بن عبد الرحمن التركي

لما كان القرآن هادي البشرية ومرشدها، ونور الحياة ودستورها، اعتنى به الرسول ﷺ وأصحابه تلاوة وحفظًا وفهمًا وتدبرًا وعملًا، وسار على ذلك أئمة السلف رضوان الله عليهم أجمعين، ولما ضعفت الأمة في عصورها المتأخرة تراجع الاهتمام بالقرآن وانحسر حتى اقتصر الأمر عند غالب المسلمين على حفظه وتجويده وتلاوته دون تدبر ولا فهم لمعانيه ومقاصده، وترتب على ذلك ترك العمل به أو التقصير في تحقيق مقاصده وأحكامه، «وقد أنزل الله القرآن وأمرنا بتدبره، وتكفل لنا بحفظه، فانشغلنا بحفظه وتركنا تدبره»[١].

وليس المقصود عند بيان أهمية تدبره والعمل به الدعوة لترك حفظه وتلاوته وتجويده، فلا شك أن ذلك مقصد عظيم وفيه أجر كبير، لكن المراد التوازن بين الحفظ والتلاوة والتجويد وبين الفهم والتدبر والعمل به، كما كان عليه سلفنا الصالح رحمهم الله تعالى.

---

(١) حول التربية والتعليم، د عبد الكريم بكار، (ص ٢٢٦).

والتدبر كما قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ هو: «تحديق ناظر القلب إلى معانيه، وجمع الفكر على تدبره وتعقله»[(١)]. وقيل: «هو التفكر الشامل الواصل إلى أواخر دلالات الكلم ومراميه البعيدة»[(٢)].

وما يلي بعض النصوص الدالة على منزلة التدبر في ضوء الكتاب والسنة وأقوال السلف الصالح.

منزلة التدبر في القرآن الكريم:

١- قال اللَّه تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩] في هذه الآية بين اللَّه تعالى أن الغرض الأساس من إنزال القرآن هو التدبر والتذكر لا مجرد التلاوة. قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ : «واللَّه! ما تدبُّره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده حتى إن أحدهم ليقول: قرأت القرآن كلَّه، ما يُرى له القرآنُ في خُلُق ولا عمل»[(٣)].

٢- قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ﴾ [النساء: ٨٢].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ : «يقول اللَّه تعالى آمرًا عباده بتدبر القرآن وناهيًا لهم عن الإعراض عنه وعن تفهم معانيه المحكمة وألفاظه

---

(١) نضرة النعيم، (ص ٩٠٩).

(٢) قواعد التدبر الأمثل للميداني، (ص ١٠).

(٣) تفسير ابن كثير، (٧/ ٦٤)، ط: طيبة.

البليغة: أفلا يتدبرون القرآن»[١].

٣- قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ الْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُولَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [البقرة: ١٢١]. قال ابن مسعود رضي الله عنه: «والذي نفسي بيده! إن حق تلاوته أن يحل حلاله ويحرم حرامه ويقرأه كما أنزله الله»[٢].

وقال الشوكاني رحمه الله: «يتلونه: يعملون بما فيه»[٣].

٤ - قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨]. قال الشوكاني رحمه الله: «وقيل: (الأماني): التلاوة، أي: لا علم لهم إلا مجرد التلاوة دون تفهم وتدبر»[٤]، وقال ابن القيم رحمه الله: «ذم الله المحرفين لكتابه والأميين الذين لا يعلمون منه إلا مجرد التلاوة وهي الأماني»[٥].

٥ - قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى اتَّخَذُوا۟ هَٰذَا الْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠]، قال ابن كثير رحمه الله: «وترك

---

(١) تفسير ابن كثير، (٣/ ٣٦٤) ط: طيبة.
(٢) تفسير ابن كثير، (١/ ٤٠٣).
(٣) فتح القدير، (١/ ١٣٥).
(٤) فتح القدير، (١/ ١٠٤).
(٥) بدائع التفسير، (١/ ٣٠٠).

تدبره وتفهمه من هجرانه»[١].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ : «هجر القرآن أنواع... الرابع: هجر تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد المتكلم به منه»[٢].

منزلة التدبر في السنة

١ - عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده»[٣].

٢ - عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة فكان يقرأ مترسلاً إذا مر بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مر بتعوذ تعوذ»[٤].

٣ - عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «صلى رسول الله ﷺ ليلة فقرأ بآية حتى أصبح يركع بها ويسجد بها: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾» [المائدة: ١١٨][٥].

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ١٠).

(٢) بدائع التفسير (٢/ ٢٩٢).

(٣) رواه مسلم، (ح/ ٢٦٩٩).

(٤) رواه مسلم، (ح/ ٧٧٢).

(٥) رواه أحمد، (ح/ ٢٠٣٦٥).

٤ - قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : «كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن»[١] .

٥ - عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ قال: «**لا يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث**»[٢] .

منزلة التدبر عند السلف:

١ - عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: تعلم عمر البقرة في اثنتي عشرة سنة، فلما ختمها نحر جزورًا[٣] ، وطول المدة لأجل التدبر وتعلم معانيها روى مالك.

٢ - عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «قدم على عمر رجل فجعل عمر يسأل عن الناس فقال: يا أمير المؤمنين! قد قرأ القرآن منهم كذا وكذا، فقلت: واللّه ما أحب أن يسارعوا يومهم هذا في القرآن هذه المسارعة. قال: فزبرني عمر، ثم قال: مه! فانطلقت لمنزلي حزينًا فجاءني، فقال: ما الذي كرهت مما قال الرجل آنفًا؟ قلت: متى ما يسارعوا هذه المسارعة يحتقوا - يختصموا: كلٌ يقول الحق عندي - ومتى يحتقوا يختصموا، ومتى

(١) رواه الطبري في تفسيره، (١/ ٨٠).

(٢) رواه الدارمي والترمذي برقم (٢٨٧٠)، وصححه ورواه أحمد وأبو داود بلفظ: لم يفقه.

(٣) نزهة الفضلاء، تهذيب سير أعلام النبلاء، (١/ ٣٥أ).

اختصموا يختلفوا، ومتى ما يختلفوا يقتتلوا، فقال عمر: لله أبوك! لقد كنتُ أكتمها الناس حتى جئت بها»[(١)]، وقد وقع ما خشي منه عمر وابن عباس رضي الله عنهما فخرجت الخوارج الذين يقرؤون القرآن لكنه لا يجاوز تراقيهم.

٣ - عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «كان الفاضل من أصحاب رسول الله ﷺ في صدر هذه الأمة لا يحفظ من القرآن إلا السورة ونحوها ورزقوا العمل بالقرآن، وإن آخر هذه الأمة يقرؤون القرآن، منهم الصبي والأعمى ولا يرزقون العمل به».

وفي هذا المعنى قال ابن مسعود: «إنا صعب علينا حفظ ألفاظ القرآن، وسهل علينا العمل به، وإن مَنْ بعدنا يسهل عليهم حفظ القرآن ويصعب عليهم العمل به»[(٢)].

٤ - قال الحسن البصري رحمه الله: «إن هذا القرآن قد قرأه عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله، وما تدبُّر آياته إلا باتباعه، وما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده حتى إن أحدهم ليقول: لقد قرأت القرآن فما أسقطت منه حرفًا وقد - والله! - أسقطه كله ما يُرى القرآن له في خلق ولا عمل، حتى إن أحدهم ليقول: إني لأقرأ السورة في نَفَسٍ! والله! ما هؤلاء بالقراء ولا العلماء ولا

(١) نزهة الفضلاء، تهذيب سير أعلام النبلاء، (١/ ٢٧٩).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، (١/ ٣٩-٤٠) وانظر مجلة المجتمع عدد (١٢١٦).

الحكماء ولا الوَرَعة متى كانت القراء مثل هذا؟! لا كثَّر اللَّه في الناس أمثالهم»[١].

٥ - وقال الحسن أيضًا: «نزل القرآن ليُتَدَبَّر ويعمل به؛ فاتخذوا تلاوته عملًا»[٢]. أي: أن عمل الناس أصبح تلاوة القرآن فقط بلا تدبر ولا عمل به.

٦ - كان شعبة بن الحجاج بن الورد يقول لأصحاب الحديث: «يا قوم! إنكم كلما تقدمتم في الحديث تأخرتم في القرآن». وفي هذا تنبيه لمن شغلته دراسة أسانيد الحديث ومسائل الفقه عن القرآن وتدبره[٣].

٧ - وقال محمد بن كعب القرظي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لأن أقرأ في ليلتي حتى أصبح بـ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ و﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ لا أزيد عليهما أحب إليَّ من أن أهذَّ القرآن ليلتي هذًّا»، أو قال: «أنثره نثرًا»[٤].

٨ - قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده من تدبر القرآن وجمع الفكر على معاني آياته؛ فإنها تطلع العبد على معالم الخير والشر بحذافيرها وعلى طرقاتهما

---

(١) الزهد، (ص٢٧٦) وانظر مفاتيح للتعامل مع القرآن للخالدي، (ص ٤٦).
(٢) مدارج السالكين، (١/ ٤٨٥).
(٣) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء، (٢/ ٥٨٢).
(٤) الزهد لابن المبارك، (٩٧)، وانظر نضرة النعيم، (٩١٣).

وأسبابهما وثمراتهما ومآل أهلهما، وتتل في يده مفاتيح كنوز السعادة والعلوم النافعة، وتثبت قواعد الإيمان في قلبه، وتريه صورة الدنيا والآخرة والجنة والنار في قلبه، وتحضره بين الأمم، وتريه أيام اللَّه فيهم، وتبصره مواقع العبر، وتشهده عدل اللَّه وفضله وتعرفه ذاته وأسماءه وصفاته وأفعاله وما يحبه وما يبغضه وصراطه الموصل إليه وقواطيع الطريق وآفاته، وتعرفه النفس وصفاتها ومفسدات الأعمال ومصححاتها، وتعرفه طريق أهل الجنة وأهل النار وأعمالهم وأحوالهم وسيماهم ومراتب أهل السعادة وأهل الشقاوة.

فتشهده الآخرة حتى كأنه فيها، وتغيبه عن الدنيا حتى كأنه ليس فيها، وتميز له بين الحق والباطل في كل ما يختلف فيه العالم، وتعطيه فرقانًا ونورًا يفرق به بين الهدى والضلال، وتعطيه قوة في قلبه وحياة واسعة وانشراحًا وبهجة وسرورًا فيصير في شأن والناس في شأن آخر، فلا تزال معانيه تنهض العبد إلى ربه بالوعد الجميل، وتحذره وتخوفه بوعيده من العذاب الوبيل، وتهديه في ظلم الآراء والمذاهب إلى سواء السبيل، وتصده عن اقتحام طرق البدع والأضاليل، وتبصره بحدود الحلال والحرام وتوقفه عليها؛ لئلا يتعداها فيقع في العناء الطويل، وتناديه كلما

فترت عزماته: تقدمَ الركبُ، وفاتك الدليل، فاللحاقَ اللحاقَ، والرحيلَ الرحيلَ»[١]. فاعتصم بالله واستعن به وقل: «حسبي الله ونعم الوكيل»[٢].

* * *

(١) مدارج السالكين، (١/ ٤٨٥، ٤٨٦).

(٢) انظر كتاب مفاتيح للتعامل مع القرآن للخالدي، (ص ٦٦).

٣- وجوب تدبر كلام الله

لفضيلة الشيخ محمد أمين الشنقيطي

قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾.

الهمزة في قوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ﴾ للإنكار، والفاء عاطفة على جملة محذوفة...، والتقدير أيعرضون عن كتاب الله فلا يتدبرون القرآن، وقوله تعالى: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾... أنكر تعالى عليهم إعراضهم عن تدبر القرآن، وبين أن قلوبهم عليها أقفال لا تنفتح لخير، ولا لفهم قرآن.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من التوبيخ والإنكار على من أعرض عن تدبر كتاب الله، جاء موضحًا في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

وقد ذم جل وعلا المعرض عن هذا القرآن العظيم في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ [الكهف: ٥٧]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ

أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ [السجدة: ٢٢].

ومعلوم أن كل من لم يشتغل بتدبر آيات هذا القرآن العظيم أي: تصفحها وتفهمها، وإدراك معانيها والعمل بها، فإنه معرض عنها، غير متدبر لها، فيستحق الإنكار والتوبيخ المذكور في الآيات إن كان اللَّه أعطاه فهمًا يقدر به على التدبر، وقد شكا النبي ﷺ إلى ربه من هجر قومه هذا القرآن، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

وهذه الآيات المذكورة تدل على أن تدبر القرآن وتفهمه وتعلمه والعمل به، أمر لا بد منه للمسلمين. وقد بين النبي ﷺ أن المشتغلين بذلك هم خير الناس، كما ثبت عنه ﷺ في الصحيح من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه قال: «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**» وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩].

فإعراض كثير من الأقطار عن النظر في كتاب اللَّه وتفهمه والعمل به وبالسنة الثابتة المبينة له. من أعظم المناكر وأشنعها، وإن ظن فاعلوه أنهم على هدى(١).

❊ ❊ ❊

(١) أضواء البيان (٧/ ٢٥٧).

٤ - تدبرٌ لا تفسير

د. عمر المقبل

يكثر الحديث عن تدبر القرآن - وخصوصًا في هذه الأيام المباركة - وهو أمرٌ لا يختلف عليه اثنان من حيث أهميتُه، وفضلُه، وعظيمُ أثره على القلب، إلا أن كثيرًا من الناس يتوقف تفاعله مع هذا الموضوع عند حدِّ سماع أهميته وفضائله؛ لأنه يشعر أن بينه وبين التدبر مفاوز، ومسافات حتى يكون أهلًا لممارسته، والتنعم بآثاره، فهو يظن أنه لا بد من أن يكون على علمٍ بتفسير أي آية يتدبرها! بل ربما خُيِّل إليه أنه لا يجوز الاقتراب من سياجه حتى يكون بمنزلة العالم المفسر الفلاني الذي يشار إليه بالبنان!

ولله! كم حرم هذا الظن فئامًا من الناس من لذة التدبر، وحلاوة التأمل في الكتاب العزيز! وكم فات عليهم بسببه من خير عظيم!

ولا شك أن الدافع الذي منعهم من الاقتراب من روضة التدبر دافعٌ شريف، وهو الخوف من القول على الله بغير علمٍ، ولكن الشأن هنا، هل هذا الظن صحيح، وتطبيقه في محله؟

والجواب: ليس الأمر كذلك، فإن دائرة التدبر أوسع وأرحب من دائرة التفسير، ذلك أن فهم القرآن نوعان:

النوع الأول: فهمٌ ذهني معرفي.

والنوع الثاني: فهمٌ قلبي إيماني.

فالنوع الأول: وهو تفسير الغريب، واستنباط الأحكام، وأنواع الدلالات هو الذي يختص بأهل العلم - على تفاوت مراتبهم - وهم يَمْتَحون منه، ويغترفون من علومه على قدر ما آتاهم اللَّه تعالى من العلم والفهم ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾، وليس هذا مرادًا لنا هنا، بل المراد هو الآتي، وهو:

النوع الثاني: - وهو الفهم الإيماني القلبي - الذي ينتج عن تأملِ قارئ القرآن لما يمرُّ به من آيات كريمة، يعرف معانيها، ويفهم دلالاتها، بحيث لا يحتاج معها أن يراجع التفاسير، فيتوقف عندها متأملًا؛ ليحرك بها قلبه، ويعرض نفسه وعمله عليها، إن كان من أهلها حمد اللَّه، وإن لم يكن من أهلها حاسب نفسه واستعتب.

والفهم الثاني هو الغاية، والأول إنما هو وسيلة.

يقول الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: العلم علمان: علمٌ في القلب فذاك العلم النافع، وعلمٌ على اللسان فتلك حجة اللَّه على خلقه.

ولعلي أضرب مثلًا يوضح المقصود: تأمل معي أخي القارئ في أواخر سورة النبأ.

يقول تعالى: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ

يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا﴾.

فهل هذه الآية الكريمة تحتاج من المسلم حتى يفهمها ويتدبرها إلى رجوع للتفاسير؟.

كلا، بل هو يحتاج أن يتوقف قليلاً؛ ليعيش ذلك المشهد المهول، ويراجع حسابه مع قرب هذا اليوم، ماذا أعد له؟ وماذا يتمنى لو عرضت عليه الآن صحائف أعماله، حسنِها وسيئِها؟ ولماذا يتمنى الكافر أن يكون ترابًا؟.

أحسب أن الإجابة عن هذه التساؤلات، كفيلة بأن يتحقق معها مقصود التدبر، وهذا ما قصدته بقولي - عن النوع الثاني من الفهم -: الفهم القلبي الإيماني.

ومن تأمل القرآن، وجد أن القضايا الكلية الكبرى واضحةٌ جدًّا، بحيث يفهمها عامة من يتكلمون اللغة العربية، كقضايا التوحيد، واليوم الآخر بوعده ووعيده وأهواله، وأصول الأخلاق الكريمة والرديئة.

وعندي من أخبار التأملات التي أبداها بعض العامة، ما يجعلني أجزم أن من أعمل ذهنه قليلاً - مهما كان مستواه العلمي - في هذه الموضوعات، فسيظفر بخير عظيم.

وإليك هذا الموقف الذي وقع لرجلٍ عامي في منطقتنا حينما سمع الإمام يقرأ قول الله تعالى - في سورة الأحزاب: ﴿وَإِذْ

أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ قام فزعًا بعد الصلاة يقول لجماعة المسجد: يا جماعة! خافوا الله! هؤلاء خيرة الرسل سيسألون عن صدقهم، فماذا نقول نحن؟! فبكى وأبكى رَحِمَهُ ٱللَّهُ .

ومن وُفق للتدبر، والعيش مع القرآن، فقد أمسك بأعظم مفاتيح حياة القلب، كما يقول ابن القيم: «التدبر مفتاح حياة القلب»، وسيجد أن العيش مع القرآن لا يعادله عيش! ألم يقل الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾؟ لا والله، ما جعله شقاء، ولكن جعله رحمةً، ونورًا، ودليلاً إلى الجنة كما قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ .

أسأل الله تعالى أن يفتح قلبي وقلبك لفهم كتابه، وتدبره على الوجه الذي يرضيه عنا، وصلى الله وسلم على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

❋ ❋ ❋

٥ - وما تدبر آياته إلا اتباعه

عبد اللطيف بن عبد الله التويجري

حين تلقَّى السلف الصالح القرآنَ العظيمَ بعقيدة راسخة مملوءة بالإيمان الجازم أن هذا الكتاب العظيم هو خطاب الله - عز وجل - لهم في هذه الأرض، كانت لهم عناية فائقة به (حفظًا وفهمًا وعملًا)؛ يقتدون بالأسوة الحسنة نبينا محمد ﷺ الذي كان خُلُقه القرآن. فعن سعد بن هشام قال: سألت عائشة رضي الله عنها فقلت: يا أم المؤمنين! أنبئيني عن خلق رسول الله ﷺ. قالت: ألست تقرأ القرآن؟ قلت بلى. قالت: فإن خلق نبي الله ﷺ كان القرآن[(١)].

وإن المتأمل لتدبُّر هؤلاء السلف للقرآن ليلحظ معنى جميلًا يُبرِز المنهجية العملية لتدبُّرهم ويدور حول لازم هذا التدبُّر وأثره، وهو: الاتعاظ والعمل بما في القرآن.

ولذلك ظهر هذا المعنى في مقولات كثير من العلماء في أثناء حديثهم عن تدبر القرآن الكريم، حيث بيَّنوا هذا المعنى وأكدوا

(١) أخرجه مسلم (١٧٧٣)

عليه. يقول: سيد التابعين الحسن البصري: «وما تدبُّر آياته إلا اتِّباعُه»[١].

وهذا شيخ المفسرين الإمام الطبري يبين أن التدبر هو تدبُّر حجج الله التي في القرآن، وما شرعه فيه من الشرائع للاتعاظ والعمل به[٢].

والإمام ابن القيم ينقل عن بعض السلف قوله: «نزل القرآن ليُعمَل به فاتَخذوا تلاوته عملاً؛ ولهذا كان أهل القرآن هم العاملون به، والعاملون بما فيه، وإن لم يحفظوه عن ظهر قلب، وأما من حفظه ولم يفهمه ولم يعمل بما فيه، فليس من أهله وإن أقام حروفه إقامة السهم»[٣].

والشيخ محمد الأمين الشنقيطي يبين هذا المعنى أيضًا بقوله: «تدبُّر آيات هذا القرآن العظيم أي: تصفُّحها، وتفهُّمها، وإدراك معانيها، والعمل بها»[٤].

فهذا التدبر - كما توحي عبارات هؤلاء العلماء - له لوازم من أهمها: عمل القلب والجوارح بما يتدبره الإنسان، وإلا لم يعد

(١) مصنف عبد الرزاق (٥٩٨٤).
(٢) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن (٢٣/ ١٥٣).
(٣) زاد المعاد، لابن القيم (١/ ٣٢٣).
(٤) أضواء البيان (٧/ ٤٢٩).

تدبرًا سليمًا؛ ولذا نجد أن اللَّه - عزوجل - وبخ الكافرين والمنافقين في قوله - تعالى -: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وقوله - تعالى -: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤] لأنهم لم يتعظوا ولم يعملوا، وهذا من دقة البلاغة اللفظية للقرآن حيث جاءت بهذا اللفظ (التدبر) في سياق خطاب توبيخي للكفار والمنافقين، ولم تأت بمصطلحات أخرى مشابهة مثل: النظر أو الفهم أو التفسير ونحوها؛ لأن هذه الأمور قد يفعلها غير الملتزم بأحكام الإسلام؛ فبعضهم قد ينظر في القرآن وقد يفهم وقد يفسر[1]، ولكنه لم يفعل ثمرة إنزال القرآن وأسّه، وهو: الاتعاظ والعمل.

فالعمل إذن شرط أساس للتدبر؛ لأنه لازم حصول التدبر، وهذا هو الذي يميز التدبر عن غيره من المصطلحات القرآنية الأخرى المشابهة له، مثل: النظر أو التفكير أو الفهم... صحيح أنها قد تتداخل مع التدبر: إما بمعناه اللُّغوي كالنظر في عواقب الأمور مثلًا، أو يدخل بعضها الآخر باللزوم أو الاقتضاء كمطلق

(١) كحال الكفار والمنافقين وبعض المستشرقين الذين فهموا القرآن ولم يزدهم إلا إصرارًا وعنادًا.

التفكير، أو إمعان النظر والتركيز، ونحوه، لكن التدبر لا بد له من الاتعاظ والعمل كما سبق[١].

وبصورة أوضح فإن هذا المعنى العظيم يظهر في الطريقة العملية لتلقي هؤلاء السلف للقرآن، والمنهجية العلمية التي يسيرون عليها؛ حيث جاءت الروايات والأخبار عن عدد من الصحابة ﷺ منهم عثمان بن عفان وعبد اللّه ابن مسعود وأبي بن كعب ﷺ أنهم كانوا يأخذون من رسول اللّه ﷺ عشر آيات فلا يأخذون في العشر الأخرى، حتى يعلموا ما في هذه من العلم والعمل قالوا: فتعلمنا العلم والعمل[٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية معلقًا على هذا الأثر: «تدبُّر الكلام إنما ينتفَع به إذا فُهِم، قال - تعالى -: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣]. فالرسل تبين للناس ما أنزل إليهم من ربهم، وعليهم أن يبلِّغوا الناس البلاغ المبين،

---

(١) ينظر كتاب: مفهوم التدبر في ضوء الدراسة التحليلية لآياته في القرآن، للدكتور: محمد زيلعي هندي، وكتاب: مفهوم التدبر. تحرير وتأصيل، إشراف: مركز تدبر، ص (٢٠٩).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ١١٧)، والإمام أحمد في مسنده (٣٨/ ٤٦٦)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٤/ ٨٢)، والبيهقي في سننه الكبرى (٣/ ١١٩)، وابن جرير الطبري في تفسيره (١/ ٧٤) وابن سعد في الطبقات الكبرى (٦/ ١٧٢).

والمطلوب من الناس أن يعقلوا ما بلّغه الرسل، والعقل يتضمن العلم والعمل؛ فمن عرف الخير والشر، فلم يتَّبع الخير ويحذر الشر لم يكن عاقلًا»[١].

من هذا المنطلق يظهر أن هذا الأثر الشهير الذي دائمًا نقرؤوه في الكتب، ونسمعه في المحافل العلمية والتربوية: أنه هو الأسُّ الذي تبنى عليه قضية التدبر؛ حيث إنه وضَّح لنا بصورة جليَّة الطريقة العملية المثلى لتدبُّر كتاب اللّه، ممن عاصر التنزيل وعرف التأويل؛ حيث بينوا لنا أنهم يتدرجون في أخذ الآيات ويفرقونها على أوقات؛ من أجل أن يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، وبهذا يكونون قد تدبروه حق التدبر؛ فهم يقرءون لكي يفهموا، ويفهمون لكي يعملوا.

إن تعلم القرآن وأخذه بهذه الطريقة أدعى للفهم والاستيعاب من غيرها؛ فاللّه - عز وجل- يقول لنبيه: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

وحِرْص سلفنا الصالح على أخذ القرآن بهذه الطريقة المفرَّقة؛ إنما هو بسبب إيمانهم بأهمية ركني التدبر «الفهم السليم ثم العمل» لأنها الطريقة المثلى لتدبر كتاب اللّه؛ حيث يتلازم العلم والعمل،

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١٥/١٠٨).

ولا تكون تلاوته بحق إلا بهذا كما بينه الصحابي الجليل: عبد اللَّه ابن مسعود ﷺ بقوله: «والذي نفسي بيده! إن حق تلاوته أن يحل حلاله ويحرم حرامه، ويقرأه كما أنزله اللَّه»(١). حيث بين ﷺ لازم حق هذه التلاوة وهو العمل بما فيه، والعمل لا يكون إلا بالفهم.

وإبرازًا لهذه الصورة العملية فإنه يَحسُن ذكر بعض الأمثلة والشواهد التي جسَّدت هذا المعنى وأبانته من لدن السلف الصالح الأخيار، فلنتأملها ونتأمل كيف اقتضى عندهم العلمُ العملَ، فمن ذلك ما رواه مالك عن نافع عن ابن عمر ﷺ قال: «تعلم عمر ﷺ البقرة في اثنتي عشرة سنة، لما ختمها نحر جزورًا»(٢)، فهذا الأثر يبين أن طول بقاء عمر ﷺ في تعلم سورة البقرة ليس عجزًا ولا انشغالاً عن القرآن؛ بل إنه انشغل بعلمها والعمل بما فيها كما كان عليه عهد الصحابة من أَخْذ عشر آيات وتعلمها؛ وإلا لما جلس كل هذه المدة.

يشهد لذلك أقواله وأفعاله ﷺ فمن أقواله العظيمة قوله: «لا

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢/ ٥٦٧)، والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (١/ ٣٩٧).

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٣٤٦)، وينظر تفسير القرطبي (١/ ٤٠).

يغرركم من قرأ القرآن إنما هو كلام نتكلم به، ولكن انظروا من يعمل به»[١].

أمَّا أفعاله رضي الله عنه فهي كثيرة نذكر منها شاهدًا مؤثرًا ذكره البخاري في صحيحيه أن رجلاً دخل عليه في مجلسه فقال له: هه يا ابن الخطاب! فوالله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدل، فغضب حتى همَّ به، فقال له الحرُّ بن القيس رضي الله عنه: «يا أمير المؤمنين إن الله - تعالى - قال لنبيه ﷺ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] وإن هذا من الجاهلين. يقول ابن عباس رضي الله عنهما: والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقافًا عند كتاب الله»[٢]. وهذا شاهد العملي وقوفه المباشر عند كتاب الله والامتثال له، وهو من ثمرة التدبر.

وهذا الأمر ليس خاصًا بعمر رضي الله عنه بل إنه عام في أفاضل الصحابة كما يحكيه ابنه عبد الله رضي الله عنه حين يقول: «كان الفاضل من أصحاب النبي ﷺ في صدر هذه الأمة لا يحفظ من القرآن إلا السورة أو نحوها، ورزقوا العمل بالقرآن، وإن آخر

---

(١) رواه الخطيب البغدادي في اقتضاء العلم العمل (٧١).

(٢) ينظر صحيح الإمام البخاري، (ح ٤٦٤٢).

هذه الأمة يرزقون القرآن منهم الصبي والأعمى، ولا يرزقون العمل به»[١].

وكما يقوله أيضًا من أُمرنا بأخذ القراءة منه[٢]، وهو الصحابي الجليل عبد اللّه بن مسعود رضي الله عنه حيث يقول في وصفهم: «إنَّا صعب علينا حفظ ألفاظ القرآن، وسهل علينا العمل به، وإن مَنْ بعدنا يسهل عليهم حفظ القرآن، ويصعب عليهم العمل به»[٣].

ويبين أثرَ هذا التساهل في هؤلاء الجيل الذي عناهم رضي الله عنه الأثرُ الذي أخرجه الإمام عبد الرزَّاق في مصنفه بسنده إلى ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدم على عمر رضي الله عنه رجل فجعل عمر يسأله عن الناس فقال: يا أمير المؤمنين! قد قرأ منهم القرآن كذا وكذا فقال ابن عباس فقلت: واللّه! ما أحب أن يتسارعوا يومهم هذا في القرآن هذه المسارعة قال: فزبرني (زجرني) عمر، فقال: ما الذي كرهت مما قال الرجل آنفا قال: فقلت: يا أمير المؤمنين! إن كنتُ أسأت فإني أستغفر اللّه وأتوب إليه، وأنزل حيث أحببت. قال: لتحدثني بالذي كرهت مما قال الرجل. فقلت:

---

(١) أخلاق أهل القرآن للآجري، (ص١٠).

(٢) وفي الحديث: «خُذُوا الْقُرْآنَ مِنْ أَرْبَعَةٍ: مِنِ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ فَبَدَأَ بِهِ. . . ». أخرج مسلم (٦٤٨٨)

(٣) مقدمة أحكام القرآن، للقرطبي (١/ ٤٠).

يا أمير المؤمنين! متى ما تسارعوا هذه المسارعة يحيفوا؛ ومتى ما يحيفوا يختصموا، ومتى ما يختصموا يختلفوا، ومتى ما يختلفوا يقتتلوا. فقال عمر: للَّه أبوك! لقد كنت أكاتمها الناس حتى جئت بها[(١)].

وقد وقع ما خشي منه هذان الصحابيان الجليلان رضي الله عنهما فخرج الخوارج الذي ذكرهم ﷺ في عدة أحاديث متواترة[(٢)]، وخرج أناس شابهوهم أيضًا يقرؤون القرآن ويقيمون حروفه وألفاظه ويأكلون به؛ لكنه لا يجاوز تراقيهم ولا يعملون بما فيه.

ويضيف على ذلك سيد التابعين الحسن البصري بقوله: «إن هذا القرآن قرأه عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله، ولم يأتوا الأمر من قِبَل أوله. قال اللَّه - تعالى -: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩]، وما تدبُّر آياته إلا اتِّباعُه؛ ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: قد قرأت القرآن كله، فما أسقط منه حرفًا وقد - واللَّه - أسقطه كله؛ ما ترى القرآن له في خلق ولا عمل وحتى عن أحدهم ليقول: إني لأقرأ السورة في نَفَس، واللَّه ما هؤلاء بالقراء ولا العلماء ولا

(١) مصنف عبد الرزاق (٢٠٣٦٨)، باب: الخصومة في القرآن.
(٢) قال الإمام أحمد: صح الحديث في الخوارج من عشرة أوجه. مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٣/ ٢٧٩).

الحكماء ولا الورعة، ومتى كانت القراء تقول مثل هذا؟ لا أكثر اللَّه في الناس مثل هؤلاء»[١].

إن منهج السلف الصالح في التدبر بُني على ركنين (الفهم - العمل) لكنه يبرز في الجانب العملي أكثر؛ لأنهم كما قال ابن مسعود وابن عمر رضي الله عنهما في كلامهما السابق: «وسهل علينا العمل به»، «رزقوا العمل بالقرآن»، وهذا الأمر المهم الذي تفقده الأمة اليوم كما جاء في آخر كلامهما: «وإن مَنْ بعدَنا يسهل عليهم حفظ القرآن، ويصعب عليهم العمل به»، «وإن آخر هذه الأمة يرزقون القرآن منهم الصبي والأعمى، ولا يرزقون العمل به»[٢].

ويحسن الإشارة هنا إلى أن حرص السلف رحمهم الله على أنهم يتعلمون العلم والعمل يحمل دلائل غاية في الأهمية، تكمن في عدة أمور ومقاصد لا حصر لها؛ حيث إنهم بذلك امتثلوا أمر اللَّه - عز وجل - وأمر رسوله ﷺ في تدبر هذا الكتاب العظيم، الذي يهدي لأقوم سبيل، وأهدى طريق، ثم إنهم استشعروا بركته عليهم وعلى معاشهم ومعادهم، كما وعوها في

(١) مختصر قيام الليل، للمروزي، (ص ١٧٦)، والزهد لابن المبارك، (ص٢٧٤).
(٢) أخلاق أهل القرآن للآجري، (ص ١٠).

قوله - تعالى -: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، وقوله - تعالى -: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥ - ١٦]، وقوله - تعالى -: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣]. وعرفوا أيضًا أن في قلوبهم حاجة لا يسدها إلا هذا الأمر من تدبُّر كتابه، وإن فيه وحشة لا يزيلها إلا الأنس بكلامه، والعيش في رحابه.

وأيقنوا بقوله - تعالى -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

وتعلموا من تدبُّرهم ثناء ربهم على من تدبر كتابه، وذمه على من تركه ولم يتأثر به، موقنين أن المدحَ مدح اللَّه والذمَّ ذم اللَّه. ففي الثناء والمدح: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، وقوله: ﴿قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩]،

وفي الذم والتوبيخ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]، وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

أيقنوا أيضًا أن الإيمان به وتعظيمه، وتدبر آياته هو عين النصيحة لهذا الكتاب العظيم، الذي جاء في حديث «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**». **قُلْنَا لِمَنْ؟ قَالَ: «لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ»**(١).

قال أبو عمرو بن الصلاح: «النصيحة لكتابه: الإيمان به وتعظيمه وتنزيهه، وتلاوته حق تلاوته، والوقوف مع أوامره ونواهيه، وتفهُّم علومه وأمثاله، وتدبُّر آياته، والدعاء إليه، وذب تحريف الغالين وطعن الملحدين عنه»(٢).

وأيقنوا أنهم إذا قرؤوه وعملوا به أصبحوا كالأترجة ذات الريح الطيب والطعم الطيب بتشبيه بليغ من حبيبهم وقدوتهم ﷺ(٣).

وبعد: فإن هذه الطريقة العظيمة المثلى في تلقِّي القرآن من أولئك الصفوة الأبرار أظهرت آثارَ هذا الأمرِ عليهم في معاملاتهم وسلوكياتهم، في بيعهم وشرائهم، وحديثهم

(١) رواه مسلم (٩٥)

(٢) جامع العلوم والحكم، لابن رجب، (ص ٨٠).

(٣) كما جاء في الحديث «الْمُؤْمِنُ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَعْمَلُ بِهِ كَالأُتْرُجَّةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَرِيحُهَا طَيِّبٌ...» أخرج البخاري (٥٠٥٩).

ومعاشرتهم، وحلّهم وترحالهم، وحربهم وسلمهم، وفي جميع أحوالهم؛ حتى أصبح واحدهم كأنه قرآنٌ يمشي على الأرض.

ورضي اللّه عن أسماء بنت أبي بكر حين قالت في وصف الرعيل الأول منهم: «كان أصحاب رسول اللّه ﷺ إذا قرىء عليهم القرآن كما نعتهم اللّه: تدمع أعينهم وتُقَشعِرُ جلودهم»[(١)]، وهذا الأمر عزيز لا يقوى عليه إلا ذوو النفوس العالية، والهمم الرفيعة، واللّه المستعان.

فإنهم لما طبقوا هذا الأمر، وحملوا راية العمل في تدبرهم تعدت بركتهم إلى غيرهم فأقاموا العدل ونشروه في أرض اللّه، فأرهبوا أعداء اللّه، وأخرجوا الناس من عبادة العباد، إلى عبادة ربِّ العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام؛ فحققوا الخير والسعادة لأمتهم ومجدهم[(٢)].

وفي الختام: فهذا غيض من فيض في منهجية هؤلاء الأعلام في تلقّي القرآن، قصدت الإشارة، فقد يكفي من القلادة ما أحاط

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٨٣٨٣)، وينظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١٥/ ٢٤٩).

(٢) وعلى سبيل المثال ينظر قصة ربعي بن عامر رضي الله عنه ودخوله على رستم أمير الفرس في البداية والنهاية، لابن كثير (٩/ ٦٢٢).

بالعنق! وإلا فالموضوع واسع وتتجاذبه عدة مسائل وأحكام، تدعو الباحثين والدعاة لعمل مزيد من البحوث والدراسات في هذا المجال الذي تحتاجه الأمة اليوم في مسيرتها الإصلاحية، وفيها أيضًا حديث ملحٌّ للقائمين على المؤسسات والمحاضن التربوية من أجل إبراز دور هؤلاء القدوات والتذكير بمواقفهم في التدبر وطريقتهم في ذلك؛ فهم خير القرون وبهم يقتدى بعد رسول اللّه ﷺ، فسرد سِيَرِ المتدبرين والتذكير بها في المناشط التربوية سببٌ مؤثر في غرس قيمة التدبر لدى الناشئة؛ فأسلوب التربية بالقدوات من أهم الأساليب التربوية وأكثرها مضاء، وهو أسلوب قرآني فريد؛ كما في سرد قصص الأنبياء والصالحين وتلك القدوات للرسول ﷺ ولأمته من بعده: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الأنعام: ٩٠][(١)].

❊ ❊ ❊

---

(١) ينظر: تعليم تدبر القرآن الكريم، للأهدل: (ص ١٢٨).

٦-أحزاب القرآن

ماجد بن عبدالرحمن البلوشي

إنَّ هذا لدرسُ الأولوياتِ في الدعوةِ والتعليمِ يا أرباب السلوكِ والتربيّةِ! أما واللَّهِ إنّهُ لا يعلو على تزكيةِ الروح وتطهيرها بكلام اللَّه والتنعّم بالنظر في كتابهِ، والتلذّذِ بتلاوة آياتهِ، وسكبِ العبراتِ بين يدي تدبّر معاني القرآن شيءٌ.

* التحزيبُ للقرآن أن يُجعلَ على أجزاءٍ متسقةٍ تقرأ وردًا متصلاً في مدةٍ معلومةٍ، والتحزيبُ من سنن الصالحينَ وطرائقِ المنيبينَ وهدْي المُخبتينَ.

* كان من عاداتِ بعضِ السادات من أهل العلم أن يجعلوا ختم القرآن في يومي الاثنين والخميس حتى يوافق ذلك ارتفاع الأعمال وعرضها على اللَّه تعالى.

عن أوس بن حذيفة ﷺ قال: قدمنا على رسول اللَّه ﷺ في وفد ثقيف، فنزلت الأحلافُ على المغيرة بن شعبة، وأنزلَ رسول اللَّه ﷺ بني مالك في قبّة له، وكان رسول اللَّه ﷺ كل ليلةٍ يأتينا بعد العشاء يحدّثنا قائمًا على رجليه حتى يراوح بين رجليه من طول القيام، فأكثر ما يحدثنا ما لقيَ من قومه قريش، ثم يقول: لا سواءٌ، وكنّا مستضعفين مستذلين بمكة، فلما

خرجنا إلى المدينة كانت سجالُ الحربِ بيننا وبينهم، نُدال عليهم ويدالون علينا؛ فلما كانت ليلة أبطأ عن الوقت الذي كان يأتينا فيه، فقلنا: لقد أبطأتَ عنّا الليلة! قال: «**إنّه طرأ عليَّ حزبي من القرآن، فكرهت أن أجيء حتى أتمّه**» قال أوس: سألت أصحاب رسول اللّه ﷺ: كيف تحزبون القرآن؟ فقالوا: ثلاثٌ، وخمسٌ، وسبعٌ، وتسعٌ، وإحدى عشرة، وثلاث عشرة، وحزبُ المفصَّل وحده. الحديث أخرجه أحمد في المسند، وأبو داود، وابن ماجه، وغيرهم.

وهو حديثٌ شريفٌ عظيمٌ، له وقعٌ في النفوس وخفقٌ في الجوانح، جعلهُ أهلُ العلم أصلاً في «تحزيب القرآن» و«تجزئة المصاحف» وبوّبَ الإمام أبو داود في سننه: «بابُ تحزيب القرآن» - ٢ / ٢٣٧ ط عوّامة - فأورد هذا الحديثَ ونظائره لبيان طريقةِ النبيِّ ﷺ وأصحابه في قراءة القرآن العظيم والمداومة على ترتيله وتجويده بنظام مشيد محكم ينتظم اليوم والليلة دائبًا متصلاً.

واللّه يعلمُ كم يأخذني هذا الحديثُ بجلالة وقعهِ وحُسن عرضهِ وسلسبيل لفظه إلى عوالمَ أخرى من السكينةِ والتعظيمِ والتوقيرِ للنبيِّ ﷺ تفوق الوصف وتجتاز التقديرَ، وهو يفدُ ﷺ في لهفِ إلى هؤلاءِ القوم الذين قدموا عليه من أقاصي البلاد يحدوهم

الشوقُ المبرّح للقائهِ ورؤية وجههِ الشريف، فيستعذبُ في سبيل تعليمهم الوصبَ ويستطيبُ النصبَ، ويحنو عليهم حنوَّ الوالدِ على ولدهِ ويخاطبهم بأرق العبارات وأنداها، ويراوح بين قدميه الشريفتين من طول القيام في جنب اللّه ناصحًا مذكّرًا قائمًا بحق الدعوة وتبليغ شرعِ اللّه، ويغمرني الحنين والشوق إلى ذيّاك المجلسِ الآنس ببثِّ الحبيبِ المُحب ﷺ إلى أولائه من صالحي المؤمنين وهو يستعبرُ ذاكرًا ما جرى له من الأذى في ذاتِ اللّه، فتخضعُ جوانحي وتغشاني المهابة وأنا أقرأ همهماتهِ الأسيفة على قومٍ جاءهم كالنسيم العليل ليأخذ بحجزهم عن النّار ويحميهم من سعيرها ولهيبها البئيس، فيأبون إلا الوقيعة فيها مرتكبين أشنع الجرائم بإيذاء حبيبِ اللّه وخليلهِ محمدٍ ﷺ.

ثم اقرأ معي - بسكينةٍ وخضوع - شوقَ أولئكَ الوافدين على حضرتهِ، وهم يعدّون مستكثرين ساعاتِ الوقتِ ويحسبون أجزاءهُ في انتظار طلعتهِ البهيّة ومقدمهِ المهيبِ، فواللّه إنّه ليتملّكني العجبُ كيف بقيتْ قلوبهم في الصدور ولم تنخلع منها فرحًا وتعظيمًا لرؤيتهِ بعد أن خنقهم الوقتُ وأطبق على أنفاسهم في ترقّبِ ذلك القادم من عالم الغيبِ لينقذهم اللّه به من أسفل السافلين إلى أعلى العليين.

فإذ بالحبيبِ الشفيق ﷺ يمسحُ عنهم شعثَ الشوقِ وسفحَ

سوائمهِ بعذبِ خطابه قائلًا: «**إنّهُ طرأ عليَّ حزبي من القرآن، فكرهت أجيءُ حتى أتمّه**» يالله ما أرقهُ من عذرٍ يبديهِ هذا النبيُّ العظيمُ ﷺ، وكأنّهُ يستلطفُ قلوبهم التي ناءت بثقل أحمال الشوق والجوى بأنّهُ كان في لقاءٍ - وأيُّ لقاءٍ! - لا يقبلُ التأجيل ولا التسويفَ مع كلامِ اللّه وتلاوةِ آياتهِ، ومن ذا الذي تسمحُ نفسهُ وتطيبُ بتركِ الاستلذاذ بالقرآن والتنعّمِ بآياته مستقبلًا أمرًا آخر كائنًا ما كان الأمرُ!

إنَّ هذا لدرسُ الأولوياتِ في الدعوةِ والتعليمِ يا أرباب السلوكِ والتربيةِ! أما واللّهِ إنّهُ لا يعلو على تزكيةِ الروح وتطهيرها بكلام اللّه والتنعّم بالنظر في كتابهِ والتلذذِ بتلاوة آياتهِ وسكبِ العبراتِ بين يدي تدبّر معاني القرآن شيءٌ.

إنّه القرآن، كلام ربّك، تنزيلٌ من حكيم حميدٍ، حين يهزّك الحنين والشوقُ إلى التبتّل في محرابِ التدبّر والتفكّر مسبلًا دمعاتِ الندم والأسف واللّهفةِ والإجلال، فتغدو معها مباهج الحياة ومغانيها أحقرَ من ذرّة رملٍ في فلاة أبيّةٍ على الإحاطة.

ما الدّنيا؟! ما أموالها؟! ما مفاتنها؟! ما مغانيها؟! ما ملاعبُها؟! ما حطامها الزائلُ؟! ما القصورُ ما الدورُ؟! إنّها لتغدو قاعًا صفصفًا أمام ترنيم العبدِ وتغنّيه بكلام ربّهِ، فتغشاه سكينةُ الصالحين وتعلوه وضاءةُ الذاكرين ويذكرهُ ملك الملوك فيمن عنده، فإذ بالدنيا ريشةٌ

تتقاذفها أعاصير الثقة بوعد الله والأنس بنعيمه.

هذا الحديثُ أصلٌ في مسألةِ تحزيب القرآن، والتحزيبُ للقرآن أن يُجعلَ على أجزاءٍ متسقةٍ تقرأ وردًا متصلاً في مدةٍ معلومةٍ، والتحزيبُ من سنن الصالحينَ وطرائقِ المنيبينَ وهدْي المُخبتينَ، وهو دأبٌ درجَ عليه السالكون طريق العبوديّة فما قصّروا عن تلاوة القرآن آناء الليل وأطراف النّهارِ، فكان لكلّ منهم زمنهُ المعروفُ يختم فيه تلاوة القرآنِ على مدى حياتهِ، وما بدّلوا تبديلاً.

وقد فهم ذلك أوسُ بن حذيفة ﵁ راوي الحديثِ، فقاس الغائبَ - وهم الصحابة - على الحاضر - وهو النبيُّ ﷺ -، فأيقن أنهم على دربه في تجزيء القرآن وتحزيبه سائرون ولهديه في ذلك مقتفونَ، ولهذا بادر بسؤال أصحابِ النبيِّ ﷺ عن تحزيبهم للقرآن حتى يستنَّ بهم ويهتدي بهديهم، فأخبروه أنهم يجعلون القرآن أحزابًا كل حزبٍ يشتملُ على عددٍ من السورِ التامّةِ. وظاهر هذا الحديثِ، إذا قرنت إليه إرشاد النبي ﷺ لعبدالله بن عمر ﵄ كما في الصحيح بقوله: «واقرأ القرآن في كل سبع ليال مرة» يقضي بأنَّ المعمولَ به لدى الصحابةِ - رضوان الله عليهم جميعًا - هو ختمُ القرآن في سبعة أيام، وأنَّ هذا هو مقتضى السنّة في ذلك.

وقد بسط شيخ الإسلام ابن تيمية الكلام في موضوع تحزيب القرآن في مجموع الفتاوى، ولخّص مهمّاتِ الكلام عليها، ومن أهمّ ما بيّنه الشيخُ في ذلك أنَّ طريقةَ الصحابةِ في تقسيم الأحزاب القرآنيّة كانت على السورِ التامة، فلم يكن الصحابة يحزّبون القرآن بحسب عددِ الأجزاءِ وأحزابها المعروفةِ في المصاحفِ الآن، فإن هذه وُضعتْ في زمن الحجاج بن يوسف بحسب عدّ الآي والحروف ونحوها فيجعلون الحزب قدرًا متسقًا من الحروف دون النظر إلى مطالع السور وخواتيمها أو الاعتبار للمعاني وتمامها، وأمّا الصحابةُ فإنهم كانوا يحزّبون القرآن بحسب السور التامة وهو ما يكونُ أعونَ على تدبّر كلام اللّهِ تعالى إذ تتضمّن السورُ المعاني متصلة تامّةً فيستوفي القارئ للسور النظرَ في مجموع الآيات الواردة ويُحكمُ تدبّرها وفهمها دون أن ينقطع المعنى أو يقفَ على كلامٍ يتصلُ بما بعدهُ، فيفتتحون القراءة بما فتح اللّه به السور من المطالع العظيمة التي تأخذ بمجامع القلوب فتزلزلها هيبة وخضوعًا، ويختتمون بما ختم به من الخواتيم المحرّكة للأرواح(١).

---

(١) وللاستزادة يُراجع كلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» فصل في «تحزيب القرآن» و«في كم يُقرأ» (١٣ / ٤٠٥) وهو نفيس ومهم.

ثمَّ إن كان التحزيبُ في مدةٍ تصلُ إلى الشهر فإنَّ القارئ يحتاجُ إلى فصلِ بعض السور كسورةِ البقرة فحينئذٍ يفصلُ للحاجةِ إلى ذلك على أن يكونَ تحزيبُ السورةِ بالوقوفِ عند المعاني التامةِ المستوفاة فيجعل سورة البقرة حزبين وهكذا.

وذهب بعض السلف إلى تحزيب القرآن على أسباعٍ لا تُراعي خواتيم السور، كما روى ابن أبي داود عن قتادة أنه جعل القرآن أسباعًا ينتهي السبع الأول عند الآية ٧٦ من النساء، والثاني عند الآية ٣٦ من الأنفال. .إلخ ما رواه ابن أبي داود في كتاب «المصاحف» (١ / ٤٦٦)، ولا ريب أنَّ طريقة الصحابة أقوم وأصوب.

وقد كان من عاداتِ بعض السادات من أهل العلم أن يجعلوا ختم القرآن في يومي الاثنين والخميس حتى يوافق ذلك ارتفاع الأعمال وعرضها على اللّه تعالى، فمن أراد أن يختم في كل أسبوعٍ محزّبًا القرآن على طريقةِ الصحابةِ ﷺ فإنَّ عليه أن يبدأ القراءة يوم الجمعة حتى يختم يوم الخميس فيصيب فضل ارتفاع العمل حال ختم القرآن العظيم.

وإذا عرضنا للتحزيبِ المسبّع بحسب طريقة الصحابة التي أوردها أوس بن حذيفة ﷺ في حديثهِ، وهي أيضًا طريقة أكثر السلف كما نقل ذلك عنهم النووي في كتابه «التبيان في آداب

حملة القرآن» (ص ٦١) فإنّهُ سوف يكون على النحو الآتي:

- اليوم الأول: ٣ سور هي: البقرة وآل عمران والنساء.

- اليوم الثاني: ٥ سور هي: المائدة والأنعام والأعراف والأنفال والتوبة.

- اليوم الثالث: ٧ سور هي: يونس وهود ويوسف والرعد وإبراهيم والحجر والنحل.

- اليوم الرابع: ٩ سور هي: الإسراء والكهف ومريم وطه والأنبياء والحج والمؤمنون والنور والفرقان.

- اليوم الخامس: ١١ سورة: الشعراء والنمل والقصص والعنكبوت والروم ولقمان والسجدة والأحزاب وسبأ وفاطر ويس.

- اليوم السادس: ١٣ سورة: الصافات وص والزمر وغافر وفصّلت والشورى والزخرف والدخان والجاثية والأحقاف ومحمد والفتح والحجرات.

- اليوم السابع: ٦٥ سورة، وهي المفصّل: من سورة ق إلى آخر المصحف الشريف.

فهذه ١١٣ سورة من المصحف، وتبقى فاتحة الكتاب وهي داخلة ضمن قراءة الثلاث الطوال الأولى ولكن لقصرها أُسقطت في العدّ.

قال الدكتور عبدالعزيز الحربي في كتابه «تحزيب القرآن»

(ص١٠٨ - ١٠٩): «ولله هذا التحزيب ما أحسنه! وما أجملهُ! وما أجلّه! فقد جمع بين النظائر على نسقٍ، فلم يفصل بين الأنفال والتوبة، وهما كالسورة الواحدة، وجمع بين السور المفتتحة بالحروف المقطعة المختتمة بالراء، ولا فصل بين العتاق الأول (الإسراء والكهف ومريم وطه والأنبياء)، وجمع بين الطواسين (الشعراء والنمل والقصص)، وذوات «ألم» (العنكبوت والروم ولقمان والسجدة)، ولم يفصل بين الحواميم السبع، وجعل المفصل على حدة، ثمَّ هو فوق ذلك مقسّم في أعداده أحسن تقسيم بطريقة لا كلفة لمعرفتها وترتيبها على الأوتار: ثلاث، وخمس، وسبع. . إلخ».

وأقل ما وردتْ به السنّة في الختم أن يكون في ثلاثة أيام كما ورد بذلك توجيه النبي ﷺ لعبد اللّه بن عمرو رضي الله عنهما في الصحيح فهذا غاية ما يقع من العزيمة في ختم القرآن، وغاية ما روي من التوسعة والترخيص في ذلك مرفوعًا إلى النبي ﷺ أن يقرأ في أربعين يومًا كما في رواية أبي داود لحديث عبد اللّه بن عمرو وفيه: «**اقرأه في أربعين يومًا**»، وهذا غايته من جهة توسيع المدة وذلك غايته من جهة التضييق، فمن قرأه في أقل من ذلك لم يكد يوفَّقُ إلى تدبره والتمعّن في معانيه، ومن أدّاهُ حاله إلى قراءته في مدة تزيد عن الأربعين أوشك أن يحمله ذلك على التراخي والتواني،

وخيرُ الهدي هدي محمد ﷺ وهدي أصحابهِ ﭬ وهو الختم ما بين السبع إلى الشهر.

على أنَّ الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ نقل في كتاب «التبيان في آداب حملة القرآن» (ص ٥٩) عن ابن أبي داود أنه روى ختم بعض السلف للقرآن في شهرين، فتكون غاية التوسعة في الختم أن يكون في شهرين بناءً على عمل بعض السلف، وإن كان الأكثرون على أنه لا ينبغي ترك الختم في أكثر من أربعين يومًا كما نُقل ذلك الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وعلى هذا يكون تجزيء القرآن وتحزيبه بحسب مدة الختم، والمنقول عن السلف في ذلك تردده ودورانه بين أقصى مدته وهي الشهران وأدناها وهي الثلاثة أيام وما بين ذلك فالمنقول عنهم ختمه كل شهر، أو كل عشر ليال، أو ثمانٍ، أو سبعٍ، أو ستٍ، أو خمسٍ، أو أربعٍ، ذكر ذلك النووي في «التبيان» (ص ٥٩)، وقد تتبع الدكتور عبدالعزيز الحربي في «تحزيب القرآن» ما روي من المدد الأخرى التي يُختم فيها سواءً بحسب الوارد من النصوص أو عملاً لدى السلف فذكر الختم في كل خمسة وعشرين يومًا، أو في عشرين، أو في خمسة عشر، أو في كل أحدى عشر، أو تسعة أيام، وهذين الأخيرين لم يجد أحدًا نصَّ على الختم فيه غير أنَهُ ذكر للختم في كل أحد عشر يومًا مزيّة

حسنةً تُراجعُ في كتابه (ص ١٢٤ - ١٢٥).

فهذه ١٥ مدة يُمكن ختم القرآن فيها وتحزيبه، كلٌ حزب بحسب المدّة طولاً وقصرًا: شهران، ٤٠ يومًا، شهر، ٢٥ يومًا، ٢٠ يومًا، ١٥ يومًا، ١١ يومًا، ١٠ أيام، ٩ أيام، ٨ أيام، ٧ أيام، ٦ أيام، ٥ أيام، ٤ أيام، ٣ أيام.

وفي كتاب «تحزيب القرآن» جدول مفصّل بالمدد وما يناسبها من أحزاب القرآن وأجزائه، ولكل قارئ أن يختار منها ما هو ألصق بحاله وأرعى لظروفه، والكتاب جدير بالاطلاع وهو من مطبوعات دار ابن حزم.

ومن السلف من كان يختم ثمان ختمات منجّمة بين اليوم والليلة كما نقل النووي في «التبيان» (ص ٦٠) عن ابن الكاتب أنه كان يختم بالنهار أربع ختمات وبالليل أربع ختمات، ثم علّق النووي بقوله: «وهذا أكثر ما بلغنا من اليوم والليلة».

ومن النّاس من حملهُ حبُّ القرآن والتعلّقُ به إلى أن ختمهُ قراءة في ركعة واحدةٍ، فقد ثبت ذلك عن ريحانة القرّاءِ وإمامهم عثمان ابن عفّان رضي الله عنه وثبت كذلك عن غيره بل قال النووي في «التبيان» (ص ٦٠): «وأما الذي يختم في ركعة فلا يُحصون لكثرتهم»، وسمعتُ من شيخنا العلامة العابد محمد بن محمد المختار الشنقيطي غير مرّة أنَّ والده ممن ختم القرآن في ركعةٍ واحدةٍ قام

بها من الليل، وهذا وإن فعلهُ هؤلاء العبّاد الصالحون أصحاب المقامات العالية إلا أنه لم يكن لهم بعادة ولا طبعٍ، والأتم الأكمل هو سنّة النبي ﷺ وهديه بتوزيع القراءة على الأيام حتى يكون أعونَ على فهم القرآن وتدبّر آياته.

ثمَّ إنَّ هؤلاء الذين ختموا القرآن في أقل من ثلاثة أيام وإن خالفوا ظاهر الأمر النبوي بعدم قراءة القرآن في أقل من ثلاثة أيام إلا أنَّ لبعضهم تأويلاً سائغًا في ذلك، وهو ما ذكره المباركفوري في «تحفة الأحوذي» (٨/ ٢٧٣) بقوله: «ولو تتبعت تراجم أئمة الحديث لوجدت كثيرًا منهم أنهم كانوا يقرؤون القرآن في أقل من ثلاث، فالظاهر أنَّ هؤلاء الأعلام لم يحملوا النهي عن قراءة القرآن في أقل من ثلاثٍ على التحريم».

وقد ذكر الشيخ مازن الغامدي - عليه رحمة الله - في كتابه الذي هو قطعة أثيرةٌ من روحهِ العذبةِ الشفّافة «رحلتي إلى النور» أنَّ الشيخ العلامة محمد بن صالح بن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ كان يقرأ في شهر رمضان كلَّ يومٍ عشرة أجزاءٍ من القرآن، فيحصّل بذلك فضيلة ختم القرآن في كل ثلاثة أيام مرّة، وممّا ذكرهُ عن الشيخ أنهُ دخل إلى مصلّى الجمعة الذي في مقدمة جامعه أحد الأيام من رمضان فختم عشرة أجزاء وهو يمشي في المصلى ذهابًا وإيابا.

وفي كتاب «تحزيب القرآن» (ص ١٣٩) أنَّ الشيخ عبد العزيز بن

باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان يختم القرآن في قيام الليل كل شهر مرّة يقرأ كل ليلةٍ جزءًا من القرآن في صلاته.

والهائمون بكتاب الله، المنقطعون إلى رياضهِ، المستعذبون لمعانيه وأحكامه كثرٌ، لا يزيدهم إقبال النّاس على الدنيا إلا تمسّكًا بالكتاب العزيز، وتطوافًا بمغانيه الروحانيّة، وحياضه الإيمانيّة، وعضًا عليه بالنواجذِ، ومن أعجب من وقفت على خبره في تتبّعِ كلام الله سماعًا وإسماعًا، وحرصًا على تلقّيهِ من الشيوخ الثقاتِ بأسانيده المتصلةِ الإمام أبو القاسم يوسف بن علي بن جبارة الهذلي المغربي، فقد أخذ القرآن عن ٣٦٥ شيخًا من آخر المغرب إلى باب فرغانة يمينًا وشمالاً وجبلاً وبحرًا، حتى قال عن نفسه: «ولو علمت أحدًا يقدم علي في هذه الطريقة في جميع بلاد الإسلام لقصدته»، قال فيه الذهبي في كتابه «معرفة القراء الكبار» - ط. طيار قولاج - (٢/ ٨١٩): «إنما ذكرت شيوخه وإن كان أكثرهم مجهولين، ليُعلم كيف كانت همّة الفضلاء في طلب العلم»، وانظر أيضًا «منجد المقرئين» لابن الجزري (ص ١٨٨ - ١٨٩).

للّه هذه الهمم الصالحة في تعظيم القرآن تلاوة وتعلّمًا وسماعًا!

ويبقى أمران:

أوّلهما: أنّ من سمت به همّته فإنّهُ سوف يقـوى - بإذن الله

تعالى - على ختم القرآن في شهر رمضان ست مرات، ثلاث مرات في العشرين الأولى من شهر رمضان بأن يختم كل سبعة أيامٍ ختمة، ثمَّ يختم في العشر الأخيرة كل ثلاثة أيام ختمة، وسوف يحصل له بعض الكسرِ في أيام الختمات الأولى لكن يمكن تداركها بضغط الختمة لتكون في ستة أيام وزيادة بعض الساعات، حتى يصفو له في العشر الأخيرة ثلاث ختمات دون التعرض للنهي عن قراءة القرآن في أقل من ثلاثة أيام، فتلك ست ختمات تامّة كاملة.

ثانيهما: أنَّ القرآن العظيم يحتاج إلى تدبّر وتفكّر، ومفتاح ذلك وأسُّهُ فهم المعاني وإدراك تفسير الآيات، والكتب في ذلك كثيرة متعددة وللنّاس في تقديم بعض دون بعض طرق ومذاهب وآراء شتّى، وللمذاكرة العلميّة وتبادل الخبرات: عندي أنَّ على رأسها خمسة كتب وهي:

١- تفسير الإمام الطبري، وهذا التفسير كالأكمة الملتفّة أشجارها تندُّ منها بقيّة التفاسير، فهو حياضها الجامع لها، ومن أتى بعده فهو عيال عليه، ولا يعرف قدر هذا التفسير ومكانته العظيمة إلا من مارس القراءة فيه وقرنه بغيره من الكتب ليرى عظيم أثره فيها.

٢- تفسير الإمام القرطبي، وهو تفسير حوى علمًا عظيمًا، وزاد على «علم التفسير» أن أحيى معه علم الاستنباط والتفقّه فعرض

لأحكام القرآن، فيتعلّم الناظر فيه كيف يتفقّه ويستنبطُ.

٣- تفسير الإمام النسفي، وهذا من أفضل التفاسير المختصرة على الإطلاق وأعدلها جمعًا بين التلخيص والوجازة وإحكام المعنى، يجمع بين إيضاح المعنى من الآية وبين اختصار اللفظ ورشاقته، ويورد ما فيها من دقائق البيان، وسمعتُ الشيخ العلامة الدكتور عبد الكريم الخضير يثني عليه مرارًا وينصحُ بتكرار القراءة فيه.

٤- تفسير الإمام ابن كثير، وقد وصفه السيوطي في «طبقات الحفّاظ» بأنه التفسير الذي لم يؤلف على نمطه أحدٌ، وجلالة هذا التفسير في أنه يورد الأخبار عن النبي ﷺ، ويُكثر من ذلك فيستوفي الكلام على الآيات بربطها بالسنّة النبويّة الواردة فيها فيخرج القارئ للكتاب وقد تشبّع بنور الوحيين.

٥- تفسير العلامة الطاهر بن عاشور والمسمّى «التحرير والتنوير»، وهو كتاب فذٌّ فريد في بابه، مكث مؤلفه في تأليف أربعين سنة حتى استوى على سوقه وبلغ به الغاية، ولم ينصفه من ذكر أنه مستل من «الكشاف» للزمخشري أو من حواشيه، بل هو أملأ منها علمًا، وأغزر فائدة، وأكثر إحكامًا، وأسلم طريقةً، وفيه تحرير دقيق لعدد من المواضع التفسيرية المُشكلة.

هذا فيما يتعلق بالكتب، وأما فيما يتصل باللذين تعرّضوا

لنفحات القرآن، وخاضوا لجّة التدبّر والتفكر والاستنباط، فمنهم طائفة لا بد من الرجوع إلى كلامهم وتكرار القراءة فيه والتأمّل حتى يتحصل لقارئ القرآن التدبّر والتفكّر مع الممارسة والترداد، ويأتي على رأس هؤلاء أربعةٌ من الأعلام وهم:

- ابن تيمية، وقد جُمع كلامُه في التفسير، ولا يكاد يخلو كتاب من كتبه من التعرض للقرآن العظيم بالتأمل والتدبّر والاستنباط والتفسير.

- ابن القيّم، وكلامه مجموع كذلك.

- ابن سعدي، وقد أتى بما تنشرح له الصدور وتقرُّ به الأعين في تفسيره من دقائق الاستنباط وجليل الحِكم، وقد طُبع من تفسيره لدى مؤسسة الرسالة فقط ١٥ مليون نسخة، بله طبعاته الأخرى السابقة واللاحقة، وقد كتب تفسيره وهو في بحر الثلاثين من عمره رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

- الشعراوي، وهو من العجائب في التفسير والاستنباط وتذليل سبل البلاغة الصعبة وإنزالها من برجها العاجي النخبوي إلى مستوى العامة، وللعلامة الدكتور محمود الطناحي مقالة مهمة عن الشيخ الشعراوي ومنهجه في التفسير وهي ضمن «مقالات العلامة الدكتور محمود محمد الطناحي» (١ / ٢٨٠). والله تعالى أعلم.

٧- منهج مقترح لتدبر القرآن

سلمان السنيدي

أولاً: منهج تدبر الآيات والسور

١- بيان حال الدعوة عند نزول الآيات، مع ذكر سبب النزول إن وجد.

٢- بيان دلالات الألفاظ ومقاصد الآيات (مع ذكر المعنى المختار لغريب المفردات).

٣- بيان هدي الآيات لحال الدعوة عند نزولها.

٤- بيان هدي الآيات لحال الدعوة وقت تدبرها.

٥- بيان هدي الآيات لحال قارئ الآيات.

تطبيق المنهج على سورة الكوثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾

أولا: بيان حال الدعوة عند نزول الآيات

كان النبيُّ ﷺ وأصحابه يعاني من الشدة والضيق والأذى من أعداء دعوته ﷺ، وكانت قريش يتنقصون النبي ﷺ ويفرحون

بالشماتة به، فلم توفي له أكثر من ولد ولم يعش له من ذريته إلا بنات، وكانت قريش تعظم شأن الذكور من الذرية، قال قائلهم: دعوه فإنه مبتور وسينقطع أثره بانقطاع نسله. ومن ذلك أن العاص بن وائل قال: أنا شانئ محمدًا، وهو أبتر، ليس له عقب، قال الله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ قال قتادة: الأبتر: الحقير الدقيق الذليل. وكان عقبة بن أبي معيط يقول: إنه لا يبقى للنبيِّ ﷺ ولد، وهو أبتر.

وعن أنس رضي الله عنه قال: بينا رسول الله ﷺ بين أظهرنا في المسجد، إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه مبتسمًا، قلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: «**أنزلت علي آنفا سورة**»، فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ ثم قال: «**أتدرون ما الكوثر؟**» قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «**فإنه نهر وَعَدنيه ربي - عز وجل - عليه خير كثير، هو حوض تَرِدُ عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد النجوم فَيختلجُ العبد منهم، فأقول: رب إنه من أمتي. فيقول: إنك لا تدري ما أحدث بعدك**»[1].

(١) صحيح مسلم برقم (٤٠٠).

ثانيًا: دلالات الألفاظ ومقاصد الآيات

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾

بدأ اللَّه بأسلوب العظمة عند بيان عطيته لنبيه؛ لما يقع في الأذهان من عظمة العطية عند استحضار عظمة المعطي، فإذا كان المعطي هو اللَّه فلا عطية ولا منحة تقارب عطاء اللَّه وفي ذلك بثٌّ لشعور الاعتزاز والاستقلال من منة البشر، والكوثر هو الخير الكثير ومنه نهر الكوثر، وفي بيان عطية اللَّه لرسوله بالكوثر الذي لن يشرب منه أحد إلا من بعد أن يرضى عنه اللَّه ورسوله تشريفًا للنبي ﷺ، وإن كنتم ترونه في لحظات من الدنيا بلا ملك ولا سيادة فإنه في الآخرة سيد ولد آدم، وله من الشرف والعز والمكانة التي لا يصلها بشر غيره، ولما كانت هذه العطية منة عظيمة جليلة القدر أرشده إلى الاشتغال بشكرها فأمره بقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾

والأمر بالصلاة نموذج وتذكير للأعمال الصالحة قاصرة النفع والأمر بالنحر نموذج وتذكير بالأعمال التي يتعدى نفعها، وفي قوله (لربك): تذكير وتنبيه إلى أهمية إخلاص العبادة للَّه، وفي اللفظ تكريم للنبي ﷺ حيث تغير السياق من (نون) الجمع ولم يقل: فصل لنا بل قال: (لربك) لتذكيره بالربوبية الدينية والدنيوية وكذلك لِما في اللفظ من التكريم والحفاوة والقرب

والرعاية وجلالة قدر النبي ﷺ عند الله جلا وعلى. وفي قوله: (وانحر) والنحر يتعلق في الغالب بنحر الإبل وفيه تنبيه إلى ما هو دونه من باب أولى.

﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾

بيان مآل ونهاية مبغض النبي ﷺ وأنه مهما ملك من قوة أو سلطان أو جاه أو ولد أو نسب أو حسب فهو الأبتر الذي تحقق فيه كل معاني القطع والخسارة والضياع. فكيف يكون حال من زاد على البغض معاداة النبي أو حارب دعوته أو آذاه أو آذى أتباعه؟! فإن حاله أشد وبالاً ونكالاً.

ثالثًا: هدي الآيات لحال الدعوة عند نزولها

١- بيان مكانة النبي ﷺ في الآخرة وأن الدنيا ليست محلاً للجزاء وإنما العبرة بالعاقبة في الدار الآخرة.

٢- تسلية النبي ﷺ وأصحابه وتصبيرهم على ما يصيبهم من ضغط الواقع وشدته وأذى قريش. فمن كان عند الله عظيمًا فلا يحزن لما أصابه، بل عليه أن يقوي عزيمته، ويشدَّ من سيره في الدعوة إلى الله.

٣- الحضُّ على الاشتغال بالنافع والتوجه للأعمال الصالحة القاصر نفعها والمتعدي فإن فيها صلاح النفس ونجاح الدعوة.

رابعًا: هدي الآيات لحال الدعوة وقت تدبرها (في الوقت الحاضر)

١- مهما أصاب أعلام الدعوة من أذىً وسخرية وقلة اعتبار فإن دينهم ودعوتهم منصورة ومن أبغضها أو عداها لدعوتهم فهو مبتور مقطوع مخذول.

٢- الداعية إلى الله محتاج إلى التذكير بالأعمال الصالحة التي فيها تزكية لنفسه أو فيها نفع الناس.

٣- كما أن مكانة النبي ﷺ وعزه وشرفه بالكوثر سيكون في الآخرة فكذلك بتر أعدائه المبغضين لدعوته قد لا يكون عاجلاً بل سيتحقق في الآخرة في أجل صورة.

٤- نفع الناس والتواضع لهم ببذل الخير وكرم النفس والضيافة من أقوى أسباب قبول الدعوة وانتشارها.

خامسًا: هدي الآيات لحال قارئ الآيات

١- زيادة محبتة للنبي ﷺ فكلما زاد علمه بشرف النبي ﷺ وبمنزلته زاد تعلق قلبه باتباع هديه ونشر سنته.

٢- إذا كان النبي ﷺ يأمر بالصلاة ويذكر بالإخلاص، فحال القارئ أولى وأحرى.

٣- تذكير النفس بأنها كلما تعلقت بالله وأكثرت من الأعمال الصالحة (بنوعيها القاصر والمتعدي) مخلصة لربها، كان الله

معه ودافع عنها وبتر الشرور عنها وجعل العاقبة لها.

٤- إن فات القارئ شرف اللقاء بالنبي ﷺ في الدنيا فإن النفس لتشتاق لِلُقياه والتشرف بقربه والشرب من حوضه شربة لا ظمأ بعدها.

ثانيًا: تطبيق مهارات التفكير والتأمل على معاني الآيات

١- المقارنة: وهي ذكر أوجه الفروق والتشابه بين الآيات مع التعليل

مثال: ذكر أوجه التشابه والاختلاف بين وصف الجنتين في أخر سور الرحمن، حيث قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وهاتان الجنتان دون الجنتين الأوليين، كما نص اللَّه على ذلك بقوله: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ ووصف الأوليين بعدة أوصاف لم يصف بها الأخريين، فقال في الأوليين: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ وفي الأخريين: ﴿عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ ومن المعلوم الفرق بين الجارية والنضاخة، وقال في الأوليين: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ ولم يقل ذلك في الأخريين. وقال في الأوليين: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ وفي الأخريين ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ وقد علم ما بين الوصفين من التفاوت. وقال في الأوليين: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ ولم يقل ذلك في الأخيرتين، بل قال: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾، وقال في الأوليين، في وصف نسائهم

وأزواجهم: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ وقال في الأخريين: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ وقد علم التفاوت بين ذلك. وقال في الأوليين: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ فدل ذلك أن الأوليين جزاء المحسنين، ولم يقل ذلك في الأخريين. ومجرد تقديم الأوليين على الأخريين، يدل على فضلهما. فبهذه الأوجه يعرف فضل الأوليين على الأخريين، وأنهما معدتان للمقربين من الأنبياء والصديقين وخواص عباد الله الصالحين، وأن الأخريين معدتان لعموم المؤمنين، وفي كل من الجنات المذكورات ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وفيهن ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، وأهلها في غاية الراحة والرضا والطمأنينة وحسن المأوى، حتى إن كلًا منهم لا يرى أحدًا أحسن حالاً منه، ولا أعلى من نعيمه الذي هو فيه[(١)].

مثال آخر:

قال الزركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وأما السموات فليست من الدنيا على أحد القولين فإذا أريد الوصف الشامل للسموات وهو معنى العلو والفوق أفردته كالأرض... في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن

(١) تفسير السعدي (١/ ٨٣١).

رَبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ سورة يونس، بخلاف قوله في سبأ: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فإن قبلها ذكر اللَّه سبحانه سعة علمه وأن له ما في السموات وما في الأرض؛ فاقتضى السياق أن يذكر سعة علمه وتعلقه بمعلومات ملكه وهو السموات كلها والأرض ولما لم يكن في سورة يونس ما يقتضي ذلك أفردها إرادة للجنس(١).

٢- الربط : هو ذكر علاقة أو مناسبة تربط بين الآيات.

مثال:

المناسبات بين قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: وصف نفسه تعالى بعد ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، بأنه ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، لأنه لما كان في اتصافه بـ ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ترهيب قرنه بـ ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، لما تضمن من الترغيب، ليجمع في صفاته بين الرهبة منه والرغبة إليه؛ فيكون أعون على طاعته وأمنع، كما قال: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾(٢).

---

(١) البرهان في علوم القرآن (٤/ ٧).

(٢) تفسير القرطبي (١/ ١٣٩).

مثال آخر: المناسبة بين قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ١٦٤ - ١٦٥].

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: لما أخبر اللَّه سبحانه وتعالى في الآية قبل ما دل على وحدانيته وقدرته وعظم سلطانه أخبر أن مع هذه الآيات القاهرة لذوي العقول من يتخذ معه أندادًا، وواحدها ند(١).

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: ما أحسن اتصال هذه الآية بما قبلها، فإنه تعالى لما بين وحدانيته وأدلتها القاطعة، وبراهينها الساطعة الموصلة إلى علم اليقين، المزيلة لكل شك، ذكر هنا أن ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ مع هذا البيان التام من يتخذ من المخلوقين أندادًا للَّه أي: نظراء ومثلاء، يساويهم في اللَّه بالعبادة والمحبة، والتعظيم والطاعة(٢).

---

(١) تفسير القرطبي (٢/ ٢٠٣).

(٢) تفسير السعدي (١/ ٧٩).

٣- الاستقراء: وهو استخراج نتيجة من مجموعة من النصوص.

مثال: قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: والوعد الذي في القرآن بالجنة وبالنجاة من العذاب، إنما هو معلق باسم الإيمان، وأما اسم الإسلام مجردًا فما علق به في القرآن دخول الجنة، لكنه فرضه وأخبر أنه دينه الذي لا يقبل من أحد سواه[1].

مثال آخر: من استقراء الآيات المكية نجد فيها تقرير البعث، إثبات النبوة، والإسهاب في ذكر قصص الأنبياء، ومن استقراء الآيات المدنية نجد فيها ذكر الجهاد، وتفاصيل الأحكام الشرعية في الزواج والميراث، وذكر أحوال المنافقين.

٤- الاستدلال: وهو تقرير نتيجة مع ذكر دليلها بطريقة استدلال صحيح

مثال: الحب مع الله شرك أكبر، والدليل: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾... ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ فلما ذكر الخلود في النار علم أنه شرك أكبر.

٥- الطلاقة: وهي ذكر معاني كثيرة تعد تفسيرًا لكلمة واحدة.

مثال: في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾

---

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٢٩٤).

يقال: إن نور الحسنات يذهب ظلمة السيئات، وسعة الحسنات يذهب ضيق السيئات، وأصحاب الحسنات يذهبون أقران السيئات، ورحمة الحسنات تذهب غضب السيئات، وخير الحسنات يذهب شر السيئات.

وهذ قريب من أحد معاني اختلاف التنوع الذي عناه شيخ الإسلام بقوله: إن الاختلاف في التنوع هذا في منزلة الألفاظ المتكافئة التي هي بين المترادفة والمتباينة[(١)].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: واختلاف التنوع كالاختلاف في الأسماء مثلا فإنهم اختلفوا في تفسير الصراط، في قوله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، فقال بعضهم: الإسلام. قال بعضهم: القرآن، قال بعضهم: الصراط: محمد ﷺ. وكلها كالأفراد لمعنى عام واحد، هذا تفسير منهم. وهذا الاختلاف - اختلاف التنوع- منهم أفاد المفسرين بعد ذلك كثيرًا؛ لأنه يكون كالإشارات يستفيد منها المفسر للتعبير عن معنى الآية بما يناسب الحاجة - حاجة الناس- ذلك لأن القرآن نزل هاديًا للناس[(٢)].

(١) شرح مقدمة التفسير (١/ ٤٩).
(٢) شرح مقدمة التفسير (١/ ٨).

٦- الحلول: وهو استنباط مفهوم يكون مخرجًا أو وجهة لرفع إشكال أو حرج في الفهم.

مثال: في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾.

وردا على إشكال من قال: إن المسيح وعزير عليهما السلام، ممن عُبِدَ من دون الله. قال ابن كثير: وقد عول ابن جرير في تفسيره على أنّ (مَا) لما لا يعقل عند العرب، فتكون الآية خاصة بالأصنام[1].

٧- التطبيق: وهو الحكم على أمر اعتمادًا على قاعدة كلية

مثال: على قاعدة: كون الأمر من باب أولى.

في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ فيه نهى عن ما هو أعظم منه، وفي كل آية فيها أمر للنبي ﷺ كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ وفي قوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ هي أمر لأمته من باب أولى.

مثال: على قاعدة: ما لا يتم به الواجب فهو واجب.

في وقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فيها أمر بما يجب لها من الوضوء وسائر الشروط.

---

(١) تفسير ابن كثير (٥/ ٣٨١).

مثال: على قاعدة: الأمر بالمقاصد أمر بالوسائل

في قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ فالأمر بالدعوة إلى اللَّه أمر بحسن الوسائل وتحري الحكمة لتحقيق مقاصد الدعوة.

٨- الجمع بين النصوص: وهي القدرة على ذكر سياق يؤلف بينها ويبين سبب اختلافها.

مثال: ذكر اللَّه عذاب قوم شعيب في سورة هود «وذكر أنه أتتهم صيحة، وفي الأعراف رجفة، وفي الشعراء عذاب يوم الظلة، وهم أمة واحدة، اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النقَمُ كلها. وإنما ذكر في كل سياق ما يناسبه، ففي الأعراف لما قالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ﴾ [الأعراف: ٨٨]، ناسب أن يذكر هناك الرجفة، فرجفت بهم الأرض التي ظلموا بها، وأرادوا إخراج نبيهم منها، وهاهنا لما أساءوا الأدب في مقالتهم على نبيهم ناسب ذكر الصيحة التي أسكتتهم وأخمدتهم، وفي الشعراء لما قالوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٩]، قال ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩]، وهذا من الأسرار الغريبة الدقيقة، ولله الحمد والمنة كثيرًا دائمًا»[١].

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٤٧).

٩- التحليل: وهو تجزئة المفردات بحسب علاقة تربط بينها.

مثال: ذكر الله الجهاد في آيات كثيرة، ويمكن تقسيم الجهاد الوارد في الآيات إلى عدة أقسام:

الجهاد بحسب الوسيلة: الجهاد بالمال، الجهاد بالنفس، الجهاد بالقول.

الجهاد بحسب من نجاهده: جهاد النفس، جهاد الشيطان، جهاد المنافقين، جهاد الكفار.

الجهاد بحسب وجوبه: فرض عين، فرض كفاية.

الجهاد بحسب طبيعته: جهاد طلب، جهاد دفع.

١٠- السياق: وهو النظر في سياق الكلام لمعرفة المقصود منه.

مثال: قال الزركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: السياق[١] من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم فمن أهمله غلط في نظيره، وغالط في مناظراته، وانظر إلى قوله تعالى: ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾ كيف تجد سياقه يدل على أنه الذليل الحقير[٢].

(١) قال الزركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وما لم يرد فيه نقل عن المفسرين - وهو قليل - طريق التوصل إلى فهمه النظر إلى مفردات الألفاظ من لغة العرب ومدلولاتها واستعمالها بحسب السياق، وهذا يعتني به الراغب كثيرًا في كتاب المفردات فيذكر قيدًا زائدًا على أهل اللغة في تفسير مدلول اللفظ لأنه اقتصه من السياق. البرهان (٣/ ١٧٣).

(٢) البرهان (٢/ ٢٠٠).

مثال: قوله تعالى ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ يدل السياق أن الضمير يعود إلى الأرض، وفي قوله تعالى: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾ يدل السياق أن الضمير يعود إلى الأرض، وفي قوله تعالى ﴿وَلِأَبَوَيْهِ﴾ أي: الميت، ولم يتقدم له ذكر وإنما يدل السياق عليه، فأضمر ثقة بفهم السامع[(١)].

مثال: في قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ قال الزركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: السياق يدل على أن الله تعالى أمر بذلك، لا أنه خبر[(٢)].

مثال: قال الزركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن قيل: هل يظهر فرق بين قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ سورة يونس، وبين قوله: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ﴾ سورة سبأ، قيل: السياق في كل منهما مرشد إلى الفرق، فإن الآيات التي في يونس سيقت للاحتجاج عليهم بما أقروا به من كونه تعالى هو رازقهم... فلما كانوا مقرين بهذا كله حسن الاحتجاج به عليهم إذ فاعل هذا هو الله ولهذا قال بعده ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ وإنما كانوا مقرين

(١) ينظر الإتقان للسيوطي (٢/ ٣٣٥).
(٢) البرهان (٢/ ٣٢٠).

بنزول الرزق من قبل هذه السماء التى يشاهدونها ولم يكونوا مقرين ولا عالمين بنزول الرزق من سماء إلى سماء حتى ينتهي إليهم فأفردت لفظة السماء هنا لذلك. وأما الآية التى في سبأ فإنه لم ينتظم لها ذكر إقرارهم بما ينزل من السماء؛ ولهذا أمر رسوله بأن يجيب وأن يذكر عنهم أنهم هم المجيبون فقال: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ﴾ ولم يقل (فسيقولون اللَّه)[1].

***

(١) البرهان (٤/ ٩).

قبس من القرآن

١- الاستعاذة ابن القيم
٢- البسملة الشريف
٣- الفاتحة ابن القيم
٤- ولا تمدن السعدي
٥- قصة إبراهيم ابن القيم
٦- اللَّه لطيف بعباده السعدي
٧- ألا إن نصر اللَّه قريب العمر
٨- الدعاء في كتاب اللَّه السعدي

١- تأملات في معاني الاستعاذة

لابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨]

أمر سبحانه بالاستعاذة[١] به من الشيطان عند قراءة القرآن للفوائد التالية:

الأول: أن القرآن شفاء لما في الصدور يذهب لما يلقيه الشيطان فيها من الوساوس والشهوات والإرادات الفاسدة فهو دواء لما أمره فيها الشيطان فأمر أن يطرد مادة الداء ويخلى منه القلب ليصادف الدواء محلًا خالياً فيتمكن منه ويؤثر فيه فيجيء هذا الدواء الشافي إلى القلب وقد خلا من مزاحم ومضاد له فينجع فيه.

الثاني: أن القرآن مادة الهدى والعلم والخير في القلب كما أن الماء مادة النبات والشيطان نار يحرق النبات أولًا فأولًا فكلما أحس بنبات الخير من القلب سعى في إفساده وإحراقه؛ فأمر أن يستعيذ بالله عز وجل منه لئلا يفسد عليه ما يحصل له بالقرآن.

والفرق بين هذا الوجه والوجه الذي قبله أن الاستعاذة في الوجه الأول لأجل حصول فائدة القرآن، وفي الوجه الثاني

---

(١) معنى أستعيذ بالله: أمتنع به وأعتصم به وألجأ إليه.

لأجل بقائها وحفظها وثباتها.

الثالث: أن الملائكة تدنوا من قارئ القرآن وتستمع لقراءته كما في حديث أسيد بن حضير لما كان يقرأ ورأى مثل الظلة فيها مثل المصابيح؛ فقال عليه الصلاة والسلام: «تلك الملائكة» والشيطان ضد الملك وعدوه فأمر القارئ أن يطلب من اللّٰه تعالى مباعدة عدوه عنه حتى يحضره خاص ملائكته؛ فهذه منزلة لا يجتمع فيها الملائكة والشياطين.

الرابع: أن الشيطان يجلب على القارئ بخيله ورجله حتى يشغله عن المقصود بالقرآن وهو تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد به المتكلم به سبحانه فيحرص بجهده على أن يحول بين قلبه وبين مقصود القرآن فلا يكمل انتفاع القارىء به فأمر عند الشروع أن يستعيذ باللّٰه عز وجل منه.

الخامس: أن القارئ يناجي اللّٰه تعالى بكلامه، واللّٰه تعالى أشد أذناً للقارئ الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته والشيطان إنما قراءته الشعر والغناء، فأمر القارئ أن يطرده بالاستعاذة عند مناجاة اللّٰه تعالى واستماع الرب قراءته.

السادس: أن اللّٰه سبحانه أخبر أنه ما أرسل من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته، والسلف كلُّهم على أن المعنى: إذا تلا ألقى الشيطان في تلاوته قال الشاعر في عثمان:

تمنى كتاب الله أول ليله   وآخره لاقى حمام المقدر

فإذا كان هذا فعله مع الرسل عليهم السلام فكيف بغيرهم؟! ولهذا يغلط القارىء تارة ويخلط عليه القراءة ويشوشها عليه فيخبط عليه لسانه أو يشوش عليه ذهنه وقلبه فإذا حضر عند القراءة لم يعدم منه القارىء هذا أو هذا، وربما جمعهما له فكان من أهم الأمور: الاستعاذة بالله تعالى منه.

السابع: أن الشيطان أحرص ما يكون على الإنسان عندما يهم بالخير أو يدخل فيه فهو يشتد عليه حينئذ ليقطعه عنه وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن شيطانًا تفلت عليَّ البارحة فأراد أن يقطع على صلاتي**» الحديث وكلما كان الفعل أنفع للعبد وأحب إلى الله تعالى كان اعتراض الشيطان له أكثر وفي مسند الإمام أحمد من حديث سبرة بن أبي الفاكه أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرافه فقعد له بطريق الإسلام فقال: أتسلم وتذر دينك ودين آبائك وآباء آبائك فعصاه، فأسلم ثم قعد له بطريق الهجرة فقال: أتهاجر وتذر أرضك وسماءك وإنما مثل المهاجر كالفرس في الطول فعصاه وهاجر ثم قعد له بطريق الجهاد وهو جهاد النفس والمال فقال: تقاتل فتقتل فتنكح المرأة ويقسم المال قال: فعصاه فجاهد**».

فالشيطان بالرصيد للإنسان على طريق كل خير. وقال منصور

عن مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ: ما من رفقة تخرج إلى مكة إلا جهز معهم إبليس مثل عدتهم، رواه ابن أبي حاتم في تفسيره فهو بالرصد ولا سيما عند قراءة القرآن؛ فأمر سبحانه العبد أن يحارب عدوه الذي يقطع عليه الطريق ويستعيذ بالله تعالى منه أولا ثم يأخذ في السير كما أن المسافر إذا عرض له قاطع طريق اشتغل بدفعه ثم اندفع في سيره.

الثامن: أن الاستعاذة قبل القراءة عنوان وإعلام بأن المأتى به بعدها القرآن؛ ولهذا لم تشرع الاستعاذة بين يدي كلام غيره بل الاستعاذة مقدمة وتنبيه للسامع أن الذي يأتي بعدها هو التلاوة فإذا سمع السامع الاستعاذة استعد لاستماع كلام الله تعالى ثم شرع ذلك للقارىء وإن كان وحده، لما ذكرنا من الحكم وغيرها[١].

* * *

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (١/ ٩١).

٢- تأملات في معاني البسملة

لمحمد بن شاكر الشريف

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ١]، أول ما بدأ اللَّه به كتابه في سورة الفاتحة.

عندما نتدبر هذه الآية، وننظر فيها بعمق غير مكتفين بالظاهر القريب؛ نجد أن هذه الجملة المكوَّنة من هذه الكلمات الأربع قد اشتملت على معاني جليلة كبيرة؛ فمن ذلك:

نفي الشريك عن اللَّه تعالى فعندما يقول المسلم: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ فهو يُقرُّ ويعترف أنه يبدأ عمله أو قوله بسم اللَّه وحده وليس باسم أحد آخر، فلا يقول: باسم الشعب أو الأمة أو الوطن... ونحو ذلك من الكلمات التي تدور على ألسنة الكثيرين

تبدأ بها الرسائل والكتب

استخدام هذه الآية في مكاتبات الرسل عليهم السلام؛ لأن فيها إعلان التوحيد، فهذا نبي اللَّه سليمان عليه السلام عندما أرسل خطابه إلى ملكة سبأ قال لها كما قص اللَّه علينا: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣٠-٣١].

وعندما كتب الرسول الأعظم محمد بن عبد الله ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام كتب إليه: «**بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم. . .**» الحديث[١]، وعندما أراد الرسول الكريم أن يكتب كتاب الصلح بينه وبين المشركين في الحديبية دعا الكاتب، فقال: اكتب الشرط بيننا: «**بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله. . .**» الحديث[٢].

وكذلك في كتاب النبي ﷺ لِمُجّاعَةَ بمرارة[٣]، ولِعَكٌ ذي خَيْوَانَ[٤]، ولبلال بن الحارث المزني[٥] ولبني زهير بن أقيش[٦].

وحين بعث العلاء بن الحضرمي إلى البحرين كتب له: «**بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد رسول الله النبي الأمي القرشي الهاشمي رسول الله ونبيه إلى خلقه كافة للعلاء ابن الحضرمي ومن معه من المسلمين؛ عهدًا أعهده إليهم اتقوا**

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٢٩٤١)، ومسلم: رقم (١٧٧٣).

(٢) أخرجه البخاري: رقم (٢٧٣١)، ومسلم: رقم (١٧٨٣)، لكن المشركين رفضوا كتابة بسم الله الرحمن الرحيم كما رفضوا كتابة رسول الله.

(٣) أخرجه أبو داود (٢٩٩٠).

(٤) رواه أبو داود (٣٠٢٧).

(٥) أخرجه أبو داود وأحمد (٣٠٦٢).

(٦) أخرجه أحمد (٢٣٠٧٧).

اللَّه أيها المسلمون! ما استطعتم...»[١].

وعندما وجَّه أبو بكر الخليفة الراشد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنس بن مالك للبحرين لجمع الصدقة كتب له هذا الكتاب: «بسم اللَّه الرحمن الرحيم: هذه فريضة الصدقة...» الحديث[٢].

وكتب الخليفة الراشد الثاني الفاروق عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «بسم اللَّه الرحمن الرحيم، هذا ما أوصى به عبد اللَّه عمر أمير المؤمنين إن حدث به حدث...» الحديث[٣].

فضل البسملة

للبسملة فضائل كثيرة منها الشواهد التالية:

١- قال رسول اللَّه ﷺ: «إن اللَّه سيخلص رجلًا من أمتي على رءوس الخلائق يوم القيامة؛ فينشر عليه تسعة وتسعين سجلًا كل سجل مد البصر، ثم يقول له: أتنكر من هذا شيئًا؟ أظلمَتْكَ كتَبَتِي الحافظون؟ قال: لا يا رب! فيقول: ألك عذر أو حسنة؟ فيُبْهَت الرجل، فيقول: لا يا رب! فيقول: بلى إن لك عندنا حسنةً واحدة لا ظُلم اليوم عليك؛ فيُخرَج له بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدًا عبدُه ورسولُه، فيقول: أحضروه،

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٤٥٨٧).
(٢) أخرجه البخاري رقم (١٤٥٤).
(٣) أخرجه أبو داود (٢٨٧٩).

فيقول: يا رب! وما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقال: إنك لا تُظلم، قال: فتوضع السجلات في كِفةٍ والبطاقة في كِفةٍ، قال: فطاشت السجلات وثقلت البطاقة، ولا يثقل شيء بسم الله الرحمن الرحيم»[(١)]، فكانت «بسم الله الرحمن الرحيم» تعادل شهادة التوحيد.

٢- ولما أصيبت يد طلحة بن عبيد الله في إحدى الغزوات مع رسول لله ﷺ قال: حس، فقال له الرسول ﷺ: «لو قلت: بسم الله الرحمن الرحيم، لرأيت بناءك الذي بنى الله لك في الجنة وأنت في الدنيا»[(٢)].

٣- عن محمد بن الصلت، يقول: «سمعت بشر بن الحارث وسُئل ما كان بَدء أمرك؟ لأن اسمك بين الناس كأنه اسم نبي، قال: هذا من فضل الله، وما أقول لكم: كنت رجلاً عيارًا صاحب عصبة، فجزت يومًا فإذا أنا بقرطاس في الطريق فرفعته، فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، فمسحته وجعلته في جيبي،

---

(١) أخرجه أحمد (٦٩٩٤)

(٢) أخرجه الدارقطني في الأفراد، وابن شاهين في أماليه، وأبو نعيم في فضائل الصحابة، وابن عساكر عن طلحة.

وكان عندي درهمان ما كنت أملك غيرهما، فذهبت إلى العطارين فاشتريت بهما غالية ومسحته في القرطاس، فنمت تلك الليلة، فرأيت في المنام كأن قائلاً يقول لي: يا بشر بن الحارث! رفعت اسمنا عن الطريق وطيبته، لأطيبن اسمك في الدنيا والآخرة، ثم كان ما كان»[١].

من حكم وأسرار البسملة

١- الإقرار بأن اللّه وحده هو المعين الذي يستعين به العبد على تحقيق ما يريد؛ لأن (بسم اللّه) تعني: أنني أبدًا مستعينًا باللّه وحده لا مستعينًا بسواه؛ فقدْرَته مطلقة كاملة لا يحدها شيء بعكس قدرات الناس؛ فإنها مقيَّدة ومحدودة، وإفراد اللّه تعالى بالاستعانة، فيه الشهادة للّه تعالى أنه على كل شيء قدير وأنه ليس له ظهير أو نصير؛ ولذلك استعان به المسلم وحده ولم يستعن بأحد معه، كما أن فيه الشهادة بكرم اللّه على عباده؛ حيث يفتتحون أعمالهم وأقوالهم باسمه تعالى وهم على رجاء كبير أنه يحقق لهم مطلوبهم.

٢- إظهار عجز الإنسان وعدم قدرته على الانفراد بتحقيق مطلوبه ما لم يكن هناك عونٌ من اللّه تعالى في ذلك؛ لذا

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية، وابن عساكر.

شُرعت التسمية في كثير من الأمور: عند النوم والاستيقاظ، وعند الخروج من المنزل ودخوله، وقبل الشروع في الأكل والشرب والذبح...

٣- ومن ذلك أن الله ضَمِن الرزق لعباده؛ لأن الرحمة لا تكتمل في جميع صورها وأشكالها إذا كان المخلوق لا يضمن رزقه وما يقيم به أَوْدَه، وهذا ينبه إلى عدم ابتغاء الرزق من عند غير الله الرحمن الرحيم، قال تعالى: ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ﴾ [العنكبوت: ١٧]، وقال تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٣].

٤- أن ما خلقه الله تعالى وإن ظهر فيه لنا بادي الرأي أنه من المصائب: كخلق الحيات والعقارب والسباع... ونحو ذلك، فإن فيه حكمًا عظيمة وفوائد جليلة حتى وإن خفيت علينا، لأن الرحمن الرحيم لا يخلق ما فيه الضرر والشرور على عباده من غير مصلحة ترتجى من ورائه.

٥- أن الداعية يعتمد في دعوته الترغيب والتبشير ويقدمهما على الترهيب والإنذار؛ فأول آية في كتاب الله تعالى يقرؤها الناس قوله تعالى : بسم الله الرحمن الرحيم، ولم تكن: بسم الله العزيز القهار. وإن كان ذلك حقًّا وصوابًا؛ لكن أمر الله بدأ ليدل على أن الرحمة سابقة للغضب وأن الترغيب سابق للترهيب، وأن

التبشير سابق للإنذار. فعلى الداعي أن يعتمد كثرة الترغيب لا كثرة الترهيب، وأن يبدأ بالتبشير لا بالإنذار، ومما يبين ذلك ما قاله الرسول ﷺ: «**لمَّا قضى اللَّه الخلق كتب عنده فوق عرشه، إن رحمتي سبقت غضبي**»[(١)]، كما أن معرفة المسلم أن اللَّه رحمن رحيم تجعله يُقْبِل دائمًا على ربه وإن وقعت منه المعصية ولا ييئس من رحمة اللَّه، بل كلما أذنب، تاب واستغفر وهو على أمل القبول؛ لأن ربه رحمن رحيم.

٦- أن الآية لم تقتصر على قوله: «بسم اللَّه» مع أنها متضمنة لمعاني بقية البسملة، بل جاء معها لفظ: «الرحمن الرحيم» لتكون بمثابة الحافز الذي يُطمع العبد في فضل اللَّه وعفوه، مما يجعله دائمًا مقبِلاً على ربه غير منقطع عنه، مؤمِّلاً ما عند اللَّه من الخير العميم والرحمة الواسعة التامة الكاملة.

٧- بيان سعة رحمة رب العالمين؛ فإن الآية لم تقتصر على لفظ الرحمن فقط، فاجتماع اللفظين معًا دالٌ على أن هناك تفاوتًا في دلالة كلٍّ من اللفظين على الرحمة، مع أن كِلا اللفظين يدل على الرحمة، ومن ثَمَّ فإن اجتماعهما معًا يدل على أن جميع الصور التي يمكن تصورها في الرحمة هي من أفراد رحمة اللَّه

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٧٤٥٣).

تعالى الجامعة، سواء كانت رحمة في الدنيا أو رحمة في الآخرة أو رحمة في الشرائع، يقول الرسول الكريم ﷺ: «**جعل الله الرحمة مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءًا، وأنزل في الأرض جزءًا واحدًا؛ فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق، حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه**»[(١)].

٨- ومن تلك المعاني التي تدل عليها البسملة: أن الإنسان لا ينبغي له أن يلجأ في الشدائد لأحد غير الرحمن الرحيم؛ فإن لم يعنه الرحمن الرحيم في شدته وكربه، فلن ينفعه أحد؛ لأن الله تعالى أرحم به من كل أحد، بل أرحم بالإنسان من نفسه بنفسه، ومن هنا يتبين أنه من الخسران المبين أن يلجأ الإنسان لغير الرحمن الرحيم في كشف ضُرِّه وتفريج كربه، بل يدل لجوؤه لغير الرحمن الرحيم في هذه الحالات على ضعف اليقين والإيمان بهاتين الصفتين.

٩- أن ما شرعه الله من الواجبات، أو ما حدده من العقوبات والحدود على المخالفات، أو ما قدره من الأقدار، لا تخالف مقتضيات رحمته التي وسعت كل شيء، وهذا يبين أنها في مقدور العبد، سواء كانت فِعْل واجب أو اجتناب حرَّم أو صبر

(١) أخرجه البخاري رقم (٦٠٠٠)، ومسلم رقم (٢٧٥٢).

على مصيبة، وأنه ليس في ذلك تكليف بمستحيل أو بأمر عسير يشق مشقة خارجة عن وُسْع الإنسان وقدرته؛ فهذا الذي يليق برحمة الرحمن الرحيم، وهذا يبين جهل المعترضين على حدود اللَّه وظُلْمَهم؛ حيث يظنون أن في الحدود عنفًا وقسوة.

١٠- يدل تسمية الرسول محمد صلى اللَّه عليه بالبسملة على بشريته، وأنه بحاجة إلى عون اللَّه وتوفيقه، وذلك من كمال إقراره بعبودية للَّه تعالى وأنه لا يستنكف من ذلك، وأنه لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا، فضلاً أن يملك لغيره، فلا يطلب منه العون أو المدد فيما لا يملك أو بعد موته، فإنه ﷺ نفى الغلو في شخصه عندما قال لأصحابه: «**لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم إنما أنا عبد اللَّه ورسوله**».

هذه بعض النظرات من خلال تدبر ألفاظ البسملة واللَّه أعلم بمعاني كتاب اللَّه، نسأل اللَّه تعالى أن يجعلنا من الذين يتدبرون كلامه على الوجه الذي يرضيه عنا، وأن نكون من العاملين به الداعين إليه.

❊ ❊ ❊

٣- حكم وأسرار في سورة الفاتحة

لابن القيم رَحِمَهُ اللهُ

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٣ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾.

هذه السورة اشتملت على أمهات المطالب العالية أتمَّ اشتمال وتضمنتها أكمل تضمن؛ فاشتملت على التعريف بالمعبود تبارك وتعالى بثلاثة أسماء مرجع الأسماء الحسنى والصفات العليا إليها ومدارها عليها، وهي الله والربُّ والرحمن وبنيت السورة على الإلهية والربوبية والرحمة فـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ مبنى على الإلهية و﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ على الربوبية، وطلب الهداية إلى الصراط المستقيم بصفة الرحمة والحمد يتضمن الأمور الثلاثة فهو المحمود في إلهيته وربوبيته ورحمته، والثناء والمجد كمالان لجده، وتضمنت إثبات المعاد وجزاء العباد بأعمالهم حسنها وسيئها وتفرد الرب تعالى بالحكم إذ ذاك بين الخلائق وكون حكمه بالعدل وكل هذا تحت قوله: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾،

وتضمن قوله ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ طلب الهداية وهي البيان والدلالة ثم التوفيق والإلهام وهو بعد البيان والدلالة، ولا سبيل إلى البيان والدلالة إلا من جهة الرسل، فإذا حصل البيان والدلالة والتعريف ترتب عليه هداية التوفيق، وجعل الإيمان في القلب وتحبيبه إليه وتزيينه في القلب وجعله مؤثرًا له راضيًا به راغبًا فيه.

وهما هدايتان مستقلتان لا يحصل الفلاح إلا بهما وهما متضمنتان تعريف ما لم نعلمه من الحق تفصيلا وإجمالا وإلهامنا له وجعلنا مريدين لاتباعه ظاهرًا وباطنًا ثم خلق القدرة لنا على القيام بموجب الهدى بالقول والعمل والعزم ثم إدامة ذلك لنا وتثبيتنا عليه إلى الوفاة، ومن هنا يعلم اضطرار العبد إلى سؤال هذه الدعوة فوق كل ضرورة .

وبطلان قول من يقول إذا كنا مهتدين فكيف نسأل الهداية، فإن المجهول لنا من الحق أضعاف المعلوم وما لا نريد فعله تهاونًا وكسلًا مثل ما نريده أو أكثر منه وما لا نقدر عليه مما نريده كذلك وما نعرف جملته ولا نهتدي لتفاصيله فأمر يفوت الحصر ونحن محتاجون إلى الهداية التامة فمن كملت له هذه الأمور كان سؤال الهداية له سؤال التثبيت والدوام.

وللهداية مرتبة أخرى وهي آخر مراتبها وهي الهداية يوم القيامة إلى طريق الجنة وهو الصراط الموصل إليها فمن هدي في هذه

الدار إلى صراط اللَّه المستقيم الذي أرسل به رسله وأنزل به كتبه هدي هناك إلى الصراط المستقيم الموصل إلى جنته ودار ثوابه وعلى قدر ثبوت قدم العبد على هذا الصراط الذي نصبه اللَّه لعباده في هذه الدار يكون ثبوت قدمه على الصراط المنصوب على متن جهنم، وعلى قدر سيره على هذه الصراط يكون سيره على ذاك الصراط؛ فمنهم من يمر كالبرق ومنهم من يمر كالطرف ومنهم من يمر كالريح ومنهم من يمر كشد الركاب ومنهم من يسعى سعيًا ومنهم من يمشي مشيًا ومنهم من يحبوًا حبوا ومنهم المخدوش المسلم ومنهم المكردس في النار؛ فلينظر العبد سيره على ذلك الصراط من سيره على هذا حذو القذة بالقذة جزاء وفاقًا هل تجزون إلا ما كنتم تعملون.

ولينظر الشبهات والشهوات التي تعوقه عن سيره على هذا الصراط المستقيم؛ فإنها الكلاليب التي بجنبتي ذاك الصراط تخطفه وتعوقه عن المرور عليه فإن كثرت هنا وقويت فكذلك هي هناك وما ربك بظلام للعبيد.

فسؤال الهداية متضمن لحصول كلّ خير والسلامة من كلّ شر.

والصراط المستقيم لا يكون الطريق صراطًا حتى يتضمن خمسة أمور الاستقامة والإيصال إلى المقصود والقرب وسعته للمارين عليه وتعينه طريقًا للمقصود.

وانقسم الناس بحسب معرفة الحق والعمل به إلى هذه الأقسام الثلاثة؛ لأن العبد إما أن يكون عالمًا بالحق أو جاهلًا به، والعالم بالحق إما أن يكون عاملًا بموجبه أو مخالفا له، فهذه أقسام المكلفين لا يخرجون عنها ألبتة، فالعالم بالحق العامل به هو المُنْعَمُ عليه وهو الذي زكى نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح وهو المفلح ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ والعالم به المتبع هواه هو المغضوب عليه والجاهل بالحق هو الضال والمغضوب عليه ضال عن هداية العمل، والضال مغضوب عليه لضلاله عن العلم الموجب للعمل؛ فكلٌ منهما ضال مغضوب عليه ولكن تارك العمل بالحق بعد معرفته به أولى بوصف الغضب وأحق به

ومن ههنا كان اليهود أحقَّ به وهو متغلظ في حقهم كقوله تعالى في حقهم: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ﴾ وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ والجاهل بالحق أحقُّ باسم الضلال ومن هنا وصفت النصارى به في قوله تعالى ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾

وفي الترمذي وصحيح ابن حبان من حديث عدي بن حاتم قال: قال رسول الله: «**اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون**».

وفي تخصيصه لأهل الصراط المستقيم بالنعمة ما دل على أن النعمة المطلقة هي الموجبة للفلاح الدائم، وأما مطلق النعمة فعلى المؤمن والكافر؛ فكل الخلق في نعمه، فالنعمة المطلقة لأهل الإيمان ومطلق النعمة تكون للمؤمن والكافر كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ والنعمة من جنس الإحسان بل هي الإحسان والرب تعالى إحسانه على البر والفاجر والمؤمن والكافر، وأما الإحسان المطلق فللذين اتقوا والذين هم محسنون. وأما الغضب على أعدائه فلا يختص به تعالى بل ملائكته وأنبياؤه ورسله وأولياؤه يغضبون لغضبه؛ فكان في لفظة المغضوب عليهم بموافقة أوليائه له، وفي حذف فاعل الغضب من الإشعار بإهانة المغضوب عليه وتحقيره وتصغير شأنه ما ليس في ذكر فاعل النعمة من إكرام المنعم عليه والإشادة بذكره ورفع قدره ما ليس في حذفه؛ فإذا رأيت من قد أكرمه ملك وشرفه ورفع قدره؛ فقلت: هذا الذي أكرمه السلطان وأعطاه ما تمناه؛ كان أبلغ في الثناء والتعظيم من قولك: هذا الذي أُكرِمَ وشُرِفَ وأعطى.

ولما كان طالبُ الصراط المستقيم طالبَ أمرٍ أكثرُ الناسِ ناكبون

عنه مريدًا لسلوك طريقٍ مرافقه فيها في غاية القلة والعزة، والنفوس مجبولة على وحشة التفرد وعلى الأنس بالرفيق نبه اللَّه سبحانه على الرفيق في هذه الطريق، وأنهم هم الذين أنعم اللَّه عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا؛ فأضاف الصراط إلى الرفيق السالكين له وهم الذين أنعم اللَّه عليهم ليزول عن الطالب للَّهداية وسلوك الصراط وحشة تفرده عن أهل زمانه وبني جنسه، وليعلم أن رفيقه في هذا الصراط هم الذين أنعم اللَّه عليهم فلا يكترث بمخالفة الناكبين عنه له؛ فإنهم هم الأقلون قدرًا وإن كانوا الأكثرين عددًا، كما قال بعض السلف: عليك بطريق الحق ولا تستوحش لقلة السالكين وإياك وطريق الباطل ولا تغتر بكثرة الهالكين.

وكلما استوحشت في تفردك فانظر إلى الرفيق السابق واحرص على اللحاق بهم وغض الطرف عمن سواهم فإنهم لن يغنوا عنك من اللَّه شيئا.

و في قوله: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ توسل إلى اللَّه بنعمه وإحسانه إلى من أنعم عليه بالهداية، أي: قد أنعمت بالهداية على من هديت وكان ذلك نعمةً منك فاجْعَلْ لي نصيبًا من هذه النعمة واجعلني واحدًا من هؤلاء المُنْعَمِ عليهم؛ فهو توسل إلى اللَّه بإحسانه كما يقول السائل للكريم: تصدق علي في جملة من

تصدقت عليهم، وعلمني في جملة من علمته، وأحسن إلي في جملة من شملته بإحسانك.

ولما كان سؤال اللّه الهداية إلى الصراط المستقيم أجل المطالب ونيله أشرف المواهب علم اللّه عباده كيفية سؤاله وأمرهم أن يقدموا بين يديه حمده والثناء عليه وتمجيده، ثم ذكر عبوديتهم وتوحيدهم فهاتان وسيلتان إلى مطلوبهم توسل إليه بأسمائه وصفاته وتوسل إليه بعبوديته، وهاتان الوسيلتان لا يكاد يرد معهما الدعاء، وقد جمعت الفاتحة الوسيلتين وهما التوسل بالحمد والثناء عليه وتمجيده والتوسل إليه بعبوديته وتوحيده، ثم جاء سؤال أهم المطالب وأنجح الرغائب وهو الهداية بعد الوسيلتين فالداعي به حقيق بالإجابة.

واشتملت الفاتحة على شفاء القلوب وشفاء الأبدان؛ فأما اشتماله على شفاء القلوب فإنها اشتملت عليه أتمَّ اشتمال فإن مدار اعتلال القلوب وأسقامها على أصلين: فساد العلم وفساد القصد. ويترتب عليهما داءان قاتلان وهما: الضلال والغضب؛ فالضلال نتيجة فساد العلم والغضب نتيجة فساد القصد، وهذان المرضان هما مِلاك أمراض القلوب جميعها، فهداية الصراط المستقيم تتضمن الشفاء من مرض الضلال، ولذلك كان سؤال هذه الهداية أفرض دعاء على كل عبد وأوجبه عليه كل يوم وليلة

في كل صلاة لشدة ضرورته وفاقته إلى الهداية المطلوبة ولا يقوم غير هذا السؤال مقامه. فالتحقق بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ علمًا ومعرفةً وعملاً وحالاً يتضمن الشفاء من مرض فساد القلب والقصد، فمن طلب الغاية العليا والمطلب الأسمى ولكن لم يتوسل إليه بالوسيلة الموصلة له وإليه بل توسل إليه بوسيلة ظنها موصلة إليه وهي من أعظم القواطع عنه، فحاله كحال فاسد القصد ولا شفاء من هذا المرض إلا بدواء إياك نعبد وإياك نستعين.

فإن هذا الدواء مركب من ستة أجزاء عبودية الله لا غيره بأمره وشرعه لا بالهوى ولا بآراء الرجال وأوضاعهم ورسومهم وأفكارهم والاستعانة على عبوديته به لا بنفس العبد وقوته وحوله ولا بغيره.

فهذه هي أجزاء إياك نعبد وإياك نستعين فإذا ركبها الطبيب اللطيف العالم بالمرض واستعملها المريض حصل بها الشفاء التام وما نقص من الشفاء فهو لفوات جزء من أجزائها.

ثم إن القلب يعرض له مرضان عظيمان إن لم يتداركهما العبد تراميا به إلى التلف ولا بد وهما الرياء والكبر فدواء الرياء بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ودواء الكبر بـ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وكثيرا ما كنت أسمع شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: (إياك نعبد) تدفع الرياء و(إياك نستعين) تدفع الكبرياء.

فإذا عوفي من مرض الرياء بـ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ ومن مرض الكبرياء والعجب بـ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ ومن مرض الضلال والجهل بـ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ عوفي من أمراضه وأسقامه، ورفل في أثواب العافية، وتمت عليه النعمة، وكان من المنعم عليهم غير المغضوب عليهم؛ وهم أهل فساد القصد الذين عرفوا الحق وعدلوا عنه والضالين وهم أهل فساد العلم الذين جهلوا الحق ولم يعرفوه، وحقٌّ لسورة تشتمل على هذين الشفاءين أن يستشفى بها من كل مرض، ولهذا لما اشتملت على هذا الشفاء الذي هو أعظم الشفائين؛ كان حصدك الشفاء بها أولى فلا شيء أشفى للقلوب التي عقلت عن اللَّه وكلامه وفهمت عنه فهما خاصًا اختصها به من معاني هذه السورة.

أما تضمنها لشفاء الأبدان ما دلت عليه السنة ففي الصحيح من حديث أبي سعيد الخدري: أن ناسًا من أصحاب النبي مروا بحي من العرب فلم يقروهم ولم يضيفوهم فلُدِغَ سيدُ الحي فأتوهم، فقالوا: هل عندكم من رقية؟ أو هل فيكم من راق؟ فقالوا: نعم ولكنكم لم تقرونا! فلا نفعل حتى تجعلوا لنا جَعْلًا، فجعلوا لهم على ذلك قطيعًا من الغنم فجعل رجلٌ منا يقرأ عليه بفاتحة الكتاب، فقام كأن لم يكن به قُلبَة، فقلنا لا تعجلوا حتى نأتي النبي، فأتيناه فذكرنا له ذلك، فقال: «**ما يدريك أنها رقية، كلوا**

واضربوا لي معكم بسهم».

فقد تضمن هذا الحديث حصول شفاء هذا اللديغ بقراءة الفاتحة عليه فأغنته عن الدواء وربما بلغت من شفائه مالم يبلغه الدواء، هذا مع كون المحل غير قابل إما لكون هؤلاء الحي غير مسلمين أو أهل بخل ولؤم فكيف إذا كان المحل قابلاً؟!.

حكمة تقديم العبادة على الاستعانة

في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وذلك من باب تقديم الغايات على الوسائل، إذ العبادة غاية العباد التي خلقوا لها والاستعانة وسيلة إليها؛ ولأن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ متعلق بألوهيته واسمه الله و﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ متعلق بربوبيته واسمه الرب فقدم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ كما قدم اسم الله على الرب في أول السورة؛ ولأن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ قسمُ الربِّ فكان من الشطر الأول الذي هو ثناء على الله تعالى لكونه أولى به و﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قسم العبد فكان من الشطر الذي له وهو اهدنا الصراط المستقيم إلى آخر السورة؛ ولأن العبادة المطلقة تتضمن الاستعانة من غير عكس فكل عابد لله عبودية تامة مستعين به ولا ينعكس؛ لأن صاحب الأغراض والشهوات قد يستعين به على شهواته فكانت العبادة أكملَ وأتمَّ ولهذا كانت قسم الرب؛ ولأن الاستعانة جزء من العبادة من غير عكس؛

ولأن الاستعانة طلب منه والعبادة طلب له؛ ولأن العبادة لا تكون إلا من مخلص والاستعانة تكون من مخلص ومن غير مخلص؛ ولأن العبادة حقه الذي أوجبه عليك والاستعانة طلب العون على العبادة وهو بيان صدقته التي تصدق بها عليك وأداء حقه أهم من التعرض لصدقته؛ ولأن العبادة شكر نعمته عليك والله يحب أن يشكر والإعانة فعله بك وتوفيقه لك فإذا التزمت عبوديته ودخلت تحت رقها؛ أعانك عليها فكان التزامها والدخول تحت رقها سببًا لنيل الإعانة وكلما كان العبد أتمَّ عبودية كانت الإعانة من الله له أعظم، والعبودية محفوفة بإعانتين إعانة قبلها على التزامها والقيام بها وإعانة بعدها على عبودية أخرى وهكذا أبدا حتى يقضي العبد نحبه؛ ولأن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ له، و﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ به وماله مقدم على ما به؛ لأن ماله متعلق بمحبته ورضاه، وما به متعلق بمشيئته وما تعلق بمحبته أكمل مما تعلق بمجرد مشيئته، فإن الكون كله متعلق بمشيئته والملائكة والشياطين والمؤمنون والكفار والطاعات والمعاصي، والمتعلق بمحبته طاعاتهم وإيمانهم. فبهذه الأسرار يتبين بها حكمة تقديم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

حكم تقديم المعبود والمستعان:

في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ولم تكن الآية

نعبدك ونستعين بك.

لما فيها من الأدب مع الله بتقديم اسمه على فعلهم، وفيه الاهتمام وشدة العناية به، وفيه الإيذان بالاختصاص المسمى بالحصر فهو أشد قوة من قول: لا نعبد إلا إياك، ولا نستعين إلا بك. وتأمل قوله تعالى: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾ كيف تجده في قوة: لا ترهبوا غيري، لا تتقوا سواي، وكل ذي ذوق سليم يفهم هذا من السياق.

وفي إعادة إياك مرة أخرى دلالة على تعلق هذه الأمور بكل واحد من الفعلين ففي إعادة الضمير من قوة الاقتضاء لذلك ما ليس في حذفه فإذا قلت لملك مثلا: إياك أحب وإياك أخاف كان فيه من اختصاص الحب والخوف بذاته والاهتمام بذكره ما ليس في قولك إياك أحب وأخاف.

أقسام الناس في العبادة والاستعانة:

ينقسم الناس في عبادة الله والاستعانة به إلى أربعة أقسام كما يلي:

القسم الأول: أجلُّها وأفضلُها أهل العبادة والاستعانة بالله عليها فعبادة الله غاية مرادهم وطلبهم منه أن يعينهم عليها ويوفقهم للقيام بها؛ ولهذا كان من أفضل ما يسأل الرب تبارك وتعالى الإعانة على مرضاته، وهو الذي علمه النبيُّ لحبه معاذ بن جبل رضي الله عنه فقال:

«يا معاذ، والله إني لأحبك، فلا تنس أن تقول دبرَ كلّ صلاة: اللَّهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك».

فأنفع الدعاء طلب العون على مرضاته، وأفضل المواهب إسعافه بهذا المطلوب وجميع الأدعية المأثورة مدارها على هذا، وعلى دفع ما يضاده وعلى تكميله وتيسير أسبابه فتأملها، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه: تأملت أنفع الدعاء فإذا هو سؤال العون على مرضاته ثم رأيته في الفاتحة في ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾.

القسم الثاني: وهم المعرضون عن عبادته والاستعانة به فلا عبادة ولا استعانة بل إن سأله أحدهم واستعان به فعلى حظوظه وشهواته لا على مرضاة ربه وحقوقه، فإنه سبحانه يسأله مَنْ في السموات والأرض؛ يسأله أولياؤه وأعداؤه ويمد هؤلاء وهؤلاء، وأبغض خلقه عدوه إبليس ومع هذا فقد سأله حاجة فأعطاه إياها ومتعه بها، ولكن لمَّا لم تكن عونًا له على مرضاته كانت زيادة له في شقوته وبعده عن الله وطرده عنه، وهكذا كل من استعان به على أمر وسأله إياه ولم يكن عونًا على طاعته كان مبعدًا له عن مرضاته قاطعًا له عنه ولا بد.

وليتأمل العاقل هذا في نفسه وفي غيره، وليعلم أن إجابة الله لسائليه ليست لكرامة السائل عليه بل يسأله عبده الحاجة فيقضيها

له وفيها هلاكه وشقوته ويكون قضاؤها له من هوانه عليه وسقوطه من عينه، ويكون منعه منها لكرامته عليه ومحبته له؛ فيمنعه حماية وصيانة وحفظًا لا بخلاً، وهذا إنما يفعله بعبده الذي يريد كرامته ومحبته ويعامله بلطفه، إنما يكرم من يكرمه بمعرفته ومحبته وطاعته ويهين من يهينه بالإعراض عنه ومعصيته فله الحمد على هذا وعلى هذا وهو الغني الحميد، فعادت سعادة الدنيا والآخرة إلى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

القسم الثالث: من له نوع عبادة بلا استعانة وهؤلاء نوعان:

أحدهما: القدرية القائلون بأنه قد فعل بالعبد جميع مقدوره من الألطاف، وأنه لم يبق في مقدوره إعانة يسأله إياها.

النوع الثاني: من لهم عبادات وأوراد ولكن حظهم ناقص من التوكل والاستعانة لم تتسع قلوبهم لارتباط الأسباب بالقدر فضعفت عزائمهم وقصرت هممهم فَقَلَّ نصيبُهم من (إياك نستعين) ولم يجدوا ذوق التعبد بالتوكل والاستعانة وإن وجدوا ذوقه بالأوراد والأحوال.

القسم الرابع: وهو من شهد تفرد اللَّه بالنفع والضر وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولم يدر مع ما يحبه ويرضاه، فتوكل عليه واستعان به على حظوظه وشهواته وأغراضه وطلبها منه وأنزلها به فقضيت له وأسعف بها سواء كانت أموالًا أو رياسة أو جاهًا عند

الخلق أو أحوالًا وتأثيرًا وقوةً وتمكينًا ولكن لا عاقبة له، فإن المُلْكَ والجاه والمال والحال معطاة للبر والفاجر والمؤمن والكافر.

فالحال من الدنيا كالملك والمال إن أعان صاحبه على طاعة الله ومرضاته وتنفيذ أوامره ألحقه بالملوك العادلين البررة، وإلا فهو وبال على صاحبه ومبعد له عن الله وملحق له بالملوك الظلمة والأغنياء الفجرة.

أصناف الناس في تفضيل العبادات:

الصنف الأول: عندهم أنفع العبادات وأفضلها أشقها على النفوس وأصعبها قالوا: لأنه أبعد الأشياء عن هواها وهو حقيقة التعبد، قالوا: والأجر على قدر المشقة.

الصنف الثاني: قالوا: أفضل العبادات التجرد والزهد في الدنيا والتقلل منها غاية الإمكان، ورأوا الزهد في الدنيا غايةَ كلّ عبادة ورأسها، وأنه أفضل من درجة العلم والعبادة، ورأوا أن المقصود به عكوف القلب على الله وجمع الهمة عليه وتفريغ القلب لمحبته والإنابة إليه والتوكل عليه والاشتغال بمرضاته.

الصنف الثالث: رأوا أن أنفع العبادات وأفضلها ما كان فيه نفع متعد فرأوه أفضل من ذي النفع القاصر فرأوا خدمة الفقراء والاشتغال بمصالح الناس وقضاء حوائجهم ومساعدتهم بالمال والجاه والنفع أفضل واحتجوا بقول النبي ﷺ لعلي بن

أبي طالب ﷺ : «لأن يهدي اللّه بك رجلًا واحدًا خيرٌ لك من حمر النعم»، واحتجوا بقوله: «من دعا إلى هدىً كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيء» واحتجوا بقوله: «إن اللّه وملائكته يصلون على معلمي الناس الخير»، واحتجوا بأن الأنبياء إنما بعثوا بالإحسان إلى الخلق وهدايتهم ونفعهم في معاشهم ومعادهم لم يبعثوا بالخلوات والانقطاع عن الناس والترهب؛ ولهذا أنكر النبي على أولئك النفر الذين هموا بالانقطاع للتعبد وترك مخالطة الناس.

الصنف الرابع: قالوا إن أفضل العبادة العمل على مرضاة الربّ في كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته، فأفضل العبادات في وقت الجهاد الجهادُ وإن آل إلى ترك الأوراد من صلاة الليل وصيام النهار، بل ومن ترك إتمام صلاة الفرض كما في حالة الأمن. والأفضل في وقت حضور الضيف مثلًا القيام بحقه والاشتغال به عن الورد المستحب، وكذلك في أداء حق الزوجة والأهل، والأفضل في أوقات السحر الاشتغال بالصلاة والقرآن والدعاء والذكر والاستغفار، والأفضل في وقت استرشاد الطالب وتعليم الجاهل الإقبال على تعليمه والاشتغال به، والأفضل في أوقات الأذان ترك ما هو فيه من ورده والاشتغال بإجابة المؤذن والأفضل في أوقات الصلوات الخمس الجد

والنصح في إيقاعها على أكمل الوجوه والمبادرة إليها في أول الوقت والخروج إلى الجامع وإن بعد كان أفضل، والأفضل في أوقات ضرورة المحتاج إلى المساعدة بالجاه أو البدن أو المال الاشتغال بمساعدته وإغاثة لهفته وإيثار ذلك على أورادك وخلوتك، والأفضل في وقت قراءة القرآن جمعية القلب والهمة على تدبره وتفهمه حتى كأن اللَّه تعالى يخاطبك به؛ فتجمع قلبك على فهمه وتدبره والعزم على تنفيذ أوامره أعظم من جمعية قلب من جاءه كتاب من السلطان على ذلك، والأفضل في وقت الوقوف بعرفة الاجتهاد في التضرع والدعاء والذكر دون الصوم المضعف عن ذلك، والأفضل في أيام عشر ذي الحجة الإكثار من التعبد لا سيما التكبير والتهليل والتحميد فهو أفضل من الجهاد غير المتعين، والأفضل في العشر الأخير من رمضان لزوم المسجد فيه والخلوة والاعتكاف دون التصدي لمخالطة الناس والاشتغال بهم حتى إنه أفضل من الإقبال على تعليمهم العلم وإقرائهم القرآن عند كثير من العلماء، والأفضل في وقت مرض أخيك المسلم أو موته عيادته وحضور جنازته وتشييعه وتقديم ذلك على خلوتك وجمعيتك، والأفضل في وقت نزول النوازل وأذاة الناس لك أداء واجب الصبر مع خلطتك بهم دون الهرب منهم، فإن المؤمن الذي يخالط الناس ليصبر على أذاهم أفضل من الذي لا يخالطهم ولا يؤذونه،

والأفضل خلطتهم في الخير فهي خير من اعتزالهم فيه واعتزالهم في الشر فهو أفضل من خلطتهم فيه فإن علم أنه إذا خالطهم أزاله أو قلله؛ فخلطتهم حينئذ أفضل من اعتزالهم فالأفضل في كل وقت وحال إيثار مرضاة الله في ذلك الوقت والحال والاشتغال بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه، وهؤلاء هم أهل التعبد المطلق والأصناف قبلهم أهل التعبد المقيد فمتى خرج أحدهم عن النوع الذي تعلق به من العبادة وفارقه يرى نفسه كأنه قد نقص وترك عبادته فهو يعبد الله على وجه واحد وصاحب التعبد المطلق ليس له غرض في تعبد بعينه يؤثره على غيره بل غرضه تتبع مرضاة الله تعالى أين كانت، فمدار تعبده عليها فهو لا يزال متنقلًا في منازل العبودية كلما رفعت له منزلة عمل على سيره إليها، واشتغل بها حتى تلوح له منزلة أخرى، فهذا دأبه في السير حتى ينتهي سيره، فإن رأيت العلماء رأيته معهم، وإن رأيت العباد رأيته معهم، وإن رأيت المجاهدين رأيته معهم، وإن رأيت الذاكرين رأيته معهم، وإن رأيت المتصدقين المحسنين رأيته معهم، وإن رأيت أرباب الجمعية وعكوف القلب على الله رأيته معهم فهذا هو العبد المطلق الذي لم تملكه الرسوم ولم تقيده القيود ولم يكن عمله على مراد نفسه وما فيه لذتها وراحتها من العبادات بل هو على مراد ربه ولو كانت راحة نفسه ولذتها في سواه، فهذا هو المتحقق بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ حقًا القائم بهما صدقًا ملبسه ما

تهيأ ومأكله ما تيسر واشتغاله بما أمر اللَّه به في كل وقت بوقته ومجلسه حيث انتهى به المكان ووجده خاليًا لا تملكه إشارة ولا يتعبده قيد، ولا يستولي عليه رسم حر مجرد، دائر مع الأمر حيث دار يدين بدين الآمر أني توجهت ركائبه، ويدور معه حيث استقلت مضاربه، يأنس به كل محق ويستوحش منه كل مبطل، كالغيث حيث وقع نفع، وكالنخلة لا يسقط ورقها وكلها منفعة حتى شوكها وهو موضع الغلظة منه على المخالفين لأمر اللَّه والغضب إذا انتهكت محارمُ اللَّهِ فهو للَّه وباللَّه ومع اللَّه قد صحب اللَّه بلا خلق وصحب الناس بلا نفس بل إذا كان مع اللَّه عزل الخلائق عن البين وتخلى عنهم وإذا كان مع خلقه عزل نفسه من الوسط وتخلى عنها فواها له ما أغربه بين الناس! وما أشد وحشته منهم! وما أعظم أنسه باللَّه وفرحه به وطمأنينته وسكونه إليه! واللَّه المستعان وعليه التكلان.

مسائل في قوله تعالى:

﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾

المسألة الأولى: كل مؤمن مأمور بهذا الدعاء أمرا لازما لا يقوم غيره مقامه ولا بد منه وهذا إنما نسأله في الصلاة بعد هدايته. فما وجه السؤال لأمر حاصل؟ وكيف يطلب تحصيل الحاصل؟

الجواب: المراد بذلك التثبيت ودوام الهداية، واعلم أن العبد لا

يحصل له الهدى التامُ المطلوب إلا بعد سبعة أمور هو محتاج إليها حاجة لا غنى له عنها:

١- معرفته في جميع ما يأتيه ويذره بكونه محبوبًا للربّ تعالى مرضيًا له فيؤثره وكونه مغضوبًا له مسخوطًا عليه؛ فيجتنبه فإن نقص من هذا العلم والمعرفة شيء نقص من الهداية التامة بحسبه.

٢- أن يكون مريدُ الجميع ما يحب اللّه منه أن يفعله عازمًا عليه ومريدًا لترك جميع ما نهى اللّه عازمًا على تركه بعد خطوره بالبال مفصلًا وعازمًا على تركه من حيث الجملة مجملًا فإن نقص من إرادته لذلك شيء نقص من الهدى التام بحسب ما نقص من الإرادة.

٣- أن يكون قائمًا به فعلًا وتركًا فإن نقص من فعله شيء نقص من هداه بحسبه فهذه ثلاثة هي أصول في الهداية ويتبعها ثلاثة هي من تمامها وكمالها.

٤- أمور هدي إليها جملة ولم يهتد إلى تفاصيلها فهو محتاج إلى هداية التفصيل فيها.

٥- أمرو هدي إليها من وجه دون وجه فهو محتاج إلى تمام الهداية فيها لتكمل له هدايتها.

٦- الأمور التي هدي إليها تفصيلًا من جميع وجوهها فهو محتاج إلى الاستمرار إلى الهداية والدوام عليها فهذه أصول

تتعلق بما يعزم على فعله وتركه.

٧- يتعلق بالماضي وهو أمور وقعت منه على غير جهة الاستقامة فهو محتاج إلى تداركها بالتوبة منها وتبديلها بغيرها وإذا كان كذلك فإنما يقال كيف يسأل الهداية وهي موجودة له؟ ثم يجاب عن ذلك بأن المراد التثبيت والدوام عليها

إذا كانت هذه المراتب حاصلة له بالفعل فحينئذ يكون سؤاله الهداية سؤال تثبيت ودوام، فأما إذا كان ما يجهله أضعاف ما يعلمه وما لا يريده من رشده أكثر مما يريده ولا سبيل له إلى فعله إلا بأن يخلق اللَّه فاعلية فيه فالمسئول هو أصل الهداية على الدوام تعليمًا وتوفيقًا وخلقًا للإرادة فيه وإقدارًا له وخلقًا للفاعلية وتثبيتًا له على ذلك؛ فعلم أنه ليس أعظم ضرورة منه إلى سؤال الهداية أصلها وتفصيلها علمًا وعملًا والتثبيت عليها والدوام إلى الممات.

وسرُّ ذلك أن العبد مفتقر إلى الهداية في كل نفس في جميع ما يأتيه ويذره أصلًا وتفصيلًا وتثبيتًا، ومفتقر إلى مزيد العلم بالهدى على الدوام فليس له أنفع ولا هو إلى شيء أحوج من سؤال الهداية، فنسأل اللَّه أن يهدينا الصراط المستقيم وأن يثبت قلوبنا على دينه.

فصل الإتيان بالضمير في قوله: ﴿وَٱهْدِنَآ﴾

المسألة الثانية: ما فائدة الإتيان بضمير الجمع في (اهدنا) والداعي يسأل ربه لنفسه في الصلاة وخارجها ولا يليق به ضمير الجمع، ولهذا يقول: رب اغفر لي وارحمني وتب علي.

الجواب: هذا مطابق لقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] والإتيان بضمير الجمع في الموضعين أحسن وأفخم فإن المقام مقام عبودية وافتقار إلى الرب تعالى وإقرار بالفاقة إلى عبوديته واستعانته وهدايته فأتى به بصيغة ضمير الجمع أي: نحن معاشر عبيدك مقرون لك بالعبودية.

وهذا كما يقول العبد للملك المعظم شأنه: نحن عبيدك ومماليكك وتحت طاعتك ولا نخالف أمرك؛ فيكون هذا أحسن وأعظم موقعًا عند الملك من أن يقول: أنا عبدك ومملوكك ولهذا لو قال أنا وحدي مملوكك استدعى مقته فإذا قال: أنا وكل من في البلد مماليكك وعبيدك وجند لك كان أعظَمَ وأفخمَ؛ لأن ذلك يتضمن أن عبيدك كثير جدًّا وأنا واحد منهم وكلنا مشتركون في عبوديتك والاستعانة بك وطلب الهداية منك؛ فقد تضمن ذلك من الثناء على الرب بسعة مجده وكثرة عبيده وكثرة سائليه الهداية ما لا يتضمنه لفظ الإفراد فتأمله.

وإذا تأملت أدعية القرآن رأيت عامتها على هذا النمط نحو: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ ونحو دعاء آخر البقرة وآخر آل عمران وأولها وهو أكثر أدعية القرآن الكريم[١].

* * *

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٩- ٤١)، وقد بلغت المسائل التي أجاب عنها ابن القيم عشرين مسألة.

٤- رعاية الله لقلب نبيه ﷺ

للشيخ عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ

في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١].

تضمنت هذه الآية التزهيد في الدنيا وأنَّ غضارتها وحسنها الذي متع به المترفين ليس لكرامتهم عليه، وإنما ذلك للابتلاء والاختبار لينظر أيهم أحسن عملًا وأيهم أكمل عقلًا، فإن العاقل هو الذي يؤثر النفيس الباقي على الدَّني الفاني، ولهذا قال: ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ﴾.

أي: الذي أعده للطائعين الذين لم يذهبوا مع أهل الإتراف في إترافهم ولم يغرهم رونق الدنيا وبهجتها الزائلة بل نظروا إلى باطن ذلك حين نظر الجهال إلى ظاهرها وعرفوا المقصود ومقدار التفاوت ودرجات الأمور فرزقُ الله لهولاء خيرٌ وأبقى أي: أكمل في كل صنف من أصناف الكمال وهو مع ذلك باقي لايزول. وأما ما متَّع به أهل الدنيا فزهرة الحياة الدنيا تمرُّ سريعًا وتذهب جميعًا، ولهذا نهى الله رسوله أن يمد عينيه إلى ما متع به هؤلاء ومد العين هو التطلع والتشرف لذلك لامجرد نظر العين وإنما هو نظر القلب؛ ولهذا لم يقل ولاتنظر عيناك إلى

مامتعنا به أزوجًا (الآية)، فمد العين متضمن لاستحسان القلب وتطلعه إلى ذلك. ومثل ذلك قوله: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ [الكهف: ٢٨] فهذه الآية بينت المراد من تلك الآية وأن نظر العين المقرون بإرادة زينة الحياة الدنيا، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٧ - ٨٨] فنبه الله تعالى على الاغتباط بما آتاه الله من المثاني والقرآن العظيم ومنَّ عليه بذلك، وإنه الخير والفضل والرحمة الذي يحق الفرح والسرور به، فإن ذلك خير مما يجمع أهل الدنيا ويتمتعون به، وإنما الذين ينظرون ويغبطون هم المؤمنين الذين لم يغتروا بما اغتر به المعرضون فلهذا قال: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾(١).

* * *

(١) المواهب الربانية (ص ٦٣).

٥- قصة إبراهيم عليه السلام

لابن القيم رحمه الله

إن قلت: كيف تدبر القرآن وتفهمه والإشراف على عجائبه وكنوزه؟ وهذه تفاسير الأئمة بأيدينا، فهل في البيان غير ما ذكروه؟

قلت: سأضرب لك أمثالاً تحتذي عليها وتجعلها إمامًا لك في هذا المقصد، قال اللّه تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾. فعهدي بك إذا قرأت هذه الآية وتطلعت إلى معناها وتدبرتها فإنما تطلع منها على أن الملائكة أتوا إبراهيم في صورة الأضياف يأكلون ويشربون وبشروه بغلام عليم، وإنما امرأته عجبت من ذلك فأخبرتها الملائكة أن اللّه قال ذلك، ولم يتجاوز تدبرك غير ذلك. فاسمع الآن بعض ما في هذه الآيات من أنواع الأسرار، وكم قد تضمنت من الثناء على إبراهيم وكيف جمعت الضيافة وحقوقها، وما تضمنت من الرد على

أهل الباطل من الفلاسفة والمعطلة، وكيف تضمنت عَلمًا عظيمًا من أعلام النبوة، وكيف تضمنت جميع صفات الكمال التي ردها إلى العلم والحكمة، وكيف تضمنت الأخبار عن عدل الرب وانتقامه من الأمم المكذبة، وتضمنت ذكر الإسلام والإيمان والفرق بينهما، وتضمنت بقاء آيات الرب الدالة على توحيده وصدق رسله وعلى اليوم الآخر، وتضمنت أنه لا ينتفع بهذا كلّه إلا من في قلبه خوف من عذاب الآخرة وهم المؤمنون بها، وأما من لا يخاف الآخرة ولا يؤمن بها فلا ينتفع بتلك الآيات، فاسمع الآن بعض تفاصيل هذه الجملة: قال اللَّه تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ افتتح سبحانه القصة بصيغة موضوعة للاستفهام، وليس المراد بها حقيقة الاستفهام، ولهذا قال بعض الناس: إن (هل) في مثل هذا الموضع بمعنى (قد) التي تقتضي التحقيق، ولكن في ورود الكلام في مثل هذا بصيغة الاستفهام سرٌّ لطيف، ومعنى بديع، فإن المتكلم إذا أراد أن يخبر المخاطب بأمر عجيب ينبغي الاعتناء به، وإحضار الذهن له صدر له الكلام بأداة الاستفهام لتنبيه سمعه وذهنه للمخبر به، فتارة يصدره بـ(ألا)، وتارة يصدره بـ(هل)، فقول: هل علمت ما كان من كيت وكيت؟ إما مذكرًا

به، وإما واعظًا له مخوفا، وإما منبها على عظمة ما يخبر به، وإما مقررًا له، فقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ و﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾ و﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ﴾ و﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ متضمن لتعظيم هذه القصص، والتنبيه على تدبرها ومعرفتها ما تضمنته.

ففيه أمر آخر: وهو التنبيه على أن إتيان هذا إليك عَلَمٌ من أعلام النبوة فإنه من الغيب الذي لا تعمله أنت ولا قومك فهل أتاك من غير إعلامنا وإرسالنا وتعريفنا؟ أم لم يأتك إلا من قِبَلنا؟

فانظر ظهور هذا الكلام بصيغة الاستفهام، وتأمل عظم موقعه من جميع موارده يشهد أنه من الفصاحة في ذروتها العليا.

وقوله: ﴿ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ متضمن لثنائه على خليله إبراهيم فإن في المكرمين قولين:

أحدهما: إكرام إبراهيم لهم ففيه مدح إبراهيم بإكرام الضيف.

والثاني: أنهم مكرمون عند اللَّه كقوله تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ وهو متضمن أيضًا لتعظيم خليله ومدحه، إذ جعل ملائكته المكرمين أضيافًا له، فعلى كلا التقديرين فيه مدح لإبراهيم. وقوله: ﴿فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ﴾ متضمن بمدح آخر لإبراهيم حيث رد عليهم السلام أحسن مما حيوه به، فإن تحيتهم باسم منصوب متضمن لجملة فعلية تقديره: سلمنا عليك

سلامًا، وتحية إبراهيم لهم باسم مرفوع متضمن لجملة اسمية تقديره سلام دائم أو ثابت أو مستقر عليكم، ولا ريب أن الجملة الاسمية تقتضي الثبوت واللزوم، والفعلية تقتضي التجدد والحدوث؛ فكانت تحية إبراهيم أكملَ وأحسنَ. ثم قال ﴿قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ﴾ وفي هذا من حسن مخاطبة الضيف والتذمم منه وجهان في المدح:

إحداهما: أنه حذف المبتدأ والتقدير: أنتم قوم منكرون، فتذمم منهم ولم يواجههم بهذا الخطاب لما فيه من الاستيحاش.

وكان النبي ﷺ لا يواجه أحدًا بما يكرهه بل يقول: «وما بال أقوام يقولون كذا ويفعلون كذا».

الثاني: قوله ﴿قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ﴾ فحذف فاعل الإنكار وهو الذي كان أنكرهم كما قال في موضع آخر (نكرهم) ولا ريب أن قوله (منكرون) ألطف من أن يقول: أنكرتكم.

وقوله: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ متضمن وجوهًا من المدح وآداب الضيافة وإكرام الضيف. منها قوله: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ﴾ والروغان الذهاب بسرعة واختفاء وهو يتضمن المبادرة إلى إكرام الضيف، والاختفاء يتضمن ترك تخجيله وألا يعرض للحياء، وهذا بخلاف من يتثاقل ويتبارد على ضيفه ثم يبرز بمرأى منه ويحل صرة النفقة

ويزن ما يأخذ، ويتناول الإناء بمرأى منه ونحو ذلك مما يتضمن تخجيل الضيف وحياءه فلفظة (راغ) تنفي هذين الأمرين. وفي قوله تعالى: ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ مدح آخر لما فيه من الإشعار أن كرامة الضيف معدة حاصلة عند أهله، وأنه لا يحتاج أن يستقرض من جيرانه، ولا يذهب إلى غير أهله إذ قري الضيف حاصل عندهم.

وقوله: ﴿فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ يتضمن ثلاثة أنواع من المدح:

أحدها: خدمة ضيفه بنفسه فإنه لم يرسل به وإنما جاء به بنفسه.

الثاني: أنه جاءهم بحيوان تامٌ لم يأتهم ببعضه. ليتخيروا من أطيب لحمه ما شاءوا.

الثالث: أنه سمين ليس بمهزول، وهذا من نفائس الأموال، ولد البقر السمين فإنهم يعجبون به، فمن كرمه هان عليه ذبحه وإحضاره. وقوله: ﴿إِلَيْهِمْ﴾ متضمن المدح وآدابًا أخرى وهو إحضار الطعام بين يدي الضيف، بخلاف من يهيئ الطعام في موضع ثم يقيم ضيفه فيورده عليه.

وقوله: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ فيه مدح وآداب أُخَر، فإنه عرض عليهم الأكل بقوله: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ وهذه صيغة عرض مؤذنة بالتلطف بخلاف من يقول: ضعوا أيديكم في الطعام، كلوا، تقدموا، ونحو هذا. وقوله: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾؛ لأنه لما رآهم لا

يأكلون من طعامه أضمر منهم خوفًا أن يكون معهم شر، فإن الضيف إذا أكل من طعام ربِّ المنزل اطمأن إليه وأنس به، فلما علموا منه ذلك قالوا: ﴿لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ وهذا الغلام إسحق لا إسماعيل؛ لأن امرأته عجبت من ذلك فقالت: عجوز عقيم، لا يولد لمثلي، فأنَّى لي بالولد؟ وأما إسماعيل فإنه من سريته هاجر وكان بكره وأول ولده. وقد بين سبحانه هذا في سورة هود في قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ وهذه هي القصة نفسها. وقوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ فيه بيان ضعف عقل المرأة وعدم ثباتها، إذ بادرت إلى الندبة فصكت الوجه عند هذا الإخبار. وقوله: ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ فيه حسن أدب المرأة عند خطاب الرجال واقتصارها من الكلام على ما يتأدى به الحاجة، فإنها حذفت المبتدأ ولم تقل أنا عجوز عقيم، واقتصرت على ذكر السبب الدال على عدم الولادة لم تذكر غيره، وأما في سورة هود فذكرت السبب المانع منها ومن إبراهيم وصرحت بالعجب.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ متضمن لإثبات صفة القول له. وقوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ متضمن لإثبات صفة الحكمة والعلم اللذين هما مصدر الخلق والأمر، فجميع

ما خلقه سبحانه صادر عن علمه وحكمته، وكذلك أمره وشرعه مصدره عن علمه وحكمته.

والعلم والحكمة متضمنان لجميع صفات الكمال، فالعلم يتضمن الحياة ولوازم كمالها من القيومية والقدرة والبقاء والسمع والبصر وسائر الصفات التي يستلزمها العلم التام، والحكمة تتضمن كمال الإرادة والعدل والرحمة والإحسان والجود والبر، ووضع الأشياء في مواضعها على أحسن وجوهها، ويتضمن إرسال وإثبات الثواب والعقاب.

كلُّ هذا العلم من اسمه الحكيم كما هي طريقة القرآن في الاستدلال على هذه المطالب العظيمة بصفة الحكمة، والإنكار على من يزعم أنه خلق الخلق عبثًا وسُدى وباطلاً فحينئذ صفة حكمته تتضمن الشرع والقدر والثواب والعقاب، ولهذا كان أصحُّ القولين أن المعاد يعلم بالعقل وأن السمع ورد بتفصيل ما يدل العقل على إثباته.

ومن تأمل طريقة القرآن وجدها دالة على ذلك، وأنه سبحانه يضرب لهم الأمثال المعقولة التي تدل على إمكان المعاد تارة ووقوعه أخرى، فيذكر أدلة القدرة الدالة على إمكان المعاد وأدلة الحكمة المستلزمة لوقوعه.

ومن تأمل أدلة المعاد في القرآن وجدها كذلك مغنية بحمد الله

عن غيرها، كافية شافية موصلة إلى المطلوب بسرعة، متضمنة للجواب عن الشُّبه العارضة لكثير من الناس. وإن ساعد التوفيق كتبت في ذلك سفرًا كبيرًا لما رأيت في الأدلة التي أرشد إليها القرآن من الشقاء والهدى وسرعة الإنصاف، وحسن البيان، والتنبيه على مواضع الشبه والجواب عنها بما ينثلج له الصدر ويكثر معه اليقين، بخلاف غيره من الأدلة فإنها على العكس من ذلك وليس هذا موضع التفصيل.

والمقصود: أن صدور الخلق والأمر عن علم الرب وحكمته. واختصت هذه القصة بذكر هذين الاسمين لاقتضائهما لتعجب النفوس من تولد مولود بين أبوين لا يولد لمثلهما عادة، وخفاء العلم بسبب هذا الإيلاد وكون الحكمة اقتضت جريان هذه الولادة على غير العادة المعروفة فذكر في الآية اسم العلم والحكمة المتضمن لعلمه سبحانه بسبب هذا الخلق وغايته وحكمته في وضعه موضعه من غير إخلال بموجب الحكمة...

والمقصود بهذا إنما هو التنبيه والتمثيل على تفاوت الأفهام في معرفة القرآن واستنباط أسراره وآثار كنوزه ويعتبر بهذا غيره، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء[١].

(١) الرسالة التبوكية (٢).

٧- أسرار لطف اللَّه في الحياة

للعلامة عبد الرحمن السعدي

لطف اللَّه بعبده الذي تتعلق به آمال العباد، ويسألونه من ربهم، وهو أحد معنيي مقتضى اسمه اللطيف، فإن اللطيف بمعنى الخبير العليم قد تقرر معناه، ولكن المطلوب هنا المعنى الثاني الذي يضطر إليه العباد، ولنذكر بعض أمثلته وأنواعه ليتضح.

فاعلم أن اللطف الذي يطلبه العباد من اللَّه بلسان المقال ولسان الحال هو من الرحمة بل هو رحمة خاصة، فالرحمة التي تصل من حيث لا يشعر بها أو لا يشعر بأسبابها هي اللطف.

فإذا قال العبد: يا لطيف ألطف بي أو لي وأسألك لطفك، فمعناه: تولني ولاية خاصة بها تصلح أحوالي الظاهرة والباطنة، وبها تندفع عني جميع المكروهات من الأمور الداخلية والخارجية، فالأمور الداخلية لطف بالعبد، والأمور الخارجية لطف للعبد. فإذا يسر اللَّه عبده وسهل له طريق الخير وأعانه عليه فقد لطف به. وإذا قيض له أسبابًا خارجية غير داخلة تحت قدرة العبد فيها صلاحه فقد لطف له. ولهذا لما تنقلت بيوسف عليه السلام تلك الأحوال وتطورت به الأطوار من رؤياه وحسد إخوته له وسعيهم في إبعاده جدًا واختصاصهم بأبيهم ثم محنته بالنسوة

ثم بالسجن ثم بالخروج منه بسبب رؤيا الملك العظيمة وانفراده بتعبيرها وتبوءه من الأرض حيث يشاء وحصول ما حصل على أبيه من الابتلاء والامتحان ثم حصل بعد ذلك الاجتماع السار وإزالة الأكدار وصلاح حالة الجميع والاجتباء العظيم ليوسف، عرف عليه الصلاة والسلام أن هذه الأشياء وغيرها لُطْفٌ لَطَفَ اللَّه لهم به فاعترف بهذه النعمة فقال: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ أي: لطفه تعالى خاص لمن يشاء من عباده ممن يعلمه تعالى محلاً لذلك وأهلاً له فلا يضعه إلا في محله.

واللَّه أعلم حيث يضع فضله، فإذا رأيت اللَّه تعالى قد يسر العبد لليسرى وسهَّل له طريق الخير وذلل له صعابه وفتح له أبوابه ونهج له طرقه ومهد له أسبابه وجنبه العسرى فقد لطف به.

ومن لطفه بعباده المؤمنين أنه يتولاهم بلطفه فيخرجهم من الظلمات إلى النور من ظلمات الجهل والكفر والبدع والمعاصي إلى نور العلم والإيمان والطاعة.

ومن لطفه أنه يرحمهم من طاعة أنفسهم الأمارة بالسوء التي هذا طبعها وديدنها فيوفقهم لنهي النفس عن الهوى ويصرف عنهم السوء والفحشاء فتوجد أسباب الفتنه وجواذب المعاصي وشهوات الغي فيرسل اللَّه عليها برهان لطفه ونور أيمانهم الذي

مَنَّ به عليهم مطمئنين لذلك منشرحة لتركها صدورهم.

ومن لطفه بعباده أنه يقدر أرزاقهم بحسب علمه بمصلحتهم لا بحسب مراداتهم فقد يريدون شيئًا وغيره أصلح فيقدر لهم الأصلح وإن كرهوه لطفًا بهم وبرًا وإحسانًا ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ﴾ [الشورى: ١٩]. ﴿وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾ [الشورى: ٢٧].

ومن لطفه بهم أنه يقدر عليهم أنواع المصائب وضروب المحن والابتلاء بالأمر والنهي الشاق رحمة بهم ولطفًا وسوقًا إلي كمالهم وكمال نعيمهم ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

ومن لطيف لطفه بعبده إذ أهّله للمراتب العالية والمنازل السامية التي لا تدرك بالأسباب العظام التي لا يدركها إلا أرباب الهمم العالية والعزائم السامية أن يقدر له في ابتداء أمره بعض الأسباب المحتملة المناسبة للأسباب التي أُهّلَ لها ليتدرج من الأدنى إلى الأعلى ولتتمرن نفسه ويصير له ملكة من جنس ذلك الأمر، وهذا كما قدر لموسى ومحمد وغيرهما من الأنبياء صلوات اللّه وسلامه عليهم في ابتداء أمرهم رعاية الغنم ليتدرجوا من رعاية الحيوان البهيم وإصلاحه إلي رعاية بني آدم ودعوتهم

وإصلاحهم وكذلك يذيق عبده حلاوة بعض الطاعات فينجذب ويرغب ويصير له ملكة قوية بعد ذلك على الطاعات أجلّ منها وأعلى ولم تكن تحصل بتلك الإرادة السابقة حتى وصل إلى هذه الإرادة والرغبة التامة.

ومن لطفه بعبده أن يقدر له أن يتربى في ولاية أهل الصلاة والعلم والإيمان وبين أهل الخير ليكتسب من أدبهم وتأديبهم ولينشأ على صلاحهم وإصلاحهم، كما امتن اللَّه على مريم في قوله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ﴾ [آل عمران: ٣٧] إلى آخر قصتها.

ومن ذلك إذا نشأ بين أبوين صالحين وأقارب أتقياء أو في بلد صلاح أو وفقه اللَّه لمقارنة أهل الخير وصحبتهم أو لتربية العلماء الربانيين فإن هذا من أعظم لطفه بعبده فإن صلاح العبد موقوف على أسباب كثيرة منها بل من أكثرها وأعظمها نفعًا هذه الحالة.

ومن ذلك إذا نشأ العبد في بلد أهله على مذهب أهل السنة والجماعة فإن هذا لطف له، وكذلك إذا قدر اللَّه أن يكون مشائخه الذين يستفيد منهم الأحياء منهم والأموات أهل سنة وتقى فإن هذا من اللطف الرباني.

ولا يخفى لطف الباري في وجود شيخ الإسلام ابن تيمية رحمة

اللَّه في أثناء قرون هذه الأمة وتبيين اللَّه به وبتلامذته من الخير الكثير والعلم الغزير وجهاد أهل البدع والتعطيل والكفر، ثم انتشار كتبه في هذه الأوقات، فلا شك أن هذا من لطف اللَّه لمن انتفع بها وأنه يتوقف خير كثير على وجودها فللَّه الحمد والمنة والفضل.

ومن لطف اللَّه بعبده أن يجعل رزقه حلالاً في راحة وقناعة يحصل به المقصود ولا يشغله عما خلق له من العبادة والعلم به يعينه على ذلك ويفرغه ويريح خاطره وأعضاءه؛ ولهذا من لطف اللَّه تعالى لعبده أنه ربما طمحت نفسه لسبب من الأسباب الدنيوية التي يظن فيها إدراك بغيته فيعلم اللَّه تعالى أنها تضره وتصده عما ينفعه فيحول بينه وبينها فيظل العبد كارهًا ولم يدر أن ربه قد لطف به حيث أبقى له الأمر النافع وصرف عنه الأمر الضار ولهذا كان الرضى بالقضاء في مثل هذه الأشياء من أعلى المنازل.

ومن لطف اللَّه لعبده إذا قدر له طاعة جليلة لا تنال إلا بأعوان أن يقدر له أعوانًا عليها ومساعدين على حملها قال موسى عليه السلام: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ﴿٣١﴾ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ﴿٣٢﴾ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا﴾ [طه: ٢٩].

وكذلك امتن على عيسى بقوله: ﴿وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ

ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١].
وامتن على سيد الخلق في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢]. وهذا لطف لعبده خارج عن قدرته.

ومن هذا لطف الله بالهادين إذا قيض الله من يهتدي بهداهم ويقبل إرشادهم فتتضاعف بذلك الخيرات والأجور التي لا يدركها العبد بمجرد فعله بل هي مشروطة بأمر خارجي.

ومن لطف الله بعبده أن يعطي عبده من الأولاد والأموال والأزواج ما به تقر عينه في الدنيا ويحصل له به السرور ثم يبتليه ببعض ذلك ويأخذه ويعوضه عليه الأجر وإذا صبر واحتسب، فنعمة الله عليه بأخذه على هذا الوجه أعظم من نعمته عليه في وجوده وقضاء مجرد وطره الدنيوي منه، وهذا أيضًا خير وأجر خارج عن أحوال العبد بنفسه بل هو لطف من الله له قيض له أسبابًا أعاضه عليها الثواب الجزيل والأجر الجميل.

ومن لطف الله بعبده أن يبتليه ببعض المصائب، فيوفقه للقيام بوظيفة الصبر فيها فينيله درجات عاليه لا يدركها بعمله وقد يشدد عليه الابتلاء بذلك كما فعل بأيوب عليه السلام ويوجد في قلبه حلاوة روح الرجاء وتأميل الرحمة وكشف الضر فيخف ألمه وتنشط نفسه، ولهذا من لطف الله بالمؤمنين أن جعل في قلوبهم احتساب الأجر فخفت مصائبهم وهان ما يلقون من

المشاق في حصول مرضاته.

ومن لطف اللّه بعبده المؤمن الضعيف أن يعافيه من أسباب الابتلاء التي تضعف إيمانه وتنقض إيقانه.

كما أن من لطفه بالمؤمن القوي تهيئة أسباب الابتلاء والامتحان ويعينه عليها ويحملها عنه ويزداد بذلك إيمانه ويعظم أجره فسبحان اللطيف في ابتلائه وعافيه وعطائه ومنعه.

ومن لطف اللّه لعبده أن يسعى لكمال نفسه مع أقرب طريق ويصله إلى ذلك مع وجود غيرها من الطرق التي تبعد عليه فييسر عليه التعلم من كتاب أو معلم يكون حصول المقصود به أقرب وأسهل، وكذلك ييسره لعباده يفعلها بحالة اليسر والسهولة وعدم التعويق عن غيرها مما ينفعه فهذا من اللطف.

ومن لطف اللّه بعبده قدّر الواردات الكثيرة والأشغال المتنوعة والتدبيرات والتعلقات الداخلية والخارجية التي لو قسمت على أمة من الناس لعجزت قواهم عليها أن يمنّ عليه بخلق واسع وصدر متسع وقلب منشرح بحيث يعطى كل فرد من أفرادها نظرًا ثاقبًا وتدبيرًا تامًا وهو غير مكترث ولا منزعج لكثرتها وتفاوتها، بل قد أعانه اللّه تعالى عليها ولطف به فيها ولطف له في تسهيل أسبابها وطرقها. وإذا أردت أن تعرف هذا الأمر فانظر إلى حالة المصطفى ﷺ الذي بعثه اللّه بصلاح الدارين

وحصول السعادتين وبعثه مكملاً لأمة عظيمة هي خير الأمم ومع هذا مكنه اللَّه ببعض عمره الشريف في نحو ثلث عمره أن يقوم بأمر اللَّه كله على كثرته وتنوعه، وأن يقوم لأمته جميع دينهم ويعلمهم جميع أصوله وفروعه ويخرج اللَّه به أمة كبيرة من الظلمات إلى النور ويحصل به من المصالح والمنافع والخير والسعادة للخاص والعام ما لا تقوم به أمة من الخلق.

ومن لطف اللَّه تعالى بعبده أن يجعل ما يبتليه به من المعاصي سببًا لرحمته فيفتح له عند وقوع ذلك باب التوبة والتضرع والابتهال إلى ربه وازدراء نفسه واحتقارها وزوال العُجْبِ والكبر من قلبه ما هو خير له من كثير من الطاعات.

ومن لطفه بعبده الحبيب عنده إذا مالت نفسه مع شهوات النفس الضارة واسترسلت في ذلك أن ينقصها عليه ويكدرها فلا يكاد يتناول منها شيئًا إلا مقرونًا بالمكدرات محشوًا بالغُصَصِ لئلا يميل معها كلَّ الميل، كما أن من لطفه به أن يلذِّذ له التقربات ويحلي له الطاعات ليميل إليها كلَّ الميل.

ومن لطيف لطف اللَّه بعبده أن يأجره على أعمال لم يعملها بل عزم عليها فيعزم على قربة من القرب ثم تنحل عزيمته لسبب من الأسباب فلا يفعلها فيحصل له أجرها، فانظر كيف لطف اللَّه به فأوقعها في قلبه وأدارها في ضميره، وقد علم تعالى أنه لا

يفعلها سوقًا لبرّه لعبده وإحسانه بكل طريق، وألطف من ذلك أن يقُيّض لعبده طاعة أخرى غير التي عزم عليها هي أنفع له منها؛ فيدع العبد الطاعة التي ترضى ربه طاعة أخرى هي أرضى للّه منها فتحصل له المفعولة بالفعل والمعزوم عليها بالنية، وإذا كان من يهاجر إلى اللّه ورسوله ثم يدركه الموت قبل حصول مقصوده قد وقع أجره على اللّه مع أن قطع الموت بغير اختياره، فكيف بمن قطعت عليه نيته الفاضلة طاعة قد عزم على فعلها؟! وربما أدار اللّه في ضمير عبده عدَّة طاعات كل طاعة لو انفردت لفعلها العبد لكمال رغبته ولا يمكن فعل شيء منها إلا بتفويت الأخرى فيوفقه للموازنة بينها وإيثار أفضلها فعلًا، مع رجاء حصولها جميعها عزمًا ونيةً.

ومن لطف اللّه بعبده أن يقَدِّر خيرًا وإحسانًا من عبده ويجريه على يد عبده الآخر، ويجعله طريقًا إلى وصوله للمستحق فيثيب اللّه الأول والآخر.

ومن لطف اللّه بعبده أن يجري بشيء من ماله شيئًا من النفع وخيرًا لغيره فيثيبه من حيث لا يحتسب، فمن غرس غرسًا أو زرع زرعًا فأصابت منه روح من الأرواح المحترمة شيئًا آجر اللّه صاحبه وهو لا يدرى خصوصًا إذا كانت عنده نية حسنة وعقد مع ربه عقدًا في أنه مهما ترتب على ماله شيء من النفع فأسألك

يارب أن تأجرني وتجعله قربة لي عندك؛ وكذلك لو كان له بهائم انتفعَ بدرها وركوبها والحمل عليها، أو مساكن انتفعَ بسكناها ولو شيئًا قليلاً، أو ماعون ونحوه انتفعَ به أو عين شرب منها وغير ذلك ككتاب انتفع في تعلم شيء منه أو مصحف قرأ فيه واللَّه ذو الفضل العظيم.

ومن لطف اللَّه بعبده أن يفتح له بابا من أبواب الخير لم يكن له على بال وليس ذلك لقلة رغبةٍ فيه وإنما هو غفلة منه وذهول عن ذلك الطريق فلم يشعر إلا وقد وجد في قلبه الداعي إليه والملفت إليه؛ ففرح بذلك وعرف إنها من ألطاف سيده وطرقه التي قيض وصولها إليه فصرف لها ضميره ووجه إليها فكره وأدرك منها ما شاء اللَّه وفتح(١).

* * *

(١) المواهب الربانية من الآيات القرآنية، (ص ١٤٦).

٨- حقيقة الانتصار

لفضيلة الشيخ ناصر العمر حفظه الله

قال الله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٤-٨].

قصة أصحاب الأخدود قصة عجيبة، تصور لنا معنى من معاني الانتصار الذي نتحدث عنه، وتبين أن استجابة الناس، أو ظهور الدين ليس هو المقياس الوحيد للانتصار، بل إن ثبات الداعية وانتصار المنهج هو قمة الانتصار. ولأهمية هذه القصة، فسأذكرها بتمامها، كما أوردها العلامة ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث قال في تفسير هذه الآيات: عن صهيب أن رسول الله، ﷺ قال: «كان فيمن كان قبلكم ملك وكان له ساحر، فلما كبر الساحر قال للملك: إني قد كبر سني، وحضر أجلي، فادفع إلي غلامًا لأعلمه السحر، فدفع إليه غلامًا كان يعلمه السحر، وكان بين الساحر وبين الملك راهبٌ، فأتى الغلام على الراهب فسمع من كلامه فأعجبه نحوه وكلامه، وكان إذا أتى الساحر ضربه وقال: ما حبسُك؟ وإذا أتى أهله ضربوه، وقالوا: ما حبسك؟ فشكا ذلك إلى الراهب، فقال: إذا أراد الساحر أن يضربك فقل:

حبسني أهلي، وإذا أراد أهلك أن يضربوك فقل: حبسني الساحر، فبينما هو ذات يوم إذ أتى على دابة فظيعة عظيمة قد حبست الناس فلا يستطيعون أن يجوزوا، فقال: اليوم أعلم أمر الراهب أحب إلى الله أم أمر الساحر، قال: فأخذ حجرًا، فقال: اللَّهم إن كان أمر الراهب أحب إليك وأرضى من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يجوز الناس، ورماها فقتلها، ومضى الناس، فأخبر الراهب بذلك، فقال: أي بني أنت أفضل مني وإنك ستبتلى، فإن ابتليت فلا تدل علي.

فكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص وسائر الأدواء ويشفيهم وكان للملك جليس فعمي، فسمع به فأتاه بهدايا كثيرة، فقال: اشفني، فقال ما أنا أشفي أحدًا، إنما يشفي الله عز وجل فإن آمنت به دعوت الله فشفاك، فآمن فدعا الله فشفاه، ثم أتى الملك فجلس منه نحو ما كان يجلس، فقال له الملك: يا فلان، من رد عليك بصرك؟ فقال: ربي. فقال: أنا؟ قال: لا، ربي وربك الله، قال: أولك ربٌّ غيري؟ قال: نعم، ربي وربك الله، فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام، فبعث إليه فقال: أي بني: بلغ من سحرك أن تبرئ الأكمه والأبرص، وهذه الأدواء؟ قال: ما أشفي أحدًا، إنما يشفي الله عزَّ وجل قال: أنا؟ قال: لا، قال: ولك ربٌّ غيري؟ قال: ربي وربُك الله، فأخذه -

أيضا- بالعذاب فلم يزل به حتى دل على الراهب، فأتى بالراهب، فقال ارجع عن دينك، فأبى فوضع المنشار في مفرق رأسه حتى وقع شقاه، وقال للأعمى: ارجع عن دينك، فأبى، فوضع المنشار في مفرق رأسه حتى وقع شقاه إلى الأرض، وقال للغلام: ارجع عن دينك، فأبى، فبعث به مع نفر إلى جبل كذا وكذا، فقال: إذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فدهدهوه، فذهبوا به، فلما علوا به الجبل قال: اللَّهم أكفنيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل فدهدهوا أجمعون. وجاء الغلام يتلمس حتى دخل على الملك فقال: ما فعل أصحابك، فقال: كفانيهم اللَّه تعالى فبعث به مع نفر في قرقور، فقال: إذا لججتم به البحر فإن رجع عن دينه وإلا فغرقوه في البحر، فلججوا به البحر، فقال الغلام: اللَّهم أكفنيهم بما شئت، فغرقوا أجمعون، وجاء الغلام حتى دخل على الملك، فقال: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم اللَّه تعالى ثم قال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به، فإن أنت فعلت ما آمرك به قتلتني، وإلا فإنك لا تستطيع قتلي، قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد، ثم تصلبني على جذع وتأخذ سهمًا من كنانتي، ثم قل: بسم اللَّه ربِّ الغلام، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني، ففعل ووضع السهم في كبد قوسه، ثم رماه، وقال: بسم اللَّه ربِّ الغلام،

فوقع السهم في صدغه، فوضع الغلام يده على موضع السهم ومات، فقال الناس: آمنا برب الغلام.

فقيل للملك: أرأيت ما كنت تحذر؟ فقد والله نزل بك، قد آمن الناس كلُّهم، فأمر بأفواه السكك فخدد فيها الأخاديد، وأضرمت فيها النيران، وقال: من رجع عن دينه فدعوه، وإلا فأقحموه فيها، قال: فكانوا يتعادون ويتدافعون، فجاءت امرأة بابن لها ترضعه، فكأنما تقاعست أن تقع في النار، فقال الصبي: اصبري يا أماه فإنك على الحق»[١].

والمتأمل في هذه القصة يبدو له في حساب الأرض أن الطغيان قد انتصر على الإيمان، وأن هذا الإيمان الذي بلغ تلك الذروة العالية، في نفوس الفئة الخيرة الكريمة الثابتة المستعلية، لم يكن له وزن ولا حساب في المعركة التي دارت بين الإيمان والطغيان. في حساب الأرض تبدو هذه الخاتمة أسيفة أليمة. حساب الأرض يحيك في الصدر شيئًا أمام هذه الخاتمة الأسيفة. ولكن القرآن يعلم المؤمنين شيئًا آخر، ويكشف لهم عن حقيقة أخرى. إن الحياة وسائر ما يلابسها من لذائذ وآلام، ومن متاع وحرمان، ليست هي القيمة الكبرى في الميزان،

---

(١) رواه مسلم (٣٠٠٥).

وليست هي السلعة التي تقرر حساب الربح والخسارة، والنصر ليس مقصورًا على الغلبة الظاهرة، فهذه صورة واحدة من صور النصر الكثيرة. إن الناس جميعًا يموتون، وتختلف الأسباب، ولكن الناس لا ينتصرون - جميعًا - هذا الانتصار، ولا يرتفعون هذا الارتفاع، ولا يتحررون هذا التحرر، ولا ينطلقون هذا الانطلاق إلى هذه الآفاق، إنما هو اختيار اللَّه وتكريمه لفئة كريمة من عباده، تشارك الناس في الموت، وتنفرد دون كثير من الناس في المجد، المجد في الملأ الأعلى، وفي دنيا الناس أيضًا إذا نحن وضعنا في الحساب نظرة الأجيال بعد الأجيال.

لقد كان في استطاعة المؤمنين أن ينجوا بحياتهم في مقابل الهزيمة لإيمانهم، ولكن كم كانوا يخسرون أنفسهم، وكم كانت البشرية كلها تخسر، كم كانوا يخسرون وهم يقتلون هذا المعنى الكبير، معنى زهادة الحياة بلا عقيدة، وبشاعتها بلا حرية، وانحطاطها حين يسيطر الطغاة على الأرواح، بعد سيطرتهم على الأجساد. ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨]. حقيقة ينبغي أن يتأملها المؤمنون الداعون إلى اللَّه، في كلِّ أرض، وفي كل جيل. إن المعركة بين المؤمنين وخصومهم هي في صميمها معركة عقيدة، وليست شيئًا آخر على الإطلاق وإن خصومهم لا ينقمون منهم إلا الإيمان، ولا يسخطون منهم إلا العقيدة.

وبعد فهذه عدة وقفات مع هذه القصة:

١- ثبات الراهب والأعمى، وتخلي الأعمى عن جميع متع الحياة الدنيا في مقابل أن يظفر بعقيدته، إن الراهب قد انتصر في معركة بقائه أو بقاء عقيدته، فاختار أن تبقى العقيدة ولو خسر حياته. أما الأعمى فقد انتصر مرتين، انتصر عندما تخلى عن مكانته عند الملك مع ما في ذلك من جاه ومكانة، وانتصر عندما تخلى عن حياته في مقابل عقيدته. إن الراهب والأعمى قد خلدا لنا معاني عظيمة من معاني الانتصار الحقيقي، بعيدًا عن التأويل والتبرير الذي يغطي فيه كثير من الناس ضعفهم وخورهم بستار يوهمون فيه الآخرين أنهم إنما فعلوا ذلك من أجل الدين، ولو صدقوا لعلموا أن انتصار الدين بأن يفعلوا ما فعله الراهب والأعمى.

٢- عجيب أمر هذا الغلام! لماذا دلَّ الملك على مقتله، ولماذا -مادام أن اللَّه قد منعه من الملك- لم يؤثر البقاء ليبلغ رسالة ربه، ويدل الناس على الدين الحق، ويبقي على حياته سالمًا.

هذا سؤال قد يتبادر إلى الأذهان:

والفهوم التي لم تعرف حقيقة الانتصار. إن الغلام قد أدرك - بتوفيق من اللَّه - أن كلمة في لحظة حاسمة صادقة، تفعل ما لا تفعله آلاف الكلمات في عشرات السنين. إن الحياة مواقف،

يتميز فيها الصادق من غيره، وقد سنحت فرصة عظيمة لا يجوز تفويتها، ولا يليق تبرير ضياعها، وكما قيل: «إذا هبت رياحك فاغتنمها» وقد هبت رياح هذا الغلام، وهل رياحه إلا تبليغ رسالة ربه، ولو دفع حياته ثمنًا رخيصًا في سبيل اللَّه؟!

إنه انتصار الفهم، وانتصار الإرادة، وانتصار العقيدة عندما تتحول في صدر صاحبها إلى قوة مؤثرة، وحياة صادقة، وليست على هامش حياته وسلوكه وتفكيره، إن هذا الغلام قد انتصر عدة مرات في معركة واحدة، وموقف واحد:

انتصر بقوة فهمه وإدراكه لأقصر وأسلم الطرق لنصرة دينه وعقيدته، وإخراج أمته ومجتمعه من الظلمات إلى النور. وانتصر بقدرته على اتخاذ القرار الحاسم في الوقت المناسب، متخطيًا جميع العقبات، ومستعليًا على الشهوات وحظوظ النفس ومتاع الحياة الدنيا.

وانتصر على هذا الملك الغبي، الذي أعمى اللَّه بصيرته، فأخرب ملكه بيده، فإنها لا تعمى الأبصار، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور. إن الناس قد يتعجبون لأن الغلام قد دل الملك على مقتله، ولكنهم لا يدركون أن الملك قد قتل نفسه بيده لا بيد غيره، فأيهما أولى بالعجب والتعجب؟ إن الغلام أقدم وهو يعي حقيقة ما يفعل: أما الملك فأعمته سكرة الملك

وشهوة السلطان عن أن يدرك ما خطط له هذا الغلام، في هذه المعركة الفاصلة التي مات فيها فرد وحيت أمة.

وانتصر الغلام عندما تحقق ما كان يتصوره ويتوقعه وقدم نفسه من أجله، فآمن الناس وقالوا: آمنا باللَّه ربِّ الغلام.

إن دقة التخطيط وبراعة التنفيذ، وسلامة التقدير، نجاح باهر، وفوز ظاهر.

وانتصر الغلام عندما فاز بالشهادة في سبيل اللَّه، فكلُّ الناس يموتون، ولكن القليل منهم من يستشهدون.

وانتصر أخيرًا عندما خلَّد اللَّهُ ذكرَه قدوة لمن بعده، وذكرًا حسنًا على لسان المؤمنين، حيث جعل اللَّه له لسان صدق في الآخرين.

٣- وتتويجًا لهذه الانتصارات المتلاحقة:

تأتي نهاية القصة، عندما آمن الناس بربِّ الغلام، آمنوا باللَّه وحده وكفروا بالطاغوت، وهنا جُنَّ جنونُ المَلِك، وفقد صوابه، فاستخدم كلَّ ما يملك من وسائل الإرهاب والتخويف، في محاولة يائسة، للإبقاء على هيبته وسلطانه وتعبيد الناس له.

ثم يحفر أخاديده، ويوقد نيرانه، ويأمر زبانيته وجنوده بإلقاء المؤمنين في النار، وتأتي المفاجأة المذهلة، بدل أن يضعف من يضعف، ويهرب من يهرب، لا تسجل الرواية أن أحدًا منهم تراجع أو جبن أو هرب، بل نجد الإقدام والشجاعة، وذلك

بالتدافع إلى النار، وكأن الغلام قد بث فيهم الشجاعة، والثبات وها هم يجدُّون في اللحاق به، وكأنهم يتلذذون في تقديم أرواحهم فداء لدينهم، تموت الأجسام وتحيا الأرواح عند خالقها: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦].

من لم يمت بالسيف مات بغيره تنوعت الأسباب والموت واحد

والحالة الفريدة التي وردت في الرواية، هي تلك المرأة التي خافت على رضيعها، ولكنها نسيت أنها قد أرضعته الإيمان والشجاعة والإقدام مع اللبن الذي كان يشربه، فطلب منها التقدم، فأقدمت. أيُّ أمة تلك، وأيُّ قوم أولئك، مع الزمن الطويل الذي عاشوه في الظلام، والسنوات التي استعبدهم فيها هذا الملك، ومع قصر المدة التي عرفوا فيها الإيمان، فقد عرفوا المنهج حق المعرفة، وكأنهم عاشوا فيه كما عاش الراهب طول عمره، أو تربوا عليه كما تربى الغلام في صباه. إنه الإيمان إذا خالط بشاشة القلوب، ولامس الأرواح يفعل العجب. لقد رأينا في قصة الراهب والأعمى ثم الغلام انتصارًا فرديًا. ولكننا في قصة أولئك المؤمنين نرى انتصارًا جماعيًا، قلَّ أن يحدث له في التاريخ مثيلًا. إنه صفاء العقيدة، ووضوح المنهج، وسلامة الطريق، وفهم حقيقة الانتصار.

٤- وقبل أن نغادر هذه القصة، يرد سؤال في الأذهان:

ماذا حل بهذا الملك وحاشيته وجنده؟ وهل ذهبت دماء هؤلاء المؤمنين وأرواحهم دون انتقام من اللّه لمن قتلهم؟

إننا لا نجد في القرآن ولا في السنة أيَّ ذكر لهؤلاء الظلمة، وماذا كان مصيرهم في الدنيا، وللّه في ذلك حكمة قد تخفى علينا. نعم وردت آية في آخر قصتهم فيها دعوة لهم وتحذير ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠].

قال الحسن البصري: «انظروا إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أولياءه، وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة». إن هذه النهاية تحقق معنى من معاني الانتصار، من المنتصر؟ الذي نصر عقيدته ودين ربه، وحُرِقَ بضع دقائق، ثم انتقل إلى جنات النعيم، أو ذلك الذي تمتع بأيام في الحياة الدنيا ثم مآله -إن لم يتب- إلى عذاب جهنم وعذاب الحريق؟.

هل هناك مقارنة بين الحريق الأول، والحريق الثاني، حريق الدنيا، وحريق الآخرة؟ إنها نقلة بعيدة، وبون شاسع، أما المؤمنون الذين حرقوا في الدنيا، فـ ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [البروج: ١١] وتعلن النتيجة التي لا مراء فيها، ولا جدال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾ أليس هذا هو الانتصار؟[١].

(١) حقيقة الانتصار، (ص ٢٩).

٩- الدعاء في كتاب الله

للعلامة الشيخ عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ

لمَّا كان الدعاء مخ العبادة، ولبَّها وخالصَها، لكونه متضمنًا للافتقار التامّ لله والخشوع والخضوع بين يديه، وتنوع عبوديات القلب، وكثرة المطالب المهمة، كان أفضله وأعلاه ما كان أنفع للعبد وأصح من غيره وأجمع لكل خير وتلك أدعية القرآن التي أخبر الله بها عن أنبيائه ورسله وعباده الأخيار التي كان سيد المرسلين يختارها على غيرها.

ولما كان من شروط الدعاء وآدابه حضور قلب الداعي واستحضاره لمعاني ما يدعو به أحببت أن أنبه تنبيهًا لطيفًا على معاني أدعية القرآن ليسهل استحضارها فيعظم انتفاع العبد بها.

❁فأفضل أدعية القرآن وأفرضها قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة : ٦- ٧] أي: علمنا يا ربنا وألهمنا ووفقنا لسلوك الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، المشتمل على علم ما يحبه الله ورسوله، ومحبته وفعله على وجه الكمال، وعلم ما يكرهه الله ورسوله ويغضبه، وتركه من كل وجه. وحقيقة ذلك

أن الداعي بهذا الدعاء يسأل اللَّه تعالى أن يهديه الصراط المستقيم المتضمن لمعرفة الحق والعمل به، ويجنبه طريق المغضوب عليهم الذين عرفوا الحق وتركوه، وطريق الضالين الذين تاهوا عن الحق فلم يعرفوه.

من أجمع الأدعية وأنفعها دعاء أرباب الهمم العالية الذين جمع اللَّه لهم بين خيري الدنيا والآخرة قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١].

فَصَدَّرُوا دعاءهم بقولهم (رَبَّنَا) وذلك متضمن لاستحضارهم معنى تربية اللَّه العامة وهو:

الخلق والتدبير وإيصال ما تستقيم به الأبدان، والتربية الخاصة لخيار خلقه الذين رباهم بلطفه وأصلح لهم دينهم ودنياهم وتولاهم فأخرجهم من الظلمات إلى النور.

وهذا متضمن لا فتقارهم إلى ربهم وأنهم لا يقدرون على تربية نفوسهم من كل وجه فليس لهم غير ربهم يتولاهم ويصلح أُمورهم، ولهذا كانت أغلب أدعية القرآن مُصَدَّرَة بالتوسل إلى اللَّه بربوبيته؛ لأنها أعظم الوسائل على الإطلاق التي تحصل بها المحبوبات، وتندفع بها المكروهات.

وحسنة الدنيا اسم جامع: للعلم النافع، والعمل الصالح،

وراحة القلب والجسم، والرزق الحلال الطيب من كل مأكل ومشرب وملبس ومنكح ومسكن ونحوها فهي اسم جامع لحسن الأحوال وسلامتها من كل نقص.

وأما حسنة الآخرة فهي كل ما أعده اللَّه لأوليائه في دار كرامته مما لاعين رأت ولاأذن سمِعت ولا خَطَرَ على قلب بشر.

ولما كانت حسنة الدنيا والآخرة تمامها وكمالها الحفظ من عذاب النار، والحفظ من أسبابه وهي الذنوب والمعاصي قالوا: ﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ فاشتمل هذا الدعاء على كلّ خير ومطلوب محمود، ودفع كلّ شر وعذاب.

ولهذا كان النبيُّ ﷺ يدعو بهذا الدعاء كثيرًا. ومن ذلك الدعاء الذي في آخره البقرة الذي أخبر اللَّه على لسان رسوله أنه قبله من المؤمنين حين دعوا به ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦] ولما كان إخلال العبد بأمر اللَّه قد يكون عمدًا على وجه العلم، قد يكون نسيانًا وخطأ وكان هذا القسم غير ناشئ عن عمل القلب الذي هو محل الإثم وعدمه سألوا ربهم ألّا يؤاخذهم بالنسيان الخطأ وذلك عامٌ في جميع الأمور قال اللَّه تعالى: قد فعلت.

ولما كانت بعض الأفعال فيها شدة ومنشقة وأصار وأغلال لو كلف العباد بها، لأحرى ألَّا يقوموا بها سألوا اللَّه تعال بألَّا يحملهم إياها ولا يكلفهم بما لا طاقة لهم به ليسهل عليهم أمر ربهم وتخف عليهم شرائعه الظاهرة، فقال اللَّه تعالى: قد فعلت.

ولما كان أيضًا الشرائع التي شرعها اللَّه لعباده لابد أن يحصل منهم التقصير فيها إما بفعل محظور أو بترك مأمور، وذلك موجبٌ للشر والعقوبة إن لم يغفره اللَّه ويُزيله قالوا: ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا﴾ فبهذه الأمور تندفع المكروهات والشرور كلها، ثم سألوا اللَّه بعد ذلك الرحمة التي ينشأ عنها كل خير في الدنيا والآخرة.

ولما كان أمر الدين والتمكين من فعل الخير وترك الشر لا يحصل ولا يتم إلا بولاية اللَّه وتوليه ونصرته على الأعداء الكافرين من الشيطان وجنوده قالوا: ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ قال تعالى: قد فعلت. فاللَّه تعالى يتولى عبده وييسره لليسرى في جميع الأمور، فيدفع عنه الشرور فهو نعم المولى ونعم النصير.

ومن هذا دعاء الراسخين في العلم بعد الثناء عليهم بالإيمان التامّ ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران ٨] فسألوا ربهم وتوسلوا بربوبيتة في حصول أفضل

الوسائل وهو استقامة القلوب على ما يحبه اللّه ويرضاه والثبات على ذلك، وعدم زيغها عن هذه الهداية، وأجل المقاصد وهو حصول رحمة اللّه تعالى التي يحصل معها خير الدنيا والآخرة، وختموا دعاءهم بالتوسل إلى ربهم باسمه ﴿ٱلْوَهَّابُ﴾ أي: كثير العطايا واسع الكرم. فمن كرمك يا وهاب نسألك الاستقامة وعدم زيغ القلوب وأن تهب لنا من لدنك رحمة؛ لأن الرحمة التي من لدنه لا يقادر قدرها ولا يعلم ما فيها من البركات والخيرات إلا الذي وهبهم إياه؛ ويشبه أن يكون قولهم ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩] توسلاً إلى ربهم بإيمانهم بهذا اليوم وتصديق ربهم في وعده ووعيده، فإن توسل إلى اللّه بالإيمان ومنة اللّه به من الوسائل المطلوبة فيكون هذا من تمام دعائهم.

* كذلك دعاء المتقين الذين أعدَّ لهم الجنة وما فيها الذين يقولون ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٦] فتوسلوا بربوبية اللّه لهم وبإيمانهم أن يغفر لهم الذنوب، وأن يقيهم عذاب النار، وإذا غفرت ذنوبهم ووقاهم اللّه عذاب النار زال عنهم الشر بأجمعه وحصل لهم الخير بأجمعه؛ لأن الأدعية هكذا تارة تأتي مطابقة لجميع مطالب العبد، وتارة يذكر نوع منها ويدخل الباقي باللزوم كهذا الدعاء.

* ومما أتى فيه الدعاء بجميع المطالب على وجه المطابقة دعاء أولي الألباب وخواص الخلق حيث قالوا بعدما فكروا بما في ملكوت الله: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩١-١٩٤] فتوسلوا بربوبية الله، وكرروا هذا التوسل وإقرارهم بحكمة الله وصدق وعده ووعيده، وإيمانهم برسل الله حين دعوهم إلى الإيمان، ومنة الله عليهم بالمبادرة بذلك أن يقيهم عذاب النار، وأن يغفر ذنوبهم الكبار، ويكفر عن سيئاتهم الصغار، فيدفع عنهم أعظم العقوبات وهو عذاب النار، ويزيل عنهم أسباب الشرور كلها وهي الذنوب والسيئات، وأن يرزقهم الله ويوفقهم لأعمال البر كلها فيصيروا بذلك من عباد الله الأبرار، وأن يثبتهم عليها حتى يموتوا عليها فيدخلوا في معية الأبرار، وأن يؤتيهم ما وعدوهم على ألسنة رسله وذلك شامل لعطايا الدنيا وخيراتها وعطايا الآخرة وكراماتها، وأن يكرمهم في يوم القيامة ولا يخزهم.

وحقيق بقوم دعوا بهذه الأدعية الجليلة بحيث ما بقي خير إلا سألوه ولا شر إلا استدفعوه أن يسميهم الله أولي الألباب هذا من لبهم وعقلهم وتمام فطنتهم، نسأله تعالى أن يوفقنا لما وفقهم له، إنه جواد كريم.

* ومن ذلك دعاء اتباع الأنبياء في مواطن الشدائد وأنواع المحن ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧-١٤٨] فدل هذا على أن هذا الدعاء من الدعاء الذي استجابه الله وأن أهله محسنون فيه، وذلك أنهم توسلوا إلى الله بربوبيته فافتقروا إليه وطلبوا أن يريهم بما يصلح أحوالهم، وأن يغفر لهم الذنوب وهي المعاصي المستقلة، وإسرافنا في أمرنا وهي تعدي ما حد للعبد ونهي عن مجاوزته، فكما أن التقصير يلام عليه الإنسان فكذلك المجاوزة للحد، وأن يثبت أقدامهم فيرزقهم الصبر والثبات والقوه التي هي مادة النصر، وأن يمدهم بمدده الإلهي وهو نصره على القوم الكافرين؛ فسألوا ربهم زوال المانع من النصر وهي الذنوب والإسراف، وحصول سبب النصر وهو: سبب داخلي وهو: ثبات الأقدام والصبر عند الإقدام. وسبب خارجي وهو: نصره. ويشبه أن يكون قولهم ﴿عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ توسل إلى الله،

وأننا يا ربنا آمنا بك واتبعنا رسلك وحاربنا أعدائك الذين كفروا بك وبرسلك فمعاداتنا لهم وقتالنا إياهم لأجلك وفي سبيلك فانصرنا عليهم لكوننا من حزبك وجندك، وهم جنود عدوك الشيطان الرجيم.

* ومن ذلك دعاء عباد الرحمن الذين وصفهم الله بكل خلق جميل وأعد لهم المنازل العالية، فدعوا بدعوتين دعوة استجيبت لجميعهم كامل الدرجة من دونه، ودعوة استجيبت لخواصهم وأئمتهم وقدوتهم، قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣-٦٥] فتوسلوا بربوبية الله لهم وإيمانهم وخوفهم من عذابه أن يقيهم عذاب النار، وإذا وقاهم الله عذاب النار كان من لازم ذلك مغفرة ذنوبهم وتكفير سيئاتهم ودخولهم الجنة، قال تعالى عنهم ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان الآية ٧٤] فتوسلوا بربوبية الله أن يهب لهم من أزواجهم وقرنائهم وذرياتهم ما تقر أعينهم به وهو أن يكونوا مطيعين لله عاملين بمرضاته، وذلك دليل على أن طاعة الله قرة أعينهم ومحبته نعيم قلوبهم، فقويت هذه الحالة إلى أن سألوا

اللَّه تعالى أن يجعل قرنائهم بهذه الحالة الكاملة وذلك من فضل اللَّه عليهم، فإن اللَّه إذا أصلح قرنائهم عاد من هذا الخير عليهم شيء كثير ولهذا جعلوا هذا من مواهب ربهم فقالوا: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا﴾ إلخ. . .

ولما كان غاية كمال الإنسان أن يكون مطيعًا للَّه وأن يكون قرينًا للمطيعين سألوا ربهم أعلى المراتب وأجلها وهي الإمامة في الدين وأن يكونوا قدوة للمتقين؛ وذلك أن يجعلهم علماء ربانيين راسخين في العلم مجتهدين في تعلمه وتعليمه والدعوة إليه، وأن يكون علمهم صحيحًا بحيث أن من اقتدى بهم فهو من المتقين، وأن يرزقهم من الأعمال الظاهرة والباطنة ما يصيرون به أئمة للمتقين، وجماع ذلك الصبر على محبوبات اللَّه وثبات النفس على ذلك والإيقان بآيات اللَّه وتمام العلم بها قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤] فالحاصل أنهم سألوا ربهم أن يكونوا كاملين مكملين لغيرهم هادين مهتدين وهذه أعلى الحالات فلذلك أعد اللَّه لهم أعلى غرف الجنان ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٧٥-٧٦].

* ومن ذلك دعاء آدم عليه السلام حين تاب إلى اللَّه وتلقى منه هذه

الكلمات هو وزوجه قال: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: الآية ٢٣] فتوسلا بربوبية الله واعترافهم بالظلم وإقرارهم بالظلم وإقرارهم بالذنب أن يغفر لهما فيزيل عنهما المكاره كلها وأن يرحمهما فيعطيهما أنواع المطالب، وأنه لا وسيلة لهما ولا ملجأ منه إلا إليه وأنه إن لم يرحمهما ويغفر لهما خسرا الدنيا والآخرة، فقبل الله دعائهما وغفر لهما ورحمها.

*ومثل قول نوح لما لامه الله بسؤال نجاة ابنه الكافر الذي ليس من أهله وأن هذا عمل غير صالح فقال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧]. فتوسل بربوبية الله واستعاذ به أن يسأله سؤالاً ليس له به علم، وإنما هذا الذي جرى منه يوجب التضرع والاستغفار وأنه إن لم يغفر له ربه ويرحمه كان من الخاسرين.

فالناس قسمان: رابحون وهم: الذين تغمدهم الله بمغفرته ورحمته؛ وخاسرون وهم: الذين فاتتهم المغفرة والرحمة ولا يحصل ذلك إلا بالله.

* ومن ذلك دعاء إبراهيم خليل الرحمن وابنه إسماعيل وهما يرفعان قواعد البيت: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ

وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧-١٢٨] فتضرعا إلى ربهم في قبول الله عملهما، وأن يكون كاملاً من كل وجه، وتحصل منه الثمرات النافعة، وتوسلا إليه بأنه السميع لأقوالهما، العليم بجميع أحوالهما؛ ولما دعوا بهذا الدعاء الخاص في قبول عملهما وعلى من شاء من ذريتهما بالإسلام لله ظاهرًا وباطنًا، والعمل بما يحبه ويرضاه، وأن يعملهما العمل الذي شرعا فيه، ويكمل لهما مناسكهما علنا ومعرفة وعملاً، وأن يتوب عليهما لتتم أمورهما من كل وجه. فاستجاب الله هذا الدعاء كله وبارك فيه وحقق رجائهما والله ذو الفضل العظيم.

* وكذلك دعاء يوسف عليه السلام: ﴿۞ رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١] فتوسل إلى الله بربوبيته وبنعمة الله عليه بنعمة الدنيا وهي الملك وتوابعه، ونعمة الدين وهي العلم الكامل، وبولاية الله وانقطاعه عن غيره، وتولي الله له في الدنيا والآخرة أن يثبته على الإسلام الظاهر والباطن حتى يلقاه عليه فيدخل في خُلَّص عباده الصالحين.

* ومن دعاء سليمان عليه السلام: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ

أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٩] فتوسل إلى الله بربوبيته وبنعمته عليه وعلى والديه أن يوزعه أي يلهمه ويوفقه لشكرها بالاعتراف بها ومحبته لله عليها والثناء عليه والإكثار من ذكره، وأن يوفقه عملاً صالحًا يرضاه ويدخل في هذا جميع الأعمال الصالحة ظاهرها وباطنها، وأن يدخله برحمته في جملة عباده الصالحين. وهذا الدعاء شامل لخير الدنيا والآخرة.

*ومثل هذا دعاء الذي بلغه الله أشده وبلغه أربعين سنة ومن عليه بالإنابة إليه فقال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: الآية ١٥].

فتوسل بربوبية ربه له وبنعمته عليه وعلى والديه، وبالتزام ترك ما يكرهه ربه بالتوبة وفعل ما يحبه الإسلام أن يمن عليه بالشكر المتضمن لاعتراف القلب وخضوعه ومحبته للمنعم والثناء على الله مطلقًا ومقيدًا، وأن يوفقه لما يحبه الله ويرضاه، ويصلح له في ذريته فهذا دعاء محتوٍ على صلاح العبد وإصلاح الله له أموره كلها وإصلاح ذريته في حياته وبعد مماته وهو دعاء حقيقٌ بالعبد خصوصًا إذا بلغ الأربعين أن يداوم عليه بذل وافتقار لعله أن يدخل في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا

﴿وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ [الأحقاف: ١٦]. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ [القصص: ٢٤] مستريحًا لذلك الظل بعد التعب فقال في تلك الحالة مسترزقًا ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤] أي: أني مفتقر للخير الذي تسوقه إلي وتيسره لي، وهذا سؤال منه بحاله، والسؤال بالحال قد يكون أبلغ من السؤال بلسان المقال. فلم يزل في هذه الحالة راجيًا ربه متملقًا مفتقرًا إليه معلقًا رجاءه بالله وحده حتى فرج كربه وجلى همه والله هو الرازق.

ومن ذلك الأدعية التي أمر الله بها رسوله وعباده المؤمنين فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ فهذا توسل إلى الله بربوبيته ورحمته الواسعة في حصول الخير ودفع الشر كله وهي المغفرة التي تندفع بها المكروهات والرحمة التي تحصل بها جميع المحبوبات وكذلك قوله: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٠] فهذا توسل إلى الله بربوبيته أن تكون مداخل العبد ومخارجه كلها صدقًا وذلك أن تكون صالحة خالصة لوجه الله مقرونة بالاستعانة بالله والتوكل عليه، وذلك يستلزم أن تكون حركات العبد كلها ظاهرها وباطنها طاعة لله وعملاً بما يحبه ويرضاه، وهذا هو الكمال من جهه العمل، أما الكمال من جهة العلم فإنه

يجعل اللَّه له سلطانًا نصيرًا أي: حجة ظاهرة ناصرة وقوة يحصل بها نصر الحق وقمع الباطل.

فيحصل باستجابة هذا الدعاء العلم النافع، والعمل الصالح، والتمكين في الأرض.

وقال تعالى لرسوله: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] . فالعلم أجل الأشياء وبه تعرف الأشياء فسؤاله وسؤال الزيادة منه أفضل ما سأل السائلون.

* * *

واحات رمضانية

١- الأوقات الفاضلة والمسابقة للخيرات

خلق كلَّ شيء فقدَّره تقديرًا، واختصَّ اللَّه بحكمته الباهرة وعلمه الذي وسع كل شيء أزمانًا وأمكنة بمزيد من الفضل والشرف، وقد أخبرنا اللَّه في كتابه وسنة رسوله ﷺ بما فضَّل من الأزمان والأوقات؛ لكي نبادر ونسارع إلى الخيرات فيها.

والمحروم من يجعل جهده وسعيه في تلك الأزمان والأمكنة معادلاً لجهده في غيرها من الأزمان والأمكنة؛ فلا يخصصها بمزيد من الاجتهاد في الخيرات التي هي ميدان التسابق والتي فيها الربح العظيم.

والخاسر من يحصر جهده في تلك الأزمان والأمكنة في الحصول على زهرة الحياة الدنيا التي لن يأتيه منها مهما اجتهد وسعى إلا ما قدَّر اللَّه له.

وقد يجتمع شرف الزمان والمكان وفضلهما بالنسبة لأقوام دون آخرين، فينبغي لهم الاجتهاد والسعي في الخيرات أكثر ممن انفرد بجهة واحدة من الشرف والفضل.

وقد حضَّنا اللَّه - تبارك وتعالى - على المنافسة في فعل الخير ومحاولة الوصول إلى أعلى المقامات فيها، وألا يقبل الإنسان لنفسه بالدون منها، فقال اللَّه - تبارك وتعالى -: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [المائدة: ٤٨].

والاستباق: المبادرة والمسارعة، والأمر بالاستباق يعني: المنافسة في ذلك، وألا يقنع المسلم بمجرد الفعل حتى يكون مسارعًا فيه منافسًا لغيره في الإتيان به؛ حتى يكون في ذلك من السابقين، كما قال رسول اللَّه ﷺ: «**لا حسدَ إلا في اثنتين: رجل آتاه اللَّه مالاً فسلَّطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه اللَّه الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها**»[١].

وقد فسَّر أهل العلم الحسد في هذا الموضع بالمنافسة، قال ابن حجر: «وأما الحسد المذكور في الحديث فهو الغبطة، وأطلق الحسد عليها مجازًا، وهي أن يتمنَّى أن يكون له مثل ما لغيره من غير أن يزول عنه، والحرص على هذا يسمى منافسة»[٢].

والمسابقة مشعرة أنه لا يفوز فيها إلا الراكض دون الماشي؛ كما قال عمير رضي الله عنه:

ركضًا إلى اللَّه بغير زادِ
إلا التقى وعمل المعادِ
والصبر في اللَّه على الجهادِ
وكل زاد عرضة النفادِ
غير التقى والبر والرشادِ

---

(١) أخرجه البخاري، رقم (٧٣). ومسلم، رقم (٨١٦).
(٢) فتح الباري.

والخيرات: كل ما يحبه اللَّه - تعالى - ويرضاه من الأقوال والأفعال؛ سواء كان مما أمر اللَّه به ورسوله، أو دعا إلى فعله ورغب فيه وحضَّ عليه.

وقد جاء الأمر بالاستباق في الخيرات في موضعين من كتاب اللَّه تعالى:

أولهما: قوله - تعالى -: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٤٨].

وثانيهما: قوله - تعالى -: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨].

وقد ورد في القرآن في أكثر من موضع معنى الاستباق وإن لم يكن بلفظه، فقال - تعالى -: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقال: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١]، وقال: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

وهذا كله فيه تحريض على المبادرة والمسارعة إلى القيام بما يحبه اللَّه ورسوله من الأقوال والأفعال التي أمرهم بها أو ندبهم لفعلها، والحرص على أن يكون الإنسان في ذلك سابقًا لا مسبوقًا.

وقد مدح اللَّه - تعالى - المسارعين بالخيرات وبيَّن أن عاقبتهم الفلاح في الدنيا والنعيم الذي لا يزول في الآخرة، فقال - تعالى - في مدح أهل الكتاب الذين يتبعون آيات اللَّه والمسارعين بالخيرات: ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ۖ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٤].

كما بيَّن أن المسارعة في الخيرات من أسباب استجابة الدعاء، فقال - تعالى -: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

كما بيَّن أن المسارعة في الخيرات من صفات الموحدين الذين هم من خشية ربهم مشفقون فقال - تعالى -: ﴿أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦١]، وقال - تعالى - بعد ذكره للعديد من الأنبياء: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ ۖ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣].

وإذا كانت المسارعة بالخيرات محمودةً مطلوبةً في كل آنٍ وحين وكل مكان؛ فإن حدوث ذلك في الأماكن المفضلة والأزمان الشريفة أكثر فضلًا وخيرًا وأعظم أجرًا.

ومن أماكن الفضل: المسجد الحرام والمسجد النبوي والمسجد الأقصى؛ حيث فُضِّلت الصلوات فيها على غيرها بدرجات عظيمة، ولم يشرع شدُّ الرحال إلى مكان من أمكنة العبادة إلا إليها.

كما أن من أماكنه: الثغور؛ حيث يرابط فيها المسلمون حفظًا لدار الإسلام واستعدادًا للجهاد في سبيل اللَّه تعالى؛ هدايةً للناس وإخراجًا لهم من الظلمات إلى النور بإذن ربهم، وقد وردت البشارات العظيمة بما أعدَّ اللَّه للمرابطين في سبيله فقال الرسول الكريم ﷺ: «**كل ميت يُختَم على عمله إلا الذي مات مرابطًا في سبيل اللَّه فإنه يُنمَى له عملُه إلى يوم القيامة، ويأمن فتنة القبر**»[١]، وقال ﷺ: «**من مات مرابطًا في سبيل اللَّه أجري عليه أجر عمله الصالح الذي كان يعمل، وأُجْرِيَ عليه رزقه، وأمن من الفتَّان، وبعثه اللَّه يوم القيامة آمنًا من الفزع الأكبر**»[٢]، وقال أيضًا: «**رباط يوم وليلة خيرٌ من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله وأجري عليه رزقه وأمن الفتَّان**»[٣].

---

(١) أخرجه أبو داود والترمذي وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٣٨٢٣).

(٢) قال الألباني في الترغيب والترهيب برقم (١٢٢١): رواه ابن ماجه بإسناد صحيح.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، رقم (١٩١٣).

التعرض لنفحات اللَّه:

وكما كان هناك تفضيل للمكان فهناك تفضيل للزمان، ومن أزمان الفضل: أشهر الحج وشهر رمضان، ومن أزمانه أيضًا: يوم الجمعة الذي هو خير يوم طلعت عليه الشمس، وجوف الليل الآخر حيث «ينزل ربنا - تبارك وتعالى - كل ليلة إلى السماء الدنيا - نزولاً يليق بجلاله - حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟»[(١)].

وقد دخل علينا شهر رمضان بفضله وشرفه وهو ما يستوجب علينا أن نتعرض فيه لنفحات اللَّه علينا.

كما ندبنا لذلك رسولنا الكريم ﷺ فقال: **«افعلوا الخير دهركم، وتعرَّضوا لنفحات رحمة اللَّه؛ فإن للَّه نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده، وسلوا اللَّه أن يستر عوراتكم، وأن يؤمِّن روعاتكم»**[(٢)]، وفي رواية شاهدة لذلك قوله: **«إن لربكم في أيام دهركم نفحات فتعرَّضوا لها»**، وقد فهم أصحاب النبي ﷺ منه ﷺ ذلك فصاروا يرددونها. قال أبو الدرداء: «التمسوا الخير

---

(١) أخرجه البخاري، رقم (١١٤٥). ومسلم، رقم (٧٥٨).

(٢) المعجم الكبير للطبراني، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٨٩٠).

دهركم كله، وتعرَّضوا لنفحات رحمة اللَّه؛ فإن للَّه نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده، واسألوا اللَّه أن يستر عوراتكم ويؤمِّن روعاتكم».

ولا يشك أحد أن رمضان كله: ليله ونهاره، من هذه الأزمان التي تهبُّ فيها نفحات اللَّه تعالى؛ لذا أكثر الرسول ﷺ وكذلك المتابعون لطريقته الصحابة فمن بعدهم من التعرُّض لتلك النفحات؛ بحضور القلب ولزوم الذكر والدعاء وقراءة القرآن والصدقة والإحسان إلى خلق اللَّه تعالى، والصلاة بالليل والناس نيام، وكان لهم شأن فيه لم يكن لغيره من الأزمان.

تحدِّثنا الروايات الصحيحة أنه قد كان لرسول اللَّه ﷺ في رمضان شأن يختلف عن كل أحواله في غيره من الشهور، فقد كان رسول اللَّه ﷺ في كل أحيانه جوادًا كريمًا، لكن كرمه وجوده في رمضان كان في الذروة. قال عبد اللَّه بن عباس رضي الله عنهما: «كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان جبريل عليه السلام يلقاه كل ليلة في رمضان حتى ينسلخ، يعرض عليه النبي ﷺ القرآن، فإذا لقيه جبريل عليه السلام كان أجود بالخير من الريح المرسلة»[1]،

---

(١) أخرجه البخاري، رقم (١٩٠٢). ومسلم، رقم (٢٣٠٨).

فجوده ﷺ بالخير في رمضان يفوق الريح المرسلة بالخير في إسراعها وعمومها، ولولا أن الجود في رمضان تفوق منزلته على غير رمضان ما اختصه الرسول الأمين ﷺ بذلك. قال ابن حجر: «الجود في الشرع إعطاء ما ينبغي لمن ينبغي، وهو أعم من الصدقة، وأيضًا فرمضان موسم الخيرات؛ لأن نِعَم الله على عباده فيه زائدة على غيره، فكان النبي ﷺ يُؤْثِر متابعة سنة الله في عباده»[1].

وكما كان الرسول ﷺ في رمضان أجود ما يكون حتى يفوق الريح المرسلة؛ فكذلك كان تاليًا للقرآن يتدارسه مع جبريل عليه السلام كل ليلة، وهو ما يبيِّن أهمية العناية بقراءة القرآن، وأن هذه العناية تبلغ ذروتها وحدَّها الأقصى في رمضان؛ فرمضان الشهر الذي أُنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان، وحريٌّ بالمسلم في شهر القرآن أن يخصه بمزيد من القراءة . . .

وفي شهر الصيام وقراءة القرآن والقيام كان الرسول الكريم ﷺ يجتهد في رمضان غاية الاجتهاد في قيام الليل، وكلما جاءت الليالي الفضلى اشتد اجتهاده فيها عما سبقها من الليالي، فعن

---

(١) فتح الباري (١/ ٣١).

عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول اللَّه ﷺ إذا دخل العشر أحيا الليل، وأيقظ أهله، وشدَّ المئزر»[١]، فهو ﷺ يجتهد في رمضان ما لا يجتهد في غيره، وكان يجتهد في العشر الأواخر ما لا يجتهد فيما تقدَّم من رمضان، وإذا علمنا أن رسولنا ﷺ كان يقوم في غير رمضان حتى تتفطر قدماه؛ فلنا أن نتصور ماذا تكون عليه الحال في رمضان حيث يجتمع فضل الصيام والتلاوة والقراءة والقيام.

وفي رمضان ليلةُ القدر، التي من وفَّقه اللَّه لقيامها كانت له بمنزلة عمل ألف شهر، فهو عمل قليل وجزاء عميم عظيم من ربٍّ كريم رحيم، فقد قال رسول اللَّه ﷺ: «**من قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدَّم من ذنبه**»[٢]، فهي بلا شك ليلة عظيمة من وفَّقه اللَّه - تعالى - لقيامها جمع من الفضل والأجر ما لا يجمعه غيره في عشرات السنين.

وعندما يتأمَّل الإنسان ما في رمضان من مجالات متعددة للمسارعة في الخيرات؛ يتعجب أشد العجب ممن لم يكن همُّه في تلك الساعات سوى المتاجرة وتحصيل حطام الدنيا؛ حتى

---

(١) أخرجه البخاري، رقم (٢٠٢٤). ومسلم، رقم (١١٧٤)؛ واللفظ له.

(٢) أخرجه البخاري، رقم (١٧٦٨).

يكون حظه في رمضان من القراءة والذكر والقيام أدنى من حظه من ذلك في غير رمضان؛ فكثير ممن جعل الدنيا همَّه نظر إلى رمضان على أنه موسم للكسب والتجارة وتنمية الثروة؛ وإن نقص رصيده الإيماني، وقد يستغرب الإنسان حينما يقارن ذلك بما كان عليه كثير من العلماء مِنْ تركهم الاشتغال بالعلم في هذا الشهر مع فضل العلم وعظيم أجره؛ اشتغالاً بما فيه من العبادة من ذكر وقيام وقراءة للقرآن.

والعناية بالعبادة في رمضان لا تعني أن يقصِّر المسلم فيما وجب عليه من الأمور؛ فإن غزوة بدر الكبرى التي نصر اللَّه فيها الإيمان وجنده وخذل الشرك وأهله لم تكن إلا في رمضان، وإنَّ فتح مكة الذي سُمِّي الفتح الأكبر لم يحدث إلا في رمضان، وانتصار المسلمين على التتار لم يكن إلا في رمضان، وكثير من المعارك الفاصلة في تاريخ الإسلام والمسلمين قد جرت في شهر رمضان وأبلى المؤمنون فيها بلاءً حسنًا ولم تُعِقْهم العبادة في هذا الشهر عن القيام بذلك.

نسأل اللَّه بمنِّه وفضله أن يرزقنا بركة هذا الشهر، وأن يجعلنا من الذين وفَّقهم لقيام ليلة القدر، ونسأله - تعالى - أن يجعلنا من المسارعين في الخيرات؛ وخاصة في مواسم الفضل والشرف.

٢- رمضان والصفوة

د. إبراهيم بن عبدالله الدويش

كلما أقبل شهر رمضان أقبلت الخواطر في محاسبة النفس ومراجعتها، والرغبة والأماني في التزود الإيماني وشحن القلب وتزكية النفس وتحليتها، وبالأخص في جانب تقوية العلاقة بالله، وليس هذا بمستغرب؛ فالكل يشهد ومع التصحر الإيماني الذي أصاب ويصيب النفوس بسبب المتغيرات والمستجدات على كل الأصعدة، أصبحت النفس العاقلة تشعر بل وتتألم لجوعتها الإيمانية في وقت مجاعة يكاد يصيب الكثير إن لم يكن الجميع، لكنها لا تدري كيف تكسر حدة هذه الجوعة ولو بجرعة يسيرة رغم أن الزاد بين يديها.

عجيب.. ! نفس تحمل الزاد بكل صنوفه، ولا تستطيع أن تسد رمقها؟ آهٍ وآهٍ من هذا الزمن وبُنياته! فإذا كان الأطباء يشكون الداء فمن سيصف الدواء؟ سبحان الله! هم يعرفون الدواء ويحملونه، بل ويصرفونه، لكن الكثير منهم لا يستطيع تناوله.

لست أتحدث عن الصفوة ممن أعجزه الكسل، أو أصابه الخوف والهلع، أو أغرقه الطمع والجشع، بل عمن يسعى وينفع، ويُعطي ويرفع، ينفع الناس بكلماته ويرفع هممهم

بعظاته، فأشغلوه وأشغلته همته وحب الخير للناس، أتحدث عن الصفوة ودُلَّال الخير، والنجوم التي يهتدي بها الناس؛ حيث لا يكاد بال أحدهم يهدأ، أو يستجم، وإن استجم الجسد فالفكر والعقل كالرحى لا يستقر.

فهؤلاء فرحهم برمضان كفرح من قال: «اللَّهم أنت عبدي وأنا ربك» أخطأ من شدة الفرح؛ فقد وجدوا ضالتهم برمضان حيث لذة العبادة، ولحظات التدبر والترتيل للقرآن، وروحانية الصيام والقيام، وروعة الخلوة والاعتكاف، و. . و. . و، لكن هيهات فهم دُلَّال للخير ومحركو القلوب، وماذا يفعل الواحد منهم وقلبه يعتلج ويحترق في حب الخير وتوجيه الناس، ويعلم أن رمضان فرصة؛ فهو شهر التوبة والمحاسبة، وشهر إقبال القلوب وصقلها. لكنه أيضًا يعلم أن نفسه كغيرها من النفوس بل أشد حاجة للتوبة، والمحاسبة، والتزود بالوقود، فإن فاتت هذه المحطة فقد لا يجد غيرها بسهولة، فهو في صحراء مترامية الأطراف شديدة الغليان والذوبان.

إنها دوامة يصعب على كلّ أحد - وإن كان من الصفوة - أن يضبط توازنه في إعصار كهذا، خاصة عندما يشتكي القلب تفرقه وشعثه، وبُعده وقسوته؛ فكلنا يروح ويغدو في أعمال وأشغال، تطول معها الأحلام والآمال.

فالنفس تحتاج لوقفات وخلوات، لزيادة رصيد الإيمان وسكب العبرات، خاصة في زمن الفتن والشهوات، الذي ننسى فيه كثيرًا حاجة النفس والذات لصفاء القلب، وبقدر ما في القلب من النور سيكون قوة إشعاعه؛ لأن تفاضل الأعمال بتفاضل ما في القلوب من حقيقة الإيمان ولذته، ولذا قال أبو بكر المزني: «ما فاق أبو بكر ﵁ أصحاب رسول الله بصوم ولا صلاة، ولكن بشيء كان في قلبه»[١]. ومن تأمل في هذه المرحلة حال الصفوة - وهم ليسوا كغيرهم - وجد ضعفًا وفتورًا وكسلاً في جوانب العبادة والسلوك، ليس إهمالاً بل انشغالاً. وأعلم أن الكثير منهم يشكو ويتألم ويتحسر لمثل هذا، لكنها الشواغل الدعوية والدخول مع الناس وللناس، ونسيان النفس وحاجاتها؛ فإن كان؛ فلا يجب أن يكون في رمضان. إنه صراع المشاعر في نفوس الصفوة الأخيار عند إقبال رمضان، ولذا كان ﷺ يخص رمضان من العبادة بما لا يخص غيره به من الشهور، ويُؤثر عن إمام دار الهجرة مالك بن أنس ﵀ أنه كان يترك حِلَق التدريس في رمضان، ويتفرغ للعبادة وقراءة القرآن، هكذا هم الصفوة.

---

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ٢٢٥).

فتعالوا يا نجوم الزمان! لانتهاز الفرص، واستثمار هذا الموسم؛ لتقوية العلاقة بالله، وتصفية القلب مما علق عليه من الرَّيْن؛ فرمضان جُنة المحاربين، ورياضة الأبرار والمقربين، يعيد للقلب والجوارح صحتها التي سلبتها أيدي الشواغل والصوارف حتى وإن كانت خيرًا؛ فالعاقل يعلم يقينًا أن أول ما عليه النجاة بنفسه، وأنه إن لم يأخذ فلن يعطي، وبحسب كمية الوقود يكون طول المسير وأعلم أن الأمر صعب، وأن التسديد والمقاربة أصعب، لكني أهمس في أذنك همسة محب: إن لم تستطع أن تملأ خزان الوقود أو أن تخفف من تلك الشواغل المباركة كل رمضان، فلا أقل من استثمار عَشره الأخير، وخاصة بالاعتكاف، فلا بد من خلوة للعاقل يخلو فيها بنفسه للذكر والفكر والمحاسبة لتزكية النفس.

يقول عمر رضي الله عنه: «خذوا حظكم من العزلة»[١].

وقال مسروق: «إن المرء لَحقيق أن يكون له مجالس يخلو فيها، فيذكر فيها ذنوبه، فيستغفر منها»[٢]؛ فالخلوة بين الفينة والفينة مع النفس ضرورة جدًا لكي يتفرغ القلب وليس لها مثيل في سُنَّة

---

(١) رواه وكيع في الزهد، وابن المبارك أيضًا في الزهد وغيرهما.

(٢) رواه أحمد في الزهد، وابن أبي شيبة في المصنف وغيرهما.

الاعتكاف، وقد اعتكف خير الصفوة نبي اللَّه ﷺ رغم كثرة شغله، واعتكف أصحابه معه وبعده؛ فهم يعلمون أن في القلب شعثًا لا يلمُّهُ إلا الإقبال على اللَّه، وجمع كلِّيته عليه تعالى بحيث يصير ذكره سبحانه وحبه، والإقبال عليه زادَه بل وحلاوتَه.

***

٣- كيف تنال فضائل رمضان؟

د. هشام عبد القادر عقدة

إن الذي ينبغي لكلٍ منا أن يُعنى به في شهر رمضان هو:

أولاً: وفي كلمة جامعة مختصرة: أن يجعل من نفسه محلاً قابلاً لتنزُّل الرحمات والمغفرة والعتق من النار، اجعل من قلبك وواقعك موقعًا صالحًا لفضل الله؛ تصيبه الرحمة وتَحُل عليه المغفرة، وهذا؛ لأن هذا الشهر من جهةٍ شهر فضل عظيم من الله - جل وعلا - ومن الجهة الأخرى أن هذا الفضل ولا بد إنما يذهب لأهله.

فأما أنه شهر فضلٍ ومِنَح من الله - جل وعلا - فلأن لله عتقاء في كل ليلة من ليالي رمضان وعند كل فطر؛ فعن أبي أمامة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن لله عند كل فطر عتقاء»**[1].

وروى ابن ماجه بإسناد حسن عن أنس بن مالك ﷺ أنه قال: دخل رمضان، فقال رسول الله ﷺ: **«هذا الشهر قد حضركم وفيه ليلة خير من ألف شهر مَنْ حُرِمها، فقد حُرِم الخير كله، ولا يُحرَم خيرها إلا محروم»**[2].

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢٢٠٢) وصححه الأرنؤوط.

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٦٤٤).

وأما أن هذا الفضل إنما ينال أهلَه، فلأن اللَّه - تعالى - أعدل وأحكم من أن يكرم بهذا الفضل من ليس له أهلاً ويدع من هو أهل له.

ومن ثَمَّ كان علينا أن نجتهد في جعل أنفسنا أهلاً لفضل اللَّه - جل وعلا - في هذا الشهر؛ علَّنا نكون بذلك من عتقاء الرحمن في هذا الشهر الكريم.

وأول ما يطهِّر به كل منا نفسه - استعدادًا لهذا الشهر الكريم - التغافر، وإزالة الشحناء، وصلة الأرحام؛ فإن الخصام يؤخر الغفران، ولهذا جاء في الحديث: «**تعرض الأعمال في كل يوم خميس واثنين، فيغفر اللَّه - عز وجل - في ذلك لكل امرئ لا يشرك باللَّه شيئًا، إلا امرءًا كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيقول: اتركوا هذين حتى يصطلحا**»، وفي رواية: «اتركوا هذين حتى يصطلحا»[(١)].

وجاء في الحديث الآخر: «**إن اللَّه لَيطَّلعُ في ليلة النصف من شعبان، فيغفر لجميع خلقه إلا لمشرك أو مشاحن**»[(٢)].

فظهر من هذا بجلاء أن من أسباب المغفرة من اللَّه - جل وعلا - في مواسم المِنَح والنفحات أن يخلِّص العبد نفسه من

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٥).

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٣٩٠) وصححه الألباني في الصحيحة (١١٤٤).

الخصومات والمشاحنات، كما يجب أن يتخلص - خاصة - من قطيعة الرحم؛ فإنه ﷺ قال: «**لا يدخل الجنة قاطع**»[(١)] أي: قاطع رحم، فظهر من هذا بجلاء أن قطع الأرحام من موانع نيل فضل الله؛ فكيف يطمع قاطع الرحم أن يكون من عتقاء الله من النار في هذا الشهر؟ ومن ثَمَّ وجب على كلٍ منا أن يزيل كل سبب كان من جهته؛ أدى إلى قطع رحِمه.

فليكن رمضان شهر بِرٍّ وصِلَة وتسامُح؛ فينبغي لك بين يدي هذا الشهر أن تزور أقاربك وأصهارك وأرحامك، وتصِلَهم وتتودد إليهم، وأعظم الصِّلات وأرفع القربات بِرُّ الوالدين والحنو عليهما وإكرامهما وإرضاؤهما.

وليتنازل الإنسان، وليعفو وليصفح: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٢]، ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

وصحَّ عنه ﷺ أن رجلاً قال له: يا رسول الله! إن لي قرابة أصلهم ويقطعونني وأُحسن إليهم ويسيؤون إليَّ، فقال ﷺ: «**إن كنت كما قلت، فكأنما تُسفُّهم الملَّ** - أي: كأنما تؤكلهم الرماد

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٨٤) ومسلم (٢٥٥٥).

الحار - ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك»[١].

وما أجمل قول أحد الحكماء وهو يذكر طريقة تعامله مع أقاربه وموقفه مع عشيرته بأبيات من الشعر! يقول فيها:

وإن الذي بيني وبينَ بَني أبي ... وبين بَني عمِّي لمختلفٌ جِدا

إذا هتكوا عِرضي وَفَّرتُ عروضَهمُ ... وإن هدموا مجدي بَنَيتُ لهم مَجدا

ولا أحملُ الحقدَ القديمَ عليهِمُ ... وليس رئيس القومِ من يحملُ الحقدا

فينبغي أن يكون شهر رمضان شهر تآخٍ ووحدة وائتلاف لا سيما والمسلمون جميعًا في هذا الشهر يقومون بعبادة واحدة في وقت واحد، وفي لحظة واحدة؛ لحظة الإفطار تجد الصمت الجميل يعم بلادهم. . . وانتظر الجميع تكبير المؤذن، فيحمدوا الله على إتمام صومهم، ويفرحوا بفطرهم.

وفي الليل يقومون خلف إمام واحد يقف كلٌّ منهم إلى جانب أخيه؛ فليكن هذا التوحد بين القلوب كما هو في المظهر والصورة.

ثانيًا: أن نحسِّن أخلاقنا ونتفادى أسباب الشحناء؛ الوقاية خير من العلاج: ومن أخطر أسباب التباغض والتشاحن هذا اللسان الذي يكب الناس على وجوههم في النار؛ فكُلُّه آفات ومزالق. . . وطوبى لمن قيَّد لسانه إلا عن نُطْقٍ بذكر أو أمر

(١) أخرجه مسلم (٢٥٥٨).

بمعروف أو نهي عن منكر أو خير وحق... فإياك أن تخطئ في حق إخوانك المسلمين؛ بغِيبَة أو سخرية أو نميمة أو همز أو لمز، وإياك أيضًا أن تخطئ في حقهم بظن سيء أو تجسس أو تتبع لعوراتهم... وكلنا يعلم الآيتين اللتين نهى اللَّه - تعالى - فيهما عن هذه الأمور القبيحة، فيقول - جل وعلا - في سورة الحجرات مؤدِّبًا المجتمع الإسلامي حتى يكون مجتمعًا طاهرًا نظيفًا متحابًا؛ سياجه وحرسه التقوى... فيذكِّرهم أولاً بطبيعة العلاقة بينهم، فيقول: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠]، وبعد تذكيرهم بهذه الأخوة الإيمانية يؤدبهم بعد ذلك بما ذكرنا، فيقول: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحجرات: ١٠-١٢].

ففي هذه الآيات يحذرنا اللَّه - عز وجل - من السخرية واللمز

والتنابز بالألقاب والظن السيئ والتجسس والغيبة، فأما السخرية، فهي ما يبدر من المرء نحو أخيه من الاستهزاء، أو الاستقلال، أو ازدراء واحتقار له - ولو بالشعور - أو اعتقاد بأنه أعظم منه ناسيًا ميزان اللَّه - عز وجل - وقد يدعو إلى سخرية الرجل من أخيه كون أحدهما غنيًا والآخر فقيرًا، أو كون أحدهما متعلمًا والآخر جاهلاً، أو كون أحدهما قويًا والآخر ضعيفًا، أو كون أحدهما ذكيًا والآخر ساذجًا، أو كون أحدهما حسن الصورة والآخر دميمًا... وكلها مقاييس لا اعتبار لها في ميزان اللَّه وإنما الاعتبار بالتقوى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، والساخر لا يكون تقيًا بل الساخر دائمًا متكبر؛ إذ السخرية دلالة على الكبر، كما في الحديث: «**الكبر بطر الحق وغمط الناس**»[١] أي: احتقارهم وازدراؤهم، وهذا ملازم للسخرية، واللَّه - عز وجل - ينبه هذا الساخر الغافل عن الميزان الحق علَّه يستفيق من غفلته وغروره، وذلك بقوله - عز وجل -: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ [الحجرات: ١١] فالتلويح بكلمة ﴿عَسَىٰ﴾ فيه تنبيه وتخويف للساخرين المغرورين بذكر الميزان الحق؛ فهناك قيم يعلمها اللَّه وقد تكون خافية عليهم؛ فعليهم أن يتذكروا ذلك ويحذروا منه

(١) أخرجه مسلم (٩١).

﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾.

وللسخرية أوجُهٌ وصوَر كثيرة قد تخفى على الكثيرين وتنتشر حتى بين الخيِّرين، منها: أن تضحك إذا تكلم أخوك إشعارًا له أو لمن حوله بأن كلامه قاصر، أو أن تعتقد أن أخاك لا يمكن أن يخطُئك أو يستدرك عليك شيئًا في يوم من الأيام، أو لا يستطيع أن يقول كلمة أو رأيًا أصوب مما تقول، ومنها عدم الإنصات لمن يحدثك.

فعلى المسلم اجتناب جميع صور السخرية (كبيرها وصغيرها) مع الغريب أو الصديق؛ فالبعض يتساهل في السخرية وإطلاق اللسان مع صديقه الذي وثِق به بحجة أنهما قد اعتاد كلٌّ منهما على الآخر... فإن المسلم يجب أن يعتاد على حفظ لسانه مع الجميع، وقد كان المصطفى ﷺ والأنبياء لا يسبون كلبًا ولا بهيمة... وقد علّمنا رسول الله ﷺ عند سماع نهاق الحمير أو نباح الكلب أن نستعيذ بالله[1]، وإذا عثرت الدابة أن نقول: باسم الله[2]... على خلاف ما يفعله البعض من السب للحيوان والجماد... وغير ذلك.

---

(١) أخرجه أحمد (١٤٢٨٣) وحسنه الأرنؤوط.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٤٩٨٤) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٤٠١).

وأما اللمز، فهو: أن تعيب أخاك بالقول وهو حاضر.

وأما التنابز بالألقاب، فهو: أن تنادي أخاك بلقب يكرهه.

وأما الظن المنهي عنه، فهو: التهمة والتخوف في غير محله، فهذا الظن يجب ترك الكثير منه مخافة القليل ﴿ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]، ولم يقلِ اللَّه: اجتنبوا الظن... وإنما قال: ﴿كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ لأن بعض الظن مطلوب؛ وهو الظن بأهل الفساد ومن عُرِفوا بالشر، وأعداء الدين؛ فهؤلاء من الغفلة والحماقة إحسان الظن بهم، بل قد نُهينا عن إحسان الظن بأمثال هؤلاء، كما في قوله - تعالى -: ﴿وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ١١٨] أما المسلمون الذين لم يُعرَفوا بالشر، فحرام أن نظن بهم سوءًا، وفي هذا قال رسول اللَّه ﷺ: «**إياكم والظن؛ فإن الظن أكذب الحديث**»[(١)]، وقال عمر رضي الله عنه: «ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك إلا خيرًا وأنت تجد لها في الخير محملاً».

وأما التجسس، فهو: أن تطلب معرفة الأخبار التي لم يظهرها صاحبها. وتأمل تمامًا هذا الكلام لتدرك مدى تفريطنا في أوجه

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٦٤) ومسلم (٢٥٦٣).

الشرع، والبحث عن العورات، واستماع حديث القوم وهم له كارهون.. والله - عز وجل - ينهانها عن التجسس، والرسول ﷺ كذلك يحذرنا منه ويقول: «**إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم**»(١).

وفي هذا رد على من ظن أنه إذا تتبع عورة أحد وعرف عنه شيئًا؛ فأحرجه أن ذلك يصلحه، والعكس أصوب لِمَا في ذلك من إثارة العند وإسقاط حاجز الحياء؛ فلا يعود يراجع نفسه بعد الانكشاف.

واعلم أن هناك فرقًا بين ستر المؤمن أو عدم التجسس وبين السكوت على المنكر؛ فالنهي إنما هو عن محاولة معرفة ما يتستر به، لكن إذا ظهر ما يتستر به وعرفه أخوه المسلم دون قصد التفتيش عنه، وجب عليه النصيحة والموعظة والإنكار دون أن يُشيع أمره ويتحدث عنه بغير ضرورة أو مصلحة راجحة.

فاحذروا من ألسنتكم؛ حماية لكم من الذنوب وحفظًا لصومكم من الضياع... ومن الأمور الخطيرة التي تدل على قلة التقوى، وتذهب بثواب الصوم: الغيبة، وهي: ذكرك أخاك بما يكره، قال أبو هريرة رضي الله عنه: قيل: يا رسول الله! ما الغيبة؟ قال: «**ذكرك أخاك بما يكره**» قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٨٨) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٢٩١).

قال: «**إن كان فيه ما تقول، فقد اغتبته وإن لم يكن فيه ما تقول، فقد بهتَّه**»(١).

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قلت للنبي ﷺ: حسبك من صفية كذا وكذا - تعني قصيرة - فقال ﷺ: «**لقد قُلتِ كلمة لو مُزجت بماء البحر لمزجته**»(٢).

وعن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خطبنا رسول اللَّه ﷺ حتى أسمع العواتق، أي: الفتيات الأبكار في بيوتها، أو قال: في خدورها، أي: من علو صوته وغضبه ﷺ فقال: «**يا معشر من آمن بلسانه ولم يفضِ الإيمان إلى قلبه! لا تؤذوا المسلمين، ولا تعيِّروهم، ولا تتبعوا عوراتهم؛ فإنه من تتبع عورة أخيه، تتبع اللَّه عورته، ومن تتبع اللَّه عورته، يفضحه في جوف رحله**»(٣).

إذا شئت أن تحيا سليمًا من الأذى ... وذنبكَ مغفورٌ وعِرضُك صيِّنُ
لسانَك لا تذكر به عورةَ امرئ ... فكلُّك عوراتٌ وللناسِ ألسُنُ

وقال ﷺ: «**لما عُرج بي، مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم، قلت: من هؤلاء يا جبريل؟**

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨٩).
(٢) أخرجه أبو داود (٤٨٧٥) وصححه الألباني في صحيح السنن (٢٥٠٢).
(٣) أخرجه الترمذي (٢٠٣٢) وصححه الألباني في غاية المرام (ص ٢٤٠).

قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم»[(١)].

وقال ﷺ: «**من أكل برجل مسلم أكلة، فإن الله يطعمه مثلها من جهنم، ومن كُسِي برجل مسلم، فإن الله يكسوه مثله في جهنم، ومن قام برجل مقام سمعة ورياء - أي: عابه وفضحه وشهَّر به بين الناس؛ ليُظهر نفسه - فإن الله يقوم به مقام سمعة ورياء يوم القيامة**»[(٢)] أي: يفضحه على رءوس الخلائق... واعلم أخي المسلم أنه كما تُحَرَّم الغيبة، يحرم سماعها مع السكوت وعدم الذب عن أخيك المسلم الذي يؤكل لحمه، قال ﷺ: «**ما من امرئ يخذل امرءًا مسلمًا في موضع تُنتهك فيه حرمته ويُنتقص فيه من عرضه، إلا خذله الله - تعالى - في موطن يحب فيها نصرته، وما من امرئ ينصر مسلمًا في موضع يُنتقص فيه من عرضه ويُنتهك فيه من حرمته، إلا نصره الله - عز وجل - في موطن يحب فيها نصرته**»[(٣)].

ثالثًا: الجود والصدقة: للأسف قد لا نفهم من الجود إلا الجود على بطوننا! وليس هذا هو المراد، لكنه السخاء في الإنفاق في

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٧٨) وصححه الألباني في الصحيحة (٥٣٣).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٨٨١) وصححه الألباني في الصحيحة (٩٣٤).

(٣) أخرجه أحمد (٣٦٣٦٨) وأبو داود (٤٨٨٤) وحسنه الألباني في صحيح الجامع.

سبيل الله. . . الإنفاق من أجل الدعوة، والتصدق على الفقراء والمساكين وأهل الحاجات، وإكرام الأصحاب والأضياف، وفي الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ كان أجود الناس بالخير وكان أجود ما يكون في رمضان، كان جبريل يلقاه في كل ليلة من رمضان فيعرض عليه النبي ﷺ القرآن، فلَرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة[1].

وزاد أحمد في رواية: لا يُسأل عن شيء إلا أعطاه[2].

اللّهُ أعطاكَ فابذُل مِن عطيَّتِهِ فالمالُ عاريةٌ والعمرُ رحَّالُ

المالُ كالماءِ إن تُحبَس سواقيهِ يأسن، وإن يَجرِ، يَعذُبُ منهُ سلسالُ

والبعض قد يُرى سخيًا على أصحابه في المآكل والمشارب، لكنه لا يتبرع من أجل الدعوة، ولا تطيب نفسه بالإنفاق على الفقراء والمساكين خاصة الذين لا يعرفهم، ومن الناس من ينفق على أصحابه ويتبرع من أجل الدعوة، ولكنه لا يتصدق على المحتاجين! ومقتضى الجود أن يكون السخاء سمة للعبد؛ فلا يكون حريصًا على المال، بل يقول به هكذا وهكذا؛ ففي صحيح البخاري عن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له:

---

(١) أخرجه البخاري (٦ و١٩٠٢) ومسلم (٢٣٠٨).

(٢) أخرجه أحمد (٢٠٤٢) وصححه الأرنؤوط.

«إن المكثرين هَمُ المقلُّون يوم القيامة إلا من قال بالمال هكذا وهكذا، وقليل ما هم»[١].

رابعًا: الاستكثار من العبادة: من تلاوة للقرآن، وقيام لليل، وذكر ودعاء... فإن ذلك من آكد الشعائر المستحبة وأظهرها في رمضان وأقربها؛ لتحقيق مغفرة ما تقدم من الذنوب والآثام، وفي الصحيحين والسنن: **«من قام رمضان إيمانًا واحتسابًا غُفِر له ما تقدم من ذنبه»**[٢] ولم يترك ﷺ هذا القيام حتى يوم بدر، كما قال علي رضي الله عنه فيما رواه عنه الإمام أحمد في مسنده: **«لقد رأيتنا وما فينا إلا نائم، إلا رسول الله ﷺ تحت شجرة يصلي ويبكي حتى أصبح...»**[٣].

ويُستَحب الإكثار من تلاوة القرآن ليس نهارًا فحسب، بل ليلاً؛ يحمد الله؛ ففي حديث ابن عباس أن المدارسة بينه ﷺ وبين جبريل - عليهما السلام - كانت ليلاً لقوله رضي الله عنه : وكان جبريل يلقاه كلَّ ليلة من رمضان؛ فيدارسه القرآن[٤].

فدل على استحباب الإكثار من التلاوة في رمضان ليلاً؛ فإن

---

(١) أخرجه البخاري (٢٣٨٨).

(٢) أخرجه البخاري (٣٧ و٣٨) ومسلم (٧٦٠).

(٣) أخرجه أحمد (١٠٢٣) وصححه الأرنؤوط.

(٤) تقدم تخريجه.

الليل تنقطع فيه الشواغل وتجتمع فيه الهمم ويتواطأ فيه القلب واللسان على التدبر كما قال تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ٦].

وينبغي للمسلم أن يعظِّم شأن هذه العبادة (تلاوة القرآن في رمضان) ويقدمَها على ما سواها؛ قال ابن عبد الحكم: كان مالك إذا دخل رمضان، يفر من قراءة الحديث ومجالسة أهل العلم وأقبل على تلاوة القرآن من المصحف، وقال عبد الرزاق الصنعاني: كان سفيان الثوري إذا دخل رمضان ترك جميع العبادة وأقبل على قراءة القرآن، وكانت عائشة - رضي الله عنها - تقرأ في المصحف أول النهار في شهر رمضان، فإذا طلعت الشمس نامت.

فاجتهد أخا الإسلام! في الإكثار من ختم كتاب اللّه - جل وعلا - في هذا الشهر ولا تصيره شهر غفلة ولغو ونوم.

ومما يعينك على قيام الليل تذكُّر الأجر والتوبة والعفو عن الخطيئة والذنب، وتذكُّر ظلمة القبر ووحشته وهمه؛ فقيام الليل نور لظلمة القبور.

كان أبو الدرداء يقول: صلوا في ظلمة الليل ركعتين لظلمة القبور، صوموا يومًا شديدًا حره لحر يوم النشور، تصدقوا بصدقة لشر يوم عسير.

وعلى الصائم أن يجعل هذا الشهر كذلك شهر تضرُّع ودعاء؛ فإن دعاء الصائم لا يُرد، ولكل مسلم دعوة مستجابة في كل يوم وليلة.

روى البزار عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ثلاث دعوات مستجابات: دعوة الصائم، ودعوة المظلوم، ودعوة المسافر»**[١]، وفي رواية: **«ثلاث دعوات لا تُرد: دعوة الوالد لولده، ودعوة الصائم، ودعوة المسافر»**[٢]، وفي أخرى: **«دعوة الوالد على ولده»**[٣].

وينبغي أن يزيد الصائم في الاهتمام والجد في العشر الأواخر، ويعظِّم شأن القيام في هذه الليالي، ويتنظف ويتزين، ويستعد لاستقبال فضل الله ولتعظيم شأن تلك الليالي، وليكون أكثر نشاطًا وحضورًا في الصلاة، وقد كان كثير من السلف يغتسل قبل العشاء في ليالي العشر، قال ابن جرير: كانوا يحبون أن يغتسلوا كل ليلة من ليالي العشر الأواخر، وكان النخعي يغتسل في العشر كل ليلة، ومنهم من كان يغتسل ويتطيب في الليالي التي أرجى لليلة القدر.

---

(١) صحيح الجامع (٣٠٢٧).

(٢) صحيح الجامع (٣٠٢٩).

(٣) صحيح الجامع (٣٠٢٨).

وقال حماد بن سلمة: كان ثابت البُناني وحميدٌ الطويلُ يلبسان أحسن ثيابهما ويتطيبان ويطيبان المسجد في الليلة التي ترجى فيها ليلة القدر، وقال ثابت: كان لتميم الداري حلة اشتراها بألف درهم وكان يلبسها في الليالي التي ترجى فيها ليلة القدر.

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: فتبين بهذا أنه يُستحب في الليالي التي ترجى فيها ليلة القدر التنظيف والتزيُّن والتطيُّب بالغسل والطيب واللباس الحسن، كما يُشرَع ذلك في الجُمَع والأعياد.

ومما يستقبل به المسلم العشر الأواخر - خاصة - ويُظهر فيه مزيد الاجتهاد في تلك الليالي الاعتكاف واعتزال النساء.

وهذه السُّنة العظيمة نريد أن نحييها ونريد أن لا تُهمَل مع الأيام.

وقد كان ﷺ وهو أكثر المسلمين أعباءً وانشغالاً يعتكف العشر في رمضان ويعتكف معه أصحابه

كن كالصحابة في زهدٍ وفي ورعٍ القومُ همُ ما لهم في الناسِ أشباهُ
عبَّادُ ليلٍ إذا جنَّ الظلامُ بهم كم عابدٍ دمعُهُ في الخد أجراهُ

خامسًا: الإقلاع عن الذنوب: وأن يتوب منها ويرعوي عن المعاصي، وأعظم من ذلك أن ينخلع قلبه بالكلية عن التعلق بشيء سوى اللَّه - جل وعلا - ففكره وقلبه وروحه كل ذلك مع اللَّه - تعالى - فلا يتعلق قلبه بفضول المباحات فضلاً عن المعاصي والآثام.

أهلُ الخصوصِ من الصوَّام صومُهمُ   صونُ اللسانِ عن البهتانِ والكذب
والعارفون وأهلُ الأنسِ صومُهمُ   صونُ القلوبِ عن الأغيارِ والحجُبِ

فالصوم إنما شُرع لتحصيل التقوى؛ فمن لم يدع قول الزور والعمل به والجهل، فليس للّه حاجة في أن يدع طعامه وشرابه، ورب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع، ورب قائم ليس له من قيامه إلا السهر، فلنجعل رمضان شهر توبة وإجابة، وشهر خشية للّه وتقوى.

واتل القرآن وسبِّح فيه مجتهدًا   فإنهُ شهرُ تسبيحٍ وقرآنِ
كم كنتَ تعرفُ ممن صام في سلفٍ   من بين أهلٍ وجيرانٍ وإخوان
أفناهُمُ الموتُ واستبقاك بعدهُمُ   حيًا فما أقربَ القاصي من الداني

نسأل اللّه - تعالى - أن يبارك لنا في رمضان، ويخرجنا منه مغفورًا لنا!

❊ ❊ ❊

٤- رمضان شهر للجهاد بالقرآن

أ. د. جعفر شيخ إدريس

رمضان الكريم هو الشهر الذي أنزل اللّه - تعالى - فيه كتابه الحكيم؛ هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان.

والقرآن الكريم هو أساس الجهاد الكبير المستمر؛ الجهاد بالكلمة؛ حيث أمر اللّه - تعالى - رسوله ﷺ والمؤمنين معه بأن يجاهدوا الكفار بالقرآن الكريم جهادًا كبيرًا؛ أمرهم بذلك وهم مضطهَدون بمكة منهيون عن القتال بالسيف، مأمورون بأن يكفُّوا أيديهم ويقيموا الصلاة.

أنزل اللّه - تعالى - على رسوله قوله: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢]؛ فأمره بأمرين مهمين؛ علينا أن نتذكرهما ونعمل بهما ولا سيما في هذا الشهر العظيم:

أمره أولاً: بألّا يطيع الكافرين؛ لا يطيعهم في أي أمر فيه مخالفة لِما أنزل اللّه - تعالى - عليه في أمور الإيمان والعبادات والأخلاق والدعوة ومحاولتهم توهين أمره.

وأمره ثانيًا: بألّا يقف عند حدود هذا الموقف السلبي مع عِظَم أهميته، بل أن يخطو خطوة أخرى: هي جهاد الكفار بالقرآن

الكريم جهادًا كبيرًا.

والجهاد الكبير كما تقول كتب التفسير: هو الجهاد الجامع لكل مجاهَدة. ونحن؛ إذ نتحدث في هذا المقال عن الجهاد بالقرآن لا نعني نفي الجهاد بالسيف؛ فقد كانت معركة الإسلام الكبرى في يوم الفرقان يوم التقى الجمعان في رمضان، وإنما الذي نريد تأكيده هو أنه: إذا كان الجهاد بالسيف قد ينقطع لبعض الوقت ولبعض الأسباب؛ فإن الجهاد بالكلمة؛ كلمة الله - تعالى - جهاد مستمر وقد يكون شاقًا، لكنه جهاد لا بد منه؛ كان قبل القتال ويكون أثناءه وبعده.

إنه جهاد لا بد منه؛ لأنه جهاد لا تعلو كلمة الله - تعالى - إلا به.

أريد في هذا المقال أن أُذكِّر الإخوة الصائمين بأمور تتعلق بالجهاد بالقرآن:

أريد أولاً: أن أدعو من كان منهم قادرًا على تدبُّر القرآن الكريم وهو يتلوه في هذا الشهر، أن ينظر في الآيات الكريمة التي يرى فيها إبطالاً لما يراه جديدًا من شبهات الكفار والمنافقين وسائر أهل الزيغ والضلال، ولما يراه فيها من كشفٍ لدوافعهم الخبيثة، وبيانٍ لطُرُقهم في نشر باطلهم، وتحذير للمؤمنين من التأثر بها؛ أريد لهذا القارئ الكريم أن ينظر في مثل هذه الآيات، ثم

يتسلح بها في مواجهته لأولئك الضالين، مستعينًا بما كتبه عنها مَنْ سبقه من علماء الأمة الفضلاء، ثم يخوض معركته بالوسائل المهيأة له؛ فإن كان من أهل الكتابة كتب، وإن كان من أهل الحديث تحدث، وإن كان من أصحاب الحوار حاور، وإن أكرمه اللَّه؛ فكان من أهل ذلك كلِّه فليجعله كلَّه طريقًا لإعلاء كلمة اللَّه وقمعًا لمن يسعون لإطفاء نور اللَّه، وليحرص ما أمكنه الحرص على أن ينتشر هذا الحق بكل الوسائل الحديثة المشروعة حتى يطَّلع عليه الناس؛ فإذا لم يطلع عليه اطلاعًا مباشرًا من كان الكلام ردًا عليه، فربما اطلع غيره فبلَّغه إليه.

وأريد ثانيًا: أن أذكِّر من لم يكن مؤهَّلًا لشيء من ذلك أنه ما زالت أمامه أبواب أخرى للجهاد بالقرآن الكريم؛ من ذلك أن كثيرًا من المؤسسات الخيرية تقوم بتوزيع ترجمات للقرآن الكريم والكتب الشرعية، من استطاع أن يساعدها مساعدة مباشرة، فليفعل، وإلا فليحُثَّ على مساعدتها من يراه قادرًا على ذلك.

فكثير من ممن يعيش في الصين واليابان والهند وإفريقيا، وغيرها من أرض اللَّه لا يستطيع أهلها الاطلاع المباشر على كتاب اللَّه في لغته العربية التي أنزله اللَّه - تعالى - بها.

فهذا عمل جليل؛ لأنه عون على الانتصار في ما يسمى بالمعركة الثقافية؛ لكسب قلوب الناس ما تزال تزداد احتدامًا في عصرنا؛

فالغرب يستعمل كل ما لديه من وسائل إعلامية؛ لنشر ثقافته وما يسميه بـ: قِيَمِه، والمسلمون يتأثرون بهذه الثقافات في معتقداتهم وأفكارهم وأزيائهم وسائر أنواع سلوكهم، لكنَّ المسلمين أيضًا يؤثِّرون في الغرب وسائر البلاد غير الإسلامية تأثيرًا عميقًا مرتكِزًا أساسًا على دينهم، وآية ذلك أن الكثيرين منهم إذا عرفوا الحق لم يأبهوا لما يرونه من دعايات رسمية وغير رسمية ضد الإسلام، بل آمنوا به كله؛ فصاروا يُصلُّون ويصومون ويزكُّون ويحجون؛ فعلى المسلم أن يدخل هذه المعركة إن لم يكن قد دخلها من قَبْل، وعليه أن يزيد من جهده في شهر الصيام إن كان ممن شرَّفهم اللَّه - تعالى - بدخولها.

إن المسلم الصادق العارف بما يدور في عالمه لا يمكنه أن يقف متفرجًا في هذه المعركة الثقافية التي تدور رحاها بين المسلمين وخصومهم وأعدائهم؛ لا يمكنه أن يظل متفرجًا وهو يرى أولئك الخصوم لا يكتفون بنشر أباطيلهم؛ بل يتعدون ذلك إلى تشويه الإسلام تشويهًا نرى آثاره على كثير من الناس في بلادنا وبلادهم.

خذ على سبيل المثال ما قاله صاحب كتاب (سوء الفهم القاتل)[1]: كنت في ذلك الوقت أعتقد أن الإسلام دين عنف،

---

(١) ألَّفه عضو في الكونغرس الأمريكي يعد جمهوريًا محافظًا ونصرانيًا إنجيليًا، وصدر في عام ٢٠٠٨م.

وأن القرآن يدعو إلى إبادة كل من ليس مسلمًا، وأن القرآن والإسلام أمور شريرة، وأنها أمور إلحادية؛ مثلها في ذلك مثل الشيوعية التي كان العمل على هزيمتها هو هدف السياسة الخاريجية الأمريكية.

إن ما يطلبه الكفار من المسلمين في هذه المعركة الفكرية هو عكس ما يأمرهم به دينهم؛ إنهم يطلبون منهم ألَّا يدافعوا عن أراضيهم حتى لو غُزوا في عِقر دارهم، وإلا كانوا إرهابيين مجرمين، بل صاروا يقرنون بين الجهاد والإرهاب؛ فيُسمُّون الكثيرين ممن يصفونهم بالإرهابيين جهاديين، وصاروا يطلبون من المسلمين ألَّا يدافعوا عن دينهم أو يردوا على الكافرين به حتى بالكلمة، وإلا كانوا متطرفين مفرِّقين للناس غير راضين بالتعايش السلمي معهم، لكن ديننا يعلِّمنا أن هنالك فَرقًا بين أن تسالم أعداء دينك، وأن تعترف لهم بباطلهم؛ فالمطلوب من المسلمين أن يعيشوا في سلام مع من كل من يريد أن يعيش معهم في سلام، لكن المطلوب منهم في الوقت نفسه أن يقوموا بتبليغ رسالة نبيهم، وأن يبلِّغوها بالتي هي أحسن. ولا تَضَاد بين هذا وذاك؛ إذ إن هنالك فَرقًا بين المسالمة والمداهنة. ثم لنتذكر أن هذا الجهاد بالقرآن الكريم هو نفسه عبادة من أعظم العبادات، وأنه ربما كان أبلغ في شهر الصيام والقرآن؛ حين

تصفو النفوس - بإذن اللَّه - وتكون أكثر إخلاصًا، وأشدَّ حبًا للحق، وأكثر كراهية للباطل، وأقدر على تدبُّر القرآن الكريم؛ إنه جهاد يبتغي به المؤمن المخلص إعلاء كلمة اللَّه، ويعمله ابتغاء رضوانه - سبحانه - إن العمل الجهادي لا يذهب هباءً أبدًا، بل إما أن يهتدي به بعض الضالين؛ فيكون قد زاد من الخير، ويكون ذلك خيرًا له من حُمْر النَّعَم، وإما أن يكون فيه قمع لأهل الباطل وتقليل من شرهم، وإما أن يجتمع الأمران كلاهما؛ فيكون خيرًا على خير.

والمؤمن وإن كان يعلم هذا، لا يُعلِّق عمله على رؤية هذه النتائج، بل يكِل أمرها إلى اللَّه - تعالى - كما قال اللَّه - سبحانه - لنبيه ﷺ: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: ٤٦].

***

٥- الحكمة من الصيام

إن التقوى من أهم الصفات التي يحرص الإسلام على تحلِّي المسلمين بها؛ لما لها من أثر عظيم على حياة المسلم في الدنيا، ولما يناله بسببها من خيرات الآخرة وكرامتها، لذلك كان المقصد الأعظم والهدف الأسمى من كل التشريعات هو الوصول بالمسلم إلى منزلة المتقين.

ونحن حين ننظر فيما أمر اللَّه تعالى به أو نهى عنه؛ سواء ما كان متعلقًا بالقلب أو بالجوارح، نجد النصوص الواردة فيها كلها تؤكد على تلك الحقيقة.

والتقوى حالة قلبية ومنزلة إيمانية رفيعة، ومرتقى عالٍ لا يُنال إلا بالمجاهدة والمصابرة؛ فهي تطبع صاحبها بطابَع الخشية للَّه في السر والعلن، كما تحمله على المراقبة الدائمة لأقواله وأفعاله ومقاصده، وتتعاهد قلبه حتى لا يعكر صفو إيمانه شيء مما يدخل به الشيطان على النفوس، فلا يكاد يُدخِل الشيطان عليه شيئًا من باطله إلا انتبه له. فالتقوى تجعل للمسلم حاسة قوية يدرك بها كيد الشيطان؛ فإذا مرَّ به الخاطر الشيطاني فإن تقواه تعصمه منه حتى يصير مستبصرًا مستيقظًا وعارفًا بمداخله وضلالاته كما قال اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ

طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، فتجعل التقوى من داخل المسلم على نفسه حسيبًا رقيبًا، يمسك بزمامها ويقهرها قهرًا على فعل الطيبات وترك المنكرات، حتى تلين ويسلس قيادها له، فلا تعود تأمره إلا بخير ولا تدله إلا على خير، وتلتصق التقوى به التصاقًا حتى تصير له بمنزلة اللباس الذي لا يفارقه. قال تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٦]، فكما أن اللباس كان زينة الظاهر فإن التقوى زينة الباطن ولا تكمل الزينة إلا بوجود الزينتين.

وقد أظلّتنا المنحة السنوية والنفحة الربانية، فأقبل علينا شهر رمضان الذي كتب الله علينا صيامه وسن لنا رسول الله ﷺ قيامه؛ حتى نحقق فيه التقوى ونتحلى بها. قال الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]: «الصوم يورث التقوى؛ لما فيه من انكسار الشهوة وانقماع الهوى؛ فإنه يردع عن الأشَر والبطَر والفواحش، ويهوّن لذّات الدنيا ورياستها؛ وذلك لأن الصوم يكسر شهوة البطن والفرج، وإنما يسعى الناس لهذين؛ فمن أكثرَ الصوم هان عليه أمر هذين وخفَّت عليه مؤنتهما، فكان ذلك رادعًا له عن ارتكاب المحارم

والفواحش، ومهوِّنًا عليه أمر الرياسة في الدنيا، وذلك جامع لأسباب التقوى، فيكون معنى الآية: فرضت عليكم الصيام لتكونوا به من المتقين الذين أثنيت عليهم في كتابي، وأعلمت أن هذا الكتاب هدى لهم»[١].

فليس المقصود من الصيام الجوع والعطش المجردين من تأثيرهما على المسلم.

قال رسول اللَّه ﷺ: **«من لم يَدَعْ قول الزور والعمل به فليس للَّه حاجة في أن يَدَعَ طعامه وشرابه»**[٢]. والزور يشمل الكذب والجهل والسفه، وقد بين اللَّه تعالى أن القصد من كل ما شرعه سواء في العقيدة أو الشريعة أن تصبح التقوى صفة لازمة للمسلم؛ ففي ستة مواضع من القرآن يعقِّب اللَّه تعالى على التشريع بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]، وفي ستة مواضع أخرى بلفظ: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، ولذلك جاء الأمر بالتقوى والوصاية بها لكل من أرسل اللَّه تعالى لهم الرسل، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١]، وكانت وصية الرسول ﷺ لبعض أصحابه الأمر بالتقوى،

(١) مفاتيح الغيب، للرازي، في تفسير قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ الآية.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، رقم (١٩٠٣).

فقال لأبي ذر رضي الله عنه : **«اتقِ اللَّه حيثما كنت»**[١]. وعن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: «صلى بنا رسول اللَّه ﷺ الصبح فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول اللَّه! كأنها موعظة مودع؛ فأوصنا! فقال: **أوصيكم بتقوى اللَّه والسمع والطاعة. . .** »[٢].

وقال أنس رضي الله عنه : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول اللَّه! أريد سفرًا فزوّدني! فقال: **«زوّدك اللَّه التقوى»**. . الحديث[٣]؛ فأول ما بدأ به التقوى. وكان رسول اللَّه ﷺ إذا بعث أميرًا على سرية أو جيش أوصاه في خاصة نفسه بتقوى اللَّه ومن معه من المسلمين خيرًا[٤]. وكان الأمر بالتقوى وصية الرسل لأقوامهم؛ فها هو ذا نوح وهود وصالح ولوط - عليهم السلام - كل منهم يقول لقومه: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾.

وكانت وصية أصحاب رسول اللَّه ﷺ من بعد ذلك؛ فها هو ذا

---

(١) أخرجه الترمذي كتاب البر، رقم (١٩٨٧)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وقال الألباني: حسن، وفي رواية أنه من مسند معاذ.

(٢) الترمذي: كتاب العلم، رقم (٢٦٧٦)، وقال: هذا حديث صحيح.

(٣) الترمذي: كتاب الدعوات، رقم (٣٤٤٤)، وقال: هذا حديث حسن غريب، وقال الألباني: حسن صحيح.

(٤) أخرجه مسلم: كتاب الجهاد، رقم (١٧٣١).

أبو بكر رضي الله عنه خطب في المسلمين، فقال: «أوصيكم بتقوى اللَّه»[١]، وها هو ذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: «أوصي الخليفة من بعدي بتقوى اللَّه»[٢]، «وكُنَّ نساء أهل المدينة إذا أردن أن يبنين بامرأة على زوجها، بدأن بعائشة فأدخلنها عليها، فتضع يدها على رأسها تدعو لها، وتأمرها بتقوى اللَّه وحق الزوج»[٣]، وها هو ذا عمر بن عبد العزيز رحمه الله يكتب لبعض عماله فيقول: «أوصيك بتقوى اللَّه»[٤].

والأحاديث والآثار في ذلك كثيرة جدًّا لا يمكن أن نستقصيها هنا. وقد جاء الأمر بالتقوى في كتاب اللَّه تعالى في أكثر من ستين موضعًا، كما وردت مادة (التقوى) وما تفرّع منها في أكثر من مائة وتسعين موضعًا مما يدل على الأهمية الكبرى للتقوى في ميزان الإسلام.

وبجولة يسيرة على آيات الكتاب العزيز نجد أن المراد من المأمور به أو المنهي عنه تحقيق التقوى. قال اللَّه تعالى فأصل الأمر بالإيمان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة: (٨/ ١٤٤).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة: (٨/ ٥٧٧)، السنن الكبرى للنسائي: (٦/ ٤٨٥).

(٣) مصنف ابن أبي شيبة: (٣/ ٣٩٨).

(٤) الإبانة الكبرى، لابن بطة.

﴿قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، وقد بيّن الله تعالى حكمته في الأمر بالقصاص فقال: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩]، وقال عندما أمر عباده بالصيام: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]، ولما أمر عباده باتباع الصراط المستقيم والبعد عن الطرق المخالفة له.

قال سبحانه: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وعندما نهى المسلمين عن مباشرة النساء في الاعتكاف قال: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٧].

ويقول الله تعالى عندما أمر عباده ببعض مناسك الحج التي منها ذبح الهدي: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡ﴾ [الحج: ٣٧].

وقد تكلم أهل العلم عن حد التقوى؛ فعن علي ﷺ قال: «التقوى الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والرضى بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: «أن رجلًا قال له: ما التقوى؟ قال: هل وجدت طريقًا ذا شوك؟ قال: نعم! قال: فكيف صنعتَ؟ قال: إذا رأيت الشوك عدلت عنه أو جاوزته أو قصرت عنه. قال: ذاك التقوى»(١)، وقال ابن القيم: «وأصل التقوى معرفة ما يتقى ثم العمل به؛ فالواجب على كل عبد أن يبذل جهده في معرفة ما يتقيه مما أمره الله به ونهاه عنه، ثم يلتزم طاعة الله ورسوله»، وقال: «وأما التقوى فحقيقتها العمل بطاعة الله إيمانًا واحتسابًا أمرًا ونهيًا، فيفعل ما أمر الله به إيمانًا بالأمر وتصديقًا بوعده، ويترك ما نهى الله عنه إيمانًا بالنهي وخوفًا من وعيده، كما قال طلق بن حبيب: إذا وقعت الفتنة فأطفئوها بالتقوى! قالوا: وما التقوى؟ قال: أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله، وهذا أحسن ما قيل في حد التقوى»(٢).

* بعض فضائل التقوى: وقد بيّن الله تعالى أن خير ما يتزود به الإنسان في سفره إلى الله والدار الآخرة هو التقوى، فقال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه «أنه خرج

(١) فتح القدير: (١/ ٥٢).
(٢) الرسالة التبوكية، (ص ١٠).

إلى المقابر، فلما أشرف على أهل القبور رفع صوته فنادى: يا أهل القبور! أتخبروننا عنكم أو نخبركم خبر ما عندنا؟ أما خبر ما قِبَلَنا فالمال قد اقتُسِمَ، والنساء قد تزوجن، والمساكن قد سكنها قوم غيركم، هذا خبر ما قِبَلَنا، فأخبرونا خبر ما قِبَلَكم؟ ثم التفت إلى أصحابه فقال: أمَا واللَّهِ لو استطاعوا أن يجيبوا لقالوا: لم نرَ زادًا خيرًا من التقوى»[١]، ويقول ابن القيم: «فكما أنه لا يصل المسافر إلى مقصده إلا بزاد يبلِّغه إياه، فكذلك المسافر إلى اللَّه تعالى والدار الآخرة لا يصل إلا بزاد من التقوى؛ فجمع بين الزادين»[٢].

وقد ربط اللَّه الفلاح بالتقوى فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١٨٩]، فالذي يُرجى فلاحه هو المتقي. وكانت من أعظم المنة على المتصفين بصفة التقوى أن اللَّه تعالى لم يجعل له أولياء غيرهم فقال تعالى: ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤]، وحصر قبول الأعمال فيهم فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]، حتى يقول أبو الدرداء: «لأَن أستيقن أن اللَّه قد تقبل مني صلاة واحدة أحب إليّ من الدنيا وما فيها، إن اللَّه يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ

---

(١) التمهيد لابن عبد البر: (٢٠/ ٢٤٢).

(٢) إغاثة اللَّهفان: (١/ ٥٨).

﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]»[1].

وكان مطرف بن عبد اللّه يقول: «اللّهم تقبل مني صلاة يوم، اللّهم تقبل مني صوم يوم، اللّهم اكتب لي حسنة، ثم يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]»[2].

وقد خصهم اللّه تعالى بمعيّته التي لا يضام من كان معه فقال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤] قال قتادة: «من يتقِ اللّه يكن معه، ومن يكن اللّه معه فمعه الفئة التي لا تُغلب، والحارس الذي لا ينام، والهادي الذي لا يضل»[3].

وجعل لهم محبته فقال: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦]، ومن كرمهم على ربهم أنهم يُحشرون إليه وفدًا: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ [مريم: ٨٥]، قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لا، واللّهِ ما على أرجلهم يُحشَرون، ولا يحشر الوفد على أرجلهم، ولكن بنوق لم يرَ الخلائق مثلها، عليها رحائل من ذهب، فيركبون عليها حتى يضربوا أبواب الجنة»[4]. وجعل

---

(١) تفسير ابن كثير: (٣/ ٨٥).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة: (٨/ ٢٤٥).

(٣) حلية الأولياء: (٢/ ٣٤٠)، جامع العلوم والحكم: شرح الحديث التاسع عشر.

(٤) رواه عبد اللّه ابن الإمام أحمد في زوائد المسند، رقم (١٣٣٥).

للمتقين بصيرة نافذة تورثهم فرقانًا يفرقون به بين الحق والباطل.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩].

وبالتقوى يحفظ المسلم ذريته بعد موته؛ فمن أهمّه أمر ذريته بعد الموت فليتق اللَّه ربه؛ قال تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾[النساء: ٩].

وكانت تقوى اللَّه تعالى هي المخرج للمسلم من المضايق الدنيوية والأخروية، وهي السبيل إلى سعة الرزق حيث يأتيه الرزق من حيث لا يتوقع. قال اللَّه تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣]، وفي تقواه تعالى تكفير السيئات وتكثير الأجر وتعظيم الثواب. قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ [الطلاق: ٥]، وكانت تقوى اللَّه مما ييسر للعبد أمور دينه ودنياه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤]، قال ابن القيم: «فالمتقي مُيَسَّرة عليه أمور دنياه وآخرته، وتاركُ التقوى وإن يُسِّرَت عليه بعض أمور دنياه تعسر عليه من أمور آخرته بحسب ما تركه من التقوى، وأما تيسير ما تيسر عليه من

أمور الدنيا فلو اتقى الله لكان تيسيرها عليه أتم، ولو قدر أنها لم تتيسر له فقد يسر الله له من الدنيا ما هو أنفع له مما ناله بغير التقى؛ فإن طيب العيش ونعيم القلب ولذة الروح وفرحها وابتهاجها من أعظم نعيم الدنيا، وهو أجلُّ من نعيم أرباب الدنيا بالشهوات واللذات»[١]. وجعل للمتقين أعظم الانتفاع والاهتداء بكلامه فقال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، ومن كرامتهم عليه فقد أعدَّ لهم جنات عريضة لا يقدرها حق قدرها إلا الذي خلقها، فقال: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وجعل لهم العاقبة الباقية وخصهم بها فعُقباهم خير وأمرهم لا يئول إلا إلى خير، فقال: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]. وعندما يَرِدُ الناس على الصراط فلا ينجو مما هم عليه إلا المتقون. قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا﴾ [مريم: ٧٢].

هذه منح عظيمة وعطايا ربانية لا يقدر أن يحدها حادٌّ، وها هو ذا شهر الصيام، شهر التقوى والقيام ومدارسة القرآن، شهر الجود والإحسان، أقبل علينا بخيره ومِنَحِه وبركاته، فهل من إقبال

(١) التبيان في أقسام القرآن، (ص ٣٦).

صادق على اللّه يقدّر هذا الشهر حقه وقدره، وأوبة وتوبة يمحو اللّه بها الخطايا ويقيل بها من العثرات ويقي من الزلل، ونكون بها من المتقين؟ اللّهم اكتب لنا ذلك واجعلنا من الذين يتقونك حق التقوى.

* * *

٦- خيرات الصيام
﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾

د. عبد الكريم بكار

كان من منّة اللّه تعالى على هذه الأمة أن شرع لها من الدين ما يصلح أمر دنياها وآخرتها، وكان من أهمّ ما شرعه صوم شهر رمضان المبارك.

والعبادات في الإسلام تكاليف ابتلاء، ومقياس يكشف عن مدى تمكن الإيمان في نفس المسلم، وهي في الوقت ذاته وسائل لتمكين ذلك الإيمان، إنها له بمثابة الماء للشجر والنبات.

وآيات الصيام لم تعدد لنا أنواع الخيرات التي سنحصل عليها من وراء هذه العبادة؛ ليظل عطاء هذه العبادة مفتوحًا متنوعًا تظهره التجربة التاريخية الاجتماعية، والواقع المعاش، ونستطيع الآن من خلالهما أن نتلمس وجوهًا من ذلك الخير في المفردات التالية:

١ - إن الصيام وسيلة فعالة لتربية الإرادة الحرة: حيث لا توجد عبادة من العبادات تكفُّ المسلم عن شهواته وملذاته مدة متصلة من الزمان كهذه العبادة، فهي تدريب لإرادة المسلم على مقاومة الأهواء والملذات ومغريات الحياة. والمتأمل فيما يتفاوت فيه الناس في هذا الوجود يجد أن محور التفاوت هو الإرادة لا

القدرة، فالقدرات الفطرية لدى الناس متقاربة لكن تفاوتهم الأساس يكون في مدى صلابة الإرادة التي تُسخّر القدرة وتوجهها والتي تعين على ضبط الوقت، وتكبح جماح الهوى والركون إلى الدعة وسفاسف الأمور، ومن هنا فإن الصيام جاء لينمي تلك الإرادة وليُعَوِّدها التوجه إلى الخير ومقاومة نزوات النفس؛ ولذا فإن تفريط المسلم في أداء هذه الشعيرة صار لدى العامة من المسلمين مؤشرًا إلى نقص في رجولته، وهذا هو تفسير قيام كثير من المسلمين بالصيام مع تفريطهم في الصلاة، مع أن أهميتها في الإسلام أعظم! ويذكر لنا ابن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) أن هناك صنفًا من الناس لو ضرب بالسياط على أن يفطر رمضان ما أفطره، ولو ضرب على أن يصلي ما صلى! وما ذلك إلا لأن الناس عدوا الإفطار نقصًا في الرجولة، ولم يعدوا الصلاة كذلك، وقوله سبحانه: ﴿وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في أعقاب ذكر الرخصة للمريض والمسافر بالفطر إيماءة للمسلم بأنه من الأفضل له أن يصوم مع المرض المحتمل والسفر غير الشاق، ليكون في تحقيق إرادته نوع من المكابدة والمعاناة في سبيل الله عز وجل، وحتى لا يصير بعض الناس إلى إيجاد الرخص والتذرع بها للفرار من الواجبات.

٢- الصيام عبادة سلبية، كيف؟ فهو امتناع عن أنواع

المفطرات، ومن ثم فإنه بعيد عن الرياء، وخرق تلك العبادة أمر ميسور في السر لمن أراد ذلك، ومن هنا فإن صيام رمضان فرصة لتنمية الوازع الداخلي لدى المسلم، هذا الوازع الذي تعد تنميته محور التربية الفردية الناجحة، والملموس أن تعاظم هذا الوازع لا يتم إلا من خلال الثقة به والاعتماد عليه في شؤون عديدة، فهو في ذلك أشبه شيء بعضلات الجسم في أن نموها في استخدامها وتحريكها والاعتماد عليها؛ ولذا فإننا نرى ضعف الوازع الداخلي لدى أولئك الذين يأتون الفضائل ويقومون بالواجبات من خلال قسر الأبوين أو المجتمع، فهم يفعلون ما يفعلونه نتيجة ضغط خارجي، فإذا ما ضعف ذلك الضغط أو تلاشى أتوا من الرذائل والقبائح وأنواع التحلل ما يتناسب طردًا مع حجم الضغوط التي تعرضوا لها فيما مضى؛ وهذا يجعلنا نساوق بين الرقابة الاجتماعية وتنمية الوازع الداخلي من خلال التربية البيتية القويمة.

٣- في الصيام فوائد طبية واقتصادية واضحة: فهو يخلص الجسم من بعض ما تراكم فيه من الدهون، ويريح المعدة من العمل الشاق الذي تقوم به على مدار السنة مع فوائد طبية أخرى معروفة.. وفي الصيام توفير إجباري لنحو ٤٠٪ من استهلاك الأطعمة والأشربة الذي تعوده الناس في أيام الفطر، وفي هذا

نوع من التعظيم للمالية الإسلامية ونوع من المحافظة على الموارد الغذائية للأمة المسلمة.

٤- من خيرات رمضان أنه أضحى ظرفًا لأداء أنواع من القربات للَّه: فقد تجاوز صيام هذا الشهر مفهوم التلبس بعبادة من العبادات ليصبح نوعًا من الامتثال لمفردات كثيرة في المنهج الرباني، ففيه قيام الليل والإكثار من قراءة القرآن والاعتكاف في المساجد ولزوم الجماعات من قبل كثير من المسلمين، وإخراج صدقة الفطر، والاستبشار بعفو اللَّه وكرمه بما تظهر الأمة من البهجة والسرور في يوم عيدها، فكأن شهر رمضان مناسبة لازدحام العبادات والقربات في حياة المسلم على نحو لا يتوفر في أي وقت آخر.

٥- يمثل الصيام نوعًا من الاتصال والتواصل الاجتماعي: حيث ترسم الظروف اليومية والمصالح والأوضاع الاجتماعية والطموحات الخاصة مجموعة من الأطياف العازلة لكل إنسان عن غيره مما يؤدي إلى فقد الاتصال أو ضعفه، وفقد الاتصال في مجتمع ما من أكبر المعوقات له عن النمو والتجانس والصمود في وجه الكوارث وألوان العدوان الخارجي، ومن ثم فإن امتناع أبناء المجتمع المسلم عن الطعام في وقت واحد مهما كانت أوضاعهم الاجتماعية وتناولهم له في وقت آخر محدد،

إلى جانب الشعائر الجماعية الأخرى التي تعودها المسلمون في هذا الشهر المبارك من أهم ما يوحد الشعور بالتجانس، ومن أهم ما يزيل الحواجز التي تولدها الظروف المختلفة.

الصيام اليوم: إن مهمة المبادئ العليا أن تكيف حياة الناس وتوجهها وفق مضامينها ومعطياتها، لكن تلك المباديء لا تعمل في فراغ، وإنما تشتبك مع أمور عديدة من جملتها: العادات الموروثة والظروف الضاغطة والأهواء والشهوات الجامحة والتأويلات والأفهام الخاطئة للمنهج والمباديء، وهذا كلُّه ينتهي إلى شأن اجتماعي معاش يلخصه ميل الناس بصورة دائمة إلى جعل النهج الرباني جزءًا من ثقافتهم، وقد يكون جزءًا صلبًا، وقد يكون جزءًا رخوًا على مقدار إقبال الناس على الإسلام وهي التي تجعل من المنهج موجهًا للثقافة ومهيمنًا عليها. ومن هنا فإن أخطر علل التدين هي تلك التي تصيب الأمة في مكانة منهجها ومبادئها من ثقافتها العامة، فتكف المبادئ عن توجيه الفعل، أو تنحرف عن غاياتها ومقاصدها، فلا تحقق الحكم المقصودة في تشريعها، ويكون الجهاد الدائم هو محاولة الإبقاء على المنهج الرباني ساطعًا متألقًا متميزًا عما تواطأ عليه الناس من عادات وتقاليد.

ومازال بحمد اللّه في مجتمعنا المسلم من يحرص على الصيام

على الوجه الأكمل، وهم في تزايد مستمر لكن الأكثرية الكاثرة من هذه الأمة انحرفت بالصيام عن مقاصده التي ذكرنا أهمها آنفًا، فعلى حين كان السلف يعدون رمضان فرصة سانحة يغتنمونها في صنوف الطاعات، نجد كثيرًا من المسلمين يسهرون الليل في ضروب من اللَّهو المختلفة حتى إذا اقترب وقت السحر تناولوا ما لذ وطاب من الأطعمة، ثم ناموا قبل أداء صلاة الفجر، وإذا كان هذا النائم موظفًا فإن وقت بداية العمل في رمضان يكون متأخرًا، فيقوم متثاقلاً إلى عمله ليكمل نومه هناك! وإن كان غير موظف فإن رمضان هو شهر النوم عنده فيستغرق في نومه إلى قبيل المغرب، فيفوت عليه أكثر من فريضة صلاة!! ومع هذا فإن الشعار المرفوع لدى كثير من الموظفين هو أن رمضان شهر عبادة وليس شهر عمل (العبادة التي قدمنا صورة منها!).

أما تهذيب النفس من خلال الجوع فحدث عن هذا ولا حرج، حيث إن التجار يشرعون في الإعداد لمستلزمات رمضان قبل مجيئه بنحو شهرين، وتقدر بعض الجهات أن ما يستهلكه كثير من المسلمين في رمضان يصل إلى ثلاثة أمثال ما يستهلكونه في غير رمضان!! وقد صار رمضان عبئًا ثقيلاً على الحكومات التي توفر السلع المدعومة لمواطنيها! وقد كان السلف يدعون اللَّه تعالى ستة أشهر أن يبلغهم رمضان، فإذا انصرم دعوا اللَّه ستة أشهر

أخرى أن يتقبل منهم أعمالهم في رمضان. أما اليوم فإن كل وسائل الإعلام في العالم الإسلامي تشعر الناس بأن رمضان ضيف ثقيل فكأنه شر لابد منه، ومن ثم فإن كثيرًا من البرامج ينصرف إلى الترفيه عن الناس بما يجوز وما لا يجوز، وانقلب الشهر المبارك إلى موسم للَّهو واللعب! وما يحدث لكثير من المسلمين في هذا الشهر المبارك أمر مفهوم، حيث أن الأمة حين تمر بحالة من الركود الحضاري تكف مبادئها عن الفعل، وتسيطر عليها الشكليات والعادات، فجيوشها لا تقاتل، ومبدعوها لا يعرفون والفضائل فيها شعارات، والعبادات عادات. . وتستمر في ذلك حتى تندثر باعتبارها أمة متميزة أو يبعثها اللَّه بعثًا جديدًا يحيي ما اندرس من سابق عهدها، وما ذلك على اللَّه بعزيز.

* * *

٧- آيات الصيام. . والدعوة إلى الإسلام
تأمل أسلوب الدعوة في آيات الصيام

أ. د. جعفر شيخ إدريس

الإسلام دعوة ومنهاج: دعوة إلى الله، ومنهاج لتبليغ هذه الدعوة، سواء كان التبليغ لأناس مؤمنين، أو لأناس لم يؤمنوا بعد، ومنهاج البلاغ هذا ليس مبينًا بالوصف فقط كما في مثل قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، بل وبالمثال أيضًا. والمثال يكون بالطريقة التي يدعو بها الخالق - سبحانه وتعالى - عباده - كما سنرى في آيات الصيام - وبالطريقة التي يدعو بها الرسلُ أقوامهم، كما في مثل قوله تعالى عن نوح: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [هود: ٢٥ - ٣٤] والتي يدعو بها الذين ساروا على سنتهم من الإنس كما في مثل قوله - تعالى - عن مؤمن آل فرعون: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ [غافر: ٢٨ - ٣٤]، بل ومن الجن كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟﴾ [الأحقاف: ٢٩ - ٣٢].

ومثل الدعوة في هذا كمثل الصلاة والصيام والحج؛ فكما أننا نعرف الصلاة والصيام والحج معرفة علمية نظرية، ثم نصلي كما عَلِمْنا كيف كان الرسول ﷺ يصلي، ونأخذ عنه مناسك حجنا، فكذلك نعرف طرق الدعوة معرفة نظرية علمية، ثم نعرفها معرفة عملية بمعرفتنا للطرق التي دعا بها أنبياء اللَّه - تعالى - ودعا بها سائر عباده الصالحين الذين قص اللَّه - تعالى - علينا قصصهم في هذا المجال. لكن المسائل التي بُينت لنا طرقُها العملية نوعان: نوع لا يتأتى فعله إلا من العباد كالصلاة والزكاة، ونوع نسترشد فيه إلى جانب ذلك بالطريقة التي يعامل اللَّه - تعالى - بها عباده، كطريقة الدعوة إليه، وآياتُ الصيام التي هي موضوعنا في هذا المقال خيرُ مثال على هذا النوع الأخير.

إن الغاية من هذه الآيات هي أمر المسلمين بصيام شهر رمضان، ولو شاء اللَّه - تعالى - لأمرنا بها أمرًا مجردًا لا استعطاف فيه ولا تعليل؛ فهو الربُّ ونحن عبيده، ومن حقه أن يأمرنا بما شاء، ومن واجبنا أن نطيعه بغير سؤال ولا مراء.

لكن اللَّه - تعالى - أعلم بطبيعة النفوس التي خلقها، وبأحسن الطرق إلى هدايتها وعطفها على قبول الحق والعمل به. لذلك نراه - سبحانه - لا يأمر عباده بالصيام أمرًا مجردًا بل يسوق كلَّ الحقائق التي من شأنها أن تعطف قلوبهم إلى الخير الذي يأمرهم به.

يقول - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣- ١٨٧] فيخاطبهم بأحب أوصافهم إليهم. وهذا الخطاب وإن كان خطابًا عامًا إلا أنه يجعل المستمع الفرد يُؤَمّل في الدخول في سلك هؤلاء الذين شهد اللَّه - تعالى- لهم بالإيمان. وهل بعد الشهادة الإلهية من شهادة؟ وإذا كان يرجو أن يكون مؤمنًا حقًا بعمله بما كتب اللَّه عليه، فما أقل الصيام من ثمن لهذا الإكرام!

﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾: بما أن الإنسان قد يتردد في الإقدام على أمر يراه صعبًا ولا يرى له فيه سلفًا، فإذا تبين له أن الأمر قد جربه أناس قبله، فأغلب الظن أنه سيقول لنفسه: إذا كان الصيام قد كتب على من قبلنا فصاموا، فما الذي يمنعنا نحن من أن نصوم؟ وإذا لم نكن أول من جرب الصيام بل جربه أناس قبلنا ونجحوا في التجربة، فما الذي يمنعنا نحن من أن ننجح كما نجحوا؟ ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾: فالغاية من الصيام ليست تعذيب الإنسان بمنعه من الطعام والشراب والنكاح، وإنما أتى هذا المنع وسيلة ضرورية لغاية شريفة هي التقوى، والتقوى هي سبيل النجاة من عذاب اللَّه؛ وهي من ثَمَّ سبيل الفوز بجزائه ومرضاته، ولهذا كانت التقوى هي الغاية التي تحققها كلُّ عبادة من العبادات التي أمرنا اللَّه - تعالى - بها.

﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾: لم يكلفنا الله - تعالى - بصيام السنة كلّها ولا بأكثرها، وإنما هي ثلاثون يومًا من أيام العام التي تبلغ أكثر من ثلاثمائة وخمسين يومًا. وكلمة معدودات تعبر عن قلة هذه الأيام. والمؤمن يقول لنفسه: ولماذا لا أصوم أيامًا معدودات وأكسب التقوى التي وعد الله بمنحها لمن يصومها؟

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾: ولأن الغرض من الصيام هو التقوى لا مجرد تعذيب البدن؛ فإن الله - تعالى - قد أعفى من صيام هذه الأيام المعدودات من كان مريضًا أو على سفر؛ لما قد تسببه هاتان الحالتان من مشقة زائدة على الأمر العادي.

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾: والأيام المعدودات التي أمرنا الله بصيامها هي أيام شهر لا كسائر الشهور، إنه شهر رمضان الذي شرفه الله - تعالى- بأن أنزل فيه القرآن، وذلك أنه كما أن الله - تعالى - أعلم حيث يجعل رسالته بالنسبة للبشر، فهو - سبحانه - أعلم حيث ينزل رسالته بالنسبة للأزمنة؛ لأنه كما أن بعض البشر أفضل من بعض فإن بعض الأزمنة والأمكنة أفضل من بعض ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨]. ولهذه المناسبة القوية بين القرآن وشهر رمضان، فإن النبي ﷺ كان يعرض القرآن على جبريل في

كل رمضان، ثم إنه عرضه عليه مرتين في العام الذي توفي فيه ﷺ. ولهذه المناسبة أيضًا فإنه يستحب لنا الإكثار من تلاوة القرآن ولا سيما في صلاة التراويح.

﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾: هذه أهم خصائص القرآن، الكتاب الذي أنزله الله في شهر رمضان، أنه هدى للناس، وأنه بينات من الهدى ومن الفرقان.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾: إنها لحكمة بالغة أن تنزل هذه الآية الكريمة ضمن آيات الصيام. إن في الصيام شيئًا من المشقة، ما في ذلك من شك؛ لكن الآية تؤكد لنا أن هذه المشقة ليست مرادة لذاتها، وإنما هي مشقة قليلة محتملة تجلب تيسيرًا روحيًا كبيرًا، هو نيل التقوى؛ فهي إذن ثمن قليل يدفعه الصائم لنيل عوض كبير. ولما كان المراد من أوامر الله ونواهيه كلها هو اليسر لا العسر؛ فقد أذن - تعالى - بالفطر لمن كان في حال يكون الصيام فيه عليه عسيرًا.

لكن اليسر ليس شيئًا متروكًا لأهواء الناس الذين لا يحيط علمهم بكل عواقب الأعمال والتروك، وإنما ينظرون إلى بعض جوانبها دون بعض، وإلا فلو ترك أمر اليسر لتقديرات الناس لقال أكثرهم: إن الصيام عسر لا يسر، وما دام الأمر كذلك وما دامت أوامر الله - تعالى - ونواهيه مبنية كلها على اليسر، فإن

المنهج الصحيح للاختيار بين آراء المجتهدين هو أن يختار ما دلَّ الدليل على أنه أقرب للحق؛ لأن ما كان أقرب إلى الحق فهو الأقرب إلى اليسر. أعني أنه لا ينبغي للعالم أن يجعل ما يعتقده يسرًا هو المعيار الذي يفضل به اجتهادًا على اجتهاد؛ لأن ما يظنه يسرًا قد يكون في الحقيقة عسرًا، بل عليه أن يبذل جهده في النظر في أدلة المجتهدين ليفضل ما كان منها أقرب للحق موقنًا بأن ما كان أقرب للحق؛ فهو الأقرب إلى اليسر.

أعاننا الله وإياكم على صيام شهر رمضان، وجعلنا وإياكم من خير الدعاة إلى الإسلام

* * *

٨- حتى لا تصبح صلاة التراويح عادة

سلمان بن عمر السنيدي

يقيم المسلمون شعيرة قيام الليل في ليالي رمضان، وقد كان السلف يطيلونها، حتى إنهم يستريحون في أثنائها ليجددوا النشاط والعزم؛ فاصطُلح بعد ذلك على تسميتها: (صلاة التراويح)، والمسلم يقيمها ويحرص على حضورها كاملة مع إمامه، لينال فضائل عديدة.

فضائل صلاة التراويح:

من أهم فضائل صلاة التراويح ما يلي:

١- فضيلة قيام رمضان:

لحديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللّه ﷺ كان يرغب في قيام رمضان من غير أن يأمرهم فيه بعزيمة، فيقول: «**من قام رمضان إيمانًا واحتسابًا غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه**»[(١)]، وقوله: «**إيمانًا**» يعني: إيمانًا بما وعد اللّه من الثواب للقائمين، وقوله: «**احتسابًا**» يعني: طلبًا لثواب اللّه لا رياءً ولا سمعة ولا طلبًا لجاه[(٢)]،

---

(١) رواه مسلم، (١٤٧)، وروى آخره البخاري، (٤/ ٢١٧، ٢١٨)، ومسلم (٧٥٩).

(٢) انظر: مجالس شهر رمضان، (ص ٢٠).

ولحديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«من قام مع إمامه حتى ينصرف كتب له قيام ليلة»**[١].

فضيلة قيام الليل: لقوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٦-١٧]. ولحديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«أفضل الصلاة بعد الصلاة المكتوبة صلاة الليل»**[٢]، ولحديث جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«إن في الليل ساعة لا يوافقها رجل مسلم يسأل الله خيرًا من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه وذلك كل ليلة»**[٣].

فضيلة كثرة السجود: لقوله ﷺ لثوبان رضي الله عنه: **«عليك بكثرة السجود لله؛ فإنك لن تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة، وحط بها عنك خطيئة»**[٤]، وعن ربيع بن كعب الأسلمي رضي الله عنه قال: كنت مع رسول الله ﷺ، فأتيته بوضوئه وحاجته، فقال لي: سل. فقلت: مرافقتك في الجنة، قال: **أَوَ غير ذلك؟**

---

(١) رواه أبو داود، (١٢٤٥)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود، والإرواء، (٤٤٧).

(٢) رواه مسلم، (ح/ ١١٦٣).

(٣) رواه مسلم، (ح/ ٧٥٧).

(٤) رواه مسلم، (ح/ ٤٨٨).

قلت: هو ذاك. قال: **فأعني على نفسك بكثرة السجود»**[١].

فضيلة إكمال نقص الفرائض بالتطوع: لقوله ﷺ: **«إن أول ما يحاسب العبد عنه يوم القيامة الصلاة؛ فإن كان أتمها كتبت له كاملة، وإن لم يكن أتمها قال اللَّه عز وجل: انظروا! هل لعبدي من تطوع فتكملون بها فريضته»**[٢].

وبرغم هذه المقاصد والفضائل فقد اعتاد بعض المصلين لصلاة التراويح على أدائها بطريقة معتادة، مع غفلة عن الفضائل، أو ذهول عن المقاصد التي شرع من أجلها قيام رمضان، أو ربما أدوها مع هجر لبعض السنن التي كان النبي ﷺ يواظب عليها أو يفعلها أحيانًا، أو التزموا فيها سننًا لم يلتزمها ﷺ كالتزامهم للواجبات؛ فربما أصبحت حال بعضهم كما وصف الرسول ﷺ: **«إن العبد ليصلي الصلاة ما يكتب له منها إلا عُشرها، تُسعها، ثمنها، سبعها، سدسها، خمسها، ربعها، ثلثها، نصفها»**[٣]، ولهذا توجه التنبيه على ما يعين المصلين على حسن أدائهم لصلاتهم.

---

(١) رواه مسلم، (ح/ ٤٨٩).

(٢) رواه أحمد، (٤/ ١٠٣)، والترمذي، (٢/ ٢٦٩)، (ح/ ٤١٣)، وقال: حديث حسن غريب.

(٣) رواه ابن المبارك في الزهد، (١٠/ ٢١)، وأبو داود والنسائي قال الألباني: بسند جيد صفة الصلاة، (٣٦).

٢ - الاقتداء بالنبي ﷺ:

لقوله ﷺ: «**صلوا كما رأيتموني أصلي**»(١)، وقوله ﷺ: «**تقدموا فأتموا بي، وليأتم بكم من بعدكم**»(٢)، وقيل في معنى الحديث: تعلموا مني أحكام الشريعة، وليتعلم منكم التابعون بعدكم، وكذلك أتباعهم إلى انقراض الدنيا(٣).

وفي الحرص على سنة المصطفى فضائل جمة وكثيرة يجملها ابن قدامة رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله: «وفي اتباع السنة بركة موافقة الشرع، ورضى الربِّ سبحانه وتعالى ورفع الدرجات، وراحة القلب، ودَعَة البدن، وترغيم الشيطان، وسلوك الصراط المستقيم»(٤).

٣ - أهمية العمل بالسنن:

للعمل بالسنن والمستحبات أجور وغنائم من علم بها شمَّر عن ساعد الجد، وابتدر ميدان التنافس، وسابق إلى خيرات ربه، ومن أعظم ما يحفز المرء على ذلك الحديث القدسي العظيم الذي قال

---

(١) رواه البخاري، (٦٣١، ٧٢٤٦)، من حديث مالك بن الحويرث رضي الله عنه، ورواه أحمد، (٥/ ٥٣)، والدارمي، (١/ ٢٨٦)، والدارقطني، (١/ ٢٧٢)، والبيهقي، (٢/ ١٧).

(٢) رواه مسلم، (٤/ ١٥٨).

(٣) انظر: فتح الباري، لابن حجر، (٢/ ٢٠٥).

(٤) كتابه (ذم الموسوسين)، (ص ٤١).

فيه النبي ﷺ: «**إن الله تعالى قال: من عادى لي وليًا، فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، وكنت رجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه**»[(١)].

٤ - آثار هجر السنن:

لهجر السنن آثار متعددة؛ فمن ذلك أنه لما اعتاد كثير من الناس أداء صلاة التراويح بطريقة ثابتة شبَّ عليها الصغير، وهرم عليه الكبير، حسبوا أن السنة المشروعة لصلاة الليل لا تكون إلا كذلك؛ وهذا فيه خلل كبير؛ ولهذا حذر الأئمة من هذا المسلك؛ فقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «هجرُ ما وردت به السنة وملازمة غيره قد يفضي إلى جعل السنة بدعة»[(٢)]، «ولهذا أكثرُ المداومين على بعض الأنواع الجائزة، أو المستحبة، لو انتقل منه لنفر عنه قلبه وقلب غيره، أكثر مما ينفر عن ترك كثير

---

(١) رواه البخاري، (٦٥٠٢)، وأبو نعيم في الحلية، (١/ ٤)، والبيهقي في الزهد، (٦٩٠)، والسنن، (٣/ ٣٤٦، ١٠/ ٢١٩)، والبغوي في شرح السنة (١٢٤٨)، انظر: تخريج الأرناؤوط لجامع العلوم، (٢/ ٣٣٠).

(٢) الفتاوى، (٢٢/ ٦٦).

من الواجبات؛ لأجل العادة التي جعلت الجائز كالواجب»[١]، حتى إنه قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن أصرَّ على ترك السنن الرواتب دلَّ ذلك على قلة دينه، وردت شهادته في مذهب أحمد والشافعي وغيرهما»[٢].

وقال عبد اللَّه بن مبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لم يُبتلَ أحدٌ بتضييع السنن إلا يوشك أن يبتلى بالبدع[٣].

بل عد ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن ملازمة نوع من السنة وهجر نوع آخر من كيد الشيطان وتلاعبه على ابن آدم، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا يجعل أحدكم نصيبًا للشيطان في صلاته ألَّا ينصرف إلا عن يمينه، قد رأيت رسول اللَّه ﷺ أكثر ما ينصرف عن شماله»[٤] يعني بعد السلام، ولذلك قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولبَّس الشيطان على آخرين منهم؛ فهم يطيلون الصلاة، ويكثرون القراءة، ويتركون المسنون في الصلاة، ويرتكبون المكروه فيها»[٥]؛ فما الشأن إذا كان «كثير من الناس اليوم يصلون

(١) الفتاوى، (٢٤/ ٢٤٨).
(٢) الفتاوى، (٢٣/ ٨٨، ١٢٧).
(٣) الاعتصام، (١/ ١٢٨).
(٤) أخرجه البخاري، (٨٥٢)، ومسلم (٧٠٧).
(٥) تلبيس إبليس، (ص ١٣٦).

التراويح بسرعة عظيمة، لا يأتون فيها بواجب الهدوء والطمأنينة التي هي ركن من أركان الصلاة، ولا تصح الصلاة بدونها، فيخلون بهذا الركن، ويتعبون من خلفهم من الضعفاء، والمرضى، وكبار السن؛ يجنون على أنفسهم، ويجنون على غيرهم. وقد ذكر العلماء رحمهم اللّٰه أنه يكره للإمام أن يسرع سرعةً تمنع المأمومين فعل ما يسن؛ فكيف بسرعة تمنعهم فعل ما يجب، نسأل اللّٰه السلامة»[١].

قال النووي رَحِمَهُ اللهُ في صفة التراويح: «كصفة باقي الصلوات، . . . كدعاء الافتتاح واستكمال الأذكار الباقية، واستيفاء التشهد والدعاء بعده. . . وإن كان هذا ظاهرًا معروفًا فإنما نبهت عليه لتساهل أكثر الناس فيه، وحذفهم أكثر الأذكار»[٢]، و«ما اعتاده أئمة المصلين في التراويح من الإدراج في قراءتها والتخفيف في أركانها. . . وسبب جميع ذلك إهمال السنن، واندراسها لقلة الاستعمال، حتى صار المستعمل لها مجهلاً عند كثير من الناس لمخالفته ما عليه السواد الأعظم»[٣].

(١) مجالس شهر رمضان، (ص ٢١)، وقد نبه إلى نحو هذا الألباني في كتابه صلاة التراويح، (ص ٩٩).

(٢) من كتابه الأذكار، (ص ١٥٦).

(٣) كتاب العامري (بهجة المحافل وبغية الأماثل في تلخيص السير والمعجزات والشمائل) نقلاً من كتاب صلاة التراويح للألباني، (ص ١٠٥).

٥ - من دعا إلى خير فله مثل أجره:

إن مما هيأ اللّه للأئمة من فضل في رمضان[١]، وفي غيره: فرصة تعليم الناس ودلالتهم على الخير؛ فقد كان النبي ﷺ يتخول الصحابة بالموعظة، ويستثمر اجتماع الناس للصلاة، فيحدثهم نساءً، ورجالاً، وكفى الإمام حافزًا لذلك أن الملائكة تستغفر لمعلم الناس الخير، وأن من تعلم منه سنة بقوله أو فعله فله أجر من عمل بها، لقوله ﷺ: «**من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا**»[٢].

وغير خاف أن تذكير الناس بما هم يباشرونه من عبادة مقدم في التعليم؛ وذلك للحاجة إليه؛ وخاصة إذا كثرت المخالفات جهلاً أو إهمالاً، كأحكام الصلاة والصيام، فريضة ونفلاً، وأن يخص هنا التنبيه إلى أهمية تعليم الناس هدي المصطفى ﷺ قبل العمل به إذا كان سنة مهجورة، أو غير مألوفة عند عامة المصلين؛ فإن ذلك أدعى لقبول الحق، وأحرى بحسن التسليم والانقياد.

حتى لا تنحسر روح العبادة في صلاة التراويح: ومن أجل ألَّا تصبح صلاة التراويح، وقيام الليل عادة، تنحسر فيها روح العبادة،

(١) يرجع إلى سماع المحاضرة القيمة: (رمضان فرصة للتعليم والدعوة)، لفضيلة الشيخ محمد المنجد.

(٢) رواه مسلم، الصحيحة، (٨٦٣).

يتأكد التنبيه على الأمور الآتية[١]:

١ - الاستفتاح بصلاة خفيفة: لما روى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا قام أحدكم من الليل فليفتتح صلاته بركعتين خفيفتين**»[٢]، وروت عائشة رضي الله عنها مواظبة رسول الله ﷺ على ذلك فقالت: «كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل افتتح صلاته بركعتين خفيفتين»[٣].

٢ - تنويع أدعية الاستفتاح: وإن طال السكوت بعد تكبيرة الإحرام وقبل القراءة اقتداءً بالنبي ﷺ؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: «بأبي وأمي يا رسول الله! أرأيت إسكاتك بين التكبير والقراءة ما تقول؟ قال: أقول: **اللَّهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب، اللَّهم نقني من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، اللَّهم اغسل خطاياي بالماء والثلج والبرد**»[٤].

وثبت عن عمر رضي الله عنه أنه كان يجهر بدعاء الاستفتاح: «سبحانك

---

(١) ومنها أمور عامة لا تختص بصلاة الليل.

(٢) رواه مسلم، (٧٦٨)، وأبو داود، (١٣٢٣، ١٣٢٤).

(٣) رواه مسلم، (٧٦٧).

(٤) رواه البخاري، (٧٤٤)، ومسلم، (٥٩٨)، وأحمد (٦٨٦٧)، وأبو داود، وابن ماجه (٧٩٧)، والدارمي، (١٢١٦)، والنسائي، (٨٨٥).

اللَّهم وبحمدك»[١].

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كان ﷺ إذا قام من الليل افتتح صلاته: «**اللَّهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختُلف فيه من الحق بإذنك؛ إنك تهدي إلى صراط مستقيم**»[٢].

وأحاديث الاستفتاح كثيرة[٣]، وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالأفضل أن يستفتح بكل واحد؛ فلكل استفتاح حاجة ليست لغيره، فيأخذ المؤمن بحظه من كل ذكر»[٤].

٣ - قراءة الفاتحة آية آية: فعن قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال: «سألت أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن قراءة النبي ﷺ فقال: كان يمد مدًا. ثم قرأ: بسم اللَّه الرحمن الرحيم: يمد بسم اللَّه، ويمد بالرحمن، ويمد بالرحيم»[٥].

---

(١) رواه مسلم، (٤/ ٥٢)، وعند البيهقي: قال الراوي: يسمعنا ذلك ويعلمنا، وروي فعل ذلك عن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، (١/ ٣١).

(٢) رواه مسلم، (٧٧٠)، وأبو داود، (٧٦٧).

(٣) انظر: كتاب صفة صلاة النبي ﷺ للألباني رَحِمَهُ اللَّهُ، (ص ٩١)، وقد ذكر اثني عشر حديثًا في ذلك.

(٤) الفتاوى، (٢٢/ ٣٤٢).

(٥) أخرجه البخاري، (٩/ ٧٩)، ونحوه عند أبي داود، (١٤٥٦)، والنسائي، (٢/ ١٧٩).

وعن يعلى بن مَملكٍ أنه سأل أمَّ سلمة رضي الله عنها عن قراءة رسول الله ﷺ وصلاته؟ قالت: «ما لكم وصلاته؟ ثم نعتت قراءته؛ فإذا هي تنعت قراءةً مفسرةً حرفًا حرفًا»(١). وذلك والله أعلم هو المقصود من قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

وقال ابن الجوزي: ﴿عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ [الإسراء: ١٠٦]: على تؤدة وترسُّل ليتدبروا معناه»(٢). وقوله: ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾) المزمل: ٤].

قال البغوي رحمه الله: ترتيل القراءة: التأني والتمهل، وتبيين الحروف والحركات، تشبيهًا بالثغر المرتل، وهو المشبه بنَوْر الأقحوان»(٣)، وقال القرطبي: «أي: لا تعجل بقراءة القرآن، بل اقرأه في مهل وبيان مع تدبر المعاني»(٤).

---

(١) رواه النسائي، (٢/ ١٨١)، وروى نحوه الترمذي (٢٩٢٤)، وقال: حديث حسن صحيح وأبو داود ١٤٦٦، وفي رواية: (يُقَطِّع قراءته آية آية)، رواه أبو داود، (٤٠٠١)، والدارقطني، (١٨١)، وأحمد (٦/ ٣٠٢)، قال الجزري: وهو حديث حسن، وفي رواية: قراءة (مفسرة حرفًا حرفًا) قال الألباني: بسند صحيح، صفة الصلاة، (ص ١٢٤).

(٢) زاد المسير، (٥/ ٧٠)، وانظر: أخلاق حملة القرآن، (ص ٨٢).

(٣) شرح السنة، (٢/ ٤٦٥).

(٤) الجامع لأحكام القرآن، (١٩/ ٣٧).

٤ - الوقوف عند الآيات: بالتسبيح والسؤال والتعوذ، كما روى حذيفة بن اليمان ﵁ ذلك عن رسول الله ﷺ؛ فقد قال: «صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة فافتتح البقرة فقرأها، ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها، يقرأ مترسلاً، إذا مرَّ بآية فيها تسبيح سبَّح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مر بتعوذ تعوذ، ثم ركع، فجعل يقول: **سبحان ربي العظيم**، فكان ركوعه نحوًا من قيامه، ثم قال: **سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد**. ثم قام طويلاً قريبًا من ركوعه، ثم سجد فقال: **سبحان ربي الأعلى**، فكان سجوده قريبًا من قيامه»[(١)].

ونحو ذلك روى عوف بن مالك ﵁ قال: «قمت مع النبي ﷺ ليلة فقام فقرأ البقرة، لا يمرُّ بآية رحمة إلا وقف فسأل، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف فتعوذ، ثم ركع بقدر قيامه، يقول في ركوعه: **سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة**، ثم سجد بقدر قيامه، ثم قال في سجوده مثل ذلك، ثم قام فقرأ آل عمران، ثم قرأة سورة سورة»[(٢)].

وعن حفصة أم المؤمنين ﵄ قالت: «كان ﷺ يقرأ بالسورة

---

(١) رواه مسلم، (١٧٦٤)، والنسائي، (١٦٣٣)، وأبو داود، (٨٧١)، والترمذي، (٢٦٢)، وابن ماجه، (٨٩٧).

(٢) رواه أبو داود، (٨٧٣)، وصححه النووي في المجموع، (٤/ ٦٧)، والألباني في صحيح أبي داود، (٨١٧).

فيرتلها، حتى تكون أطولُ من أطول منها»(١).

٥ - عدم قصر البكاء على أحوال مخصوصة: كمن يقصر تأثره على آيات العذاب والترهيب، أو يقصر خشوعه عند تأثر لإمامٍ وبكاءٍ، أو يقصر خشوعه وتأثره وتأمله لما يسمع في دعاء القنوت.

٦ - تنويع العمل بكيفية قيام الليل: اقتداءً بالنبي ﷺ ونشرًا لسنته، وإحياء لما اندرس منها أو هُجِرَ؛ ولقد ثبت عنه ﷺ عدة كيفيات لصلاة الليل من فعله وقوله، ولما سألت عائشة رضي الله عنها: «بكم كان رسول الله ﷺ يوتر؟ قالت: كان يوتر بأربع وبثلاث، وست وثلاث، وعشر وثلاث، ولم يكن يوتر بأقصر من سبع، ولا بأكثر من ثلاثة عشر»(٢)، وعن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«الوتر حق؛ فمن شاء فليوتر بخمس، ومن شاء فليوتر بثلاث، ومن شاء فليوتر بواحدة»**(٣).

(١) رواه مسلم، (٧٣٣)، والترمذي، (٣٧٣)، والنسائي، (١٦٥٨)، والدارمي، (١٣٥٠)، ومالك، (٢٨٥).

(٢) رواه أبو داود، (١/ ٢١٤)، وأحمد، (٦/ ١٤٩)، وصححه العراقي في تخريج الإحياء (٥٧٣)، والألباني، انظر: صلاة التراويح، (ص ٨٤).

(٣) رواه البيهقي، (٣/ ٢٧)، والدارقطني، (١٨٢)، والحاكم، (١/ ٣٠١)، وصححه ووافقه الذهبي، والنووي في المجموع، (٤/ ١٧، ٢٢)، وصححه ابن حبان كما في الفتح، (٢/ ٣٨٦)، وصححه الألباني، انظر: كتاب التراويح، (ص ٨٤).

ومن تلك الكيفيات الثابتة[١] ما يلي:

أولاً: يصلي ثلاث عشرة ركعة، يفتتحها بركعتين خفيفتين، يسلم من كل ركعتين، ثم يوتر بواحدة.

ثانيًا: يصلي ثلاث عشرة ركعة، منها ثمانٍ يسلم بين كل ركعتين، ثم يوتر بخمس لا يجلس ولا يسلم إلا في الخامسة.

ثالثًا: يصلي إحدى عشرة ركعة، لما روته عائشة رضي الله عنها قالت: «كان ﷺ يصلي أربعًا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي أربعًا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي ثلاثًا»[٢].

رابعًا: يصلي إحدى عشرة ركعة، يصلي أربعًا بتسليمة واحدة، ثم أربعًا بتسليمة واحدة ثم ثلاثًا.

خامسًا: يصلي إحدى عشرة ركعة، منها ثماني ركعات لا يقعد فيها إلا في الثامنة، يتشهد ثم يقوم ولا يسلم، ثم يأتي بركعة ثم يسلم، ثم يصلي ركعتين وهو جالس.

سادسًا: يصلي تسع ركعات، منها ست لا يقعد إلا في السادسة، ثم يتشهد ولا يسلم، ثم يقوم ثم يأتي بثلاث ركعات.

قال الحافظ ابن نصر المروزي رحمه الله: «العمل عندنا بهذه

---

(١) ما يلي ذلك مأخوذ من كتاب صلاة التراويح للألباني، (ص ٨٦)، وقد اختصرها في كتاب قيام الليل، (ص ٢٨).

(٢) رواه البخاري، (٣/ ٢٢٧)، ومسلم، (٧٣٨).

الأخبار كلها جائز، وإنما اختلفت لأن الصلاة بالليل تطوع - الوتر وغير الوتر - فكان النبي ﷺ تختلف صلاته بالليل ووتره على ما ذكرنا: يصلي أحيانًا هكذا، وأحيانًا هكذا، فكل جائز حسن»[(١)].

٧ - العمل بأدعية السجود والركوع المأثورة: وهي كثيرة مشهورة، ومنها ما يقال فيهما مثل: ما روت عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه، وسجوده: **سبحانك اللَّهم ربنا وبحمدك، اللَّهم اغفر لي؛ يتأول القرآن**»[(٢)]، وتأمل أنه يكثر أن يقول هذا الذكر وأقل الكثير ثلاثة، وأيضًا قوله: «**سبوح قدوس رب الملائكة والروح**»[(٣)]، ومما ثبت قوله في الركوع: «**اللَّهم لك ركعت، وبك آمنت، ولك أسلمت، خشع لك سمعي وبصري، ومخي، وعظمي، وعصبي**»[(٤)]، وتقدم في حديث حذيفة طول ركوعه وسجوده أنه بمقدار قيامه. ومما يستوحش منه فعل بعض الأئمة حين يطيل دعاء القنوت، حتى إذا سجد ظننته خاشعًا، فإذا به يعجل

---

(١) قيام الليل، (ص ١١٩)، نقلاً عن كتاب التراويح، للألباني، (٩٥).

(٢) أخرجه البخاري، (٤٩٦٨)، ومسلم، (ك ٤، ح/ ٢١٧)، وأبو داود والنسائي وابن ماجه.

(٣) رواه مسلم، (٤٨٧).

(٤) رواه مسلم، (٧٧١).

سجوده، ونسي الأمر بإكثار الدعاء في السجود؛ حيث يكون العبد أقرب ما يكون إلى ربه؛ فربما فوت على المصلين هذا الفضل.

٨ - إطالة ما بين السجدتين والرفع من الركوع: وذلك عملاً بالسنة المروية عن النبي ﷺ، كما تقدم في حديث حذيفة رضي الله عنه قال: «ثم قال: **سمع الله لمن حمده. فقام قيامًا نحوًا من ركوعه**»، وفي رواية: «فقام قيامًا طويلاً»(١)، وإن لم يداوم الإمام على ذلك فليفعله أحيانًا، تعليمًا للناس، وتذكيرًا لهم، وإحياءً للسنة، ومما ثبت مما يقال بين السجدتين قوله: «**رب اغفر لي، وارحمني، وعافني، واهدني، واجبرني، وارزقني**»(٢)، ومما ثبت مما يقال بعد الرفع من الركوع، قوله: «**اللَّهم ربنا لك الحمد ملء السماوات وملء الأرض، ملء ما شئت من شيء بعد**»(٣)، ونحوه بزيادة: «**اللَّهم طهرني بالثلج والبرد والماء البارد، اللَّهم طهرني من الذنوب والخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الوسخ**»(٤).

ولذلك إنك لتعجب ممن أطال الصلاة ينقر هذا الموطن فيفوِّت

(١) رواه أبو داود، (٨٧٤)، وصححه الألباني، المشكاة، رقم (١٢٠٠).
(٢) رواه أبو داود، (٨٥٠)، والترمذي، (٢٨٤)، وابن ماجه، (٨٩٨).
(٣) رواه مسلم، (٣٧٦).
(٤) رواه مسلم، (٤٧٦).

عليه فضيلة هذه الأدعية، ثم إذا قام للقنوت وعزم على إطالته لم يكن لهذه الأدعية نصيب ولا وقت.

٩ - ترك القنوت أحيانًا: ومما يلفت النظر أنه لم يثبت حديث من فعله ﷺ أنه قنت بالصحابة في صلاة الليل في رمضان، فضلًا أن يثبت أنه داوم عليه ﷺ، ولذلك كان على من أراد بيان السنة عمليًا للمصلين أن يترك القنوت أحيانًا لبيان أنه غير واجب، وأن في الصلاة مواطن للدعاء تزيد عليه في الفضيلة كالسجود ومواطن أخرى كالركوع وقبل السلام وغيرها، وكذلك في تركه أحيانًا تعليق أذهان المصلين بحسن التلقي عن النبي ﷺ؛ حيث يلتزم ما ثبت أنه التزمه، وأن يفعل أحيانًا ما كان يفعله أحيانًا.

١٠- القنوت قبل الركوع أحيانًا: وكذلك فعل القنوت قبل الركوع، فقد ثبت فعله ﷺ؛ ففعله في صلاة التراويح تعليم للناس، وترك للعادة، واستحضار لروح العبادة «لأن كثيرًا من الناس إذا أخذ بسنة واحدة صار يفعلها على سبيل العادة، ولكن إذا كان يعوِّد نفسه أن يقول أو يعمل هذا مرة وهذا مرة، صار منتبهًا للسنة»(١).

١١ - الدعاء في القنوت بالمأثور: والمأثور ولله الحمد مشهور معروف، وكثير من الأدعية القرآنية تكاد تهجر، وقد حضَّ الله على

(١) الشرح الممتع، (٣/ ٣٧).

أدعية كثيرة، ورغب فيها بأساليب مختلفة؛ فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [البقرة: ٢٠١-٢٠٢]، وفي ذكر أدعية الأنبياء عليهم السلام وأن اللَّه أجاب دعوتهم أعظم ترغيب، وكذلك ذكر أدعية الصالحين دون ذكر أعايانهم تهييج على اللَّهج بأدعيتهم كقوله عن دعاء الراسخين في العلم: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨]، وكذلك ذكر دعاء الحواريين أتباع الأنبياء في سورة آل عمران، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧]، وما يقال في الأدعية القرآنية يقال في الأدعية النبوية؛ حيث كان ﷺ يكثر من أدعية ويرددها حتى لفت ذلك أنظار الصحابة ﵃ ونقلوا ذلك عنه.

* * *

٩- الجود والصدقة شيمة المصلحين

فيصل بن علي البعداني

الإكثار من الصدقة والإنفاق في ضروب البر هما مفتاح الدعاة والمصلحين للقبول ونيل الرفعة والظفر بالسؤدد في الدنيا والآخرة؛ إذ تُطهِّر بذلك النفوس، وتُطفأ الخطايا، وتتضاعف الحسنات، وبها يُستظل في المحشر، ويُتقى من النار، ويُدعى لدخول الجنان. تضافرت بذلك النصوص والآثار، ومنها قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]، وقوله ﷺ: «الصدقة تطفئ الخطيئة، كما يذهب الجليد على الصفا»[١]، وقوله ﷺ: «من أنفق نفقة في سبيل الله كُتب له سبعمائة ضعف»[٢]، وقوله ﷺ: «كل امرئ في ظل صدقته حتى يُفصَل بين الناس»[٣]، وقوله ﷺ: «من استطاع منكم أن يتقي من النار ولو بشق تمرة فليفعل»[٤]، وقوله ﷺ: «من أنفق

---

(١) صحيح ابن حبان (٥٥٦٧)، وهو صحيح.

(٢) أحمد (١٨٩٠٠)، وهو صحيح.

(٣) أحمد (١٧٣٧١)، وهو صحيح.

(٤) مسلم (١٠١٦).

زوجين في سبيل اللَّه نودي من أبواب الجنة، هذا خير»[١]. هذا في الآخرة.

أما في الدنيا فهي تنمي الإيمان، وتُعظِم التوكل، وتزيد الطمأنينة، وتعمق حسن الظن بربِّ العالمين سبحانه، وتدفع البلايا والمصائب، وتغلق أبواب السوء، وتشرح الصدر، وتفرح القلب، وتنيل الشرف، وتزيل الشح، وتتغلب على هوى النفس، وتستر العيوب، وتستميل النفوس، وتظفر بثقتها ومودتها.

وقد أدرك سادات الدعاة والمصلحين هذه الجلالة للبذل والصدقة، والمنزلة الرفيعة للكرم والجود فتحلَّوْا بذلك، فهذا الهادي البشير، إمام المرسلين، وقدوة المصلحين ﷺ كان أجودَ الناس وأسخاهم، تواترت بذلك شهادات الصحابة الكرام ﭫ؛ فعن ابن عمر ﭭ قال: «ما رأيت أحدًا أنجد ولا أجود ولا أشجع ولا أضوأ وأوضأ من رسول اللَّه ﷺ»[٢]، وعن ابن عباس ﭭ قال: «كان رسول اللَّه ﷺ أجود الناس، وكان أجودَ ما يكونُ في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كلِّ ليلة من رمضان فيدارسه القرآن؛ فَلَرسولُ اللَّه ﷺ أجودُ بالخير

---

(١) البخاري (١٨٩٧).

(٢) الدارمي (٥٩)، ورجاله ثقات.

من الريح المرسَلة»[١]، وعن خادمه أنس ﷺ قال: «ما سئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئًا إلا أعطاه، قال: فجاءه رجل فأعطاه غنمًا بين جبلين، فرجع إلى قومه، فقال: يا قوم! أسلموا! فإن محمدًا يعطي عطاءً، لا يخشى الفاقة»[٢]، وعن جابر ﷺ قال: «ما سئل رسول الله ﷺ شيئًا قط فقال: لا»[٣].

وفي قصة الشملة التي أُدِّيَتْ للنبي ﷺ، وكان محتاجًا إليها ولبسها، فسأله إياها أحد الصحابة فنزعها، وطواها ثم أرسلها إليه، فعاتبه القوم قائلين له: «ما أحسنتَ سألتها إياه؛ لقد علمتَ أنه لا يرد سائلًا»[٤].

ولم تكن تلك سجيته وحده ﷺ، بل كانت خُلُقَ الأجلَّةِ المتبوعين من أصحابه الكرام ﷺ، والذين كانوا عمود الإسلام، ومن قامت على أكتافهم مسئولية نشره وتعليمه والدعوة إليه، فهذا الصدِّيق الأكبر أسلم وفي منزله أربعون ألف درهم، فخرج مهاجرًا وما له غير خمسة آلاف، كل ذلك ينفقه في الرقاب والعون على الإسلام[٥]، وتصدق في غزوة تبوك

---

(١) البخاري (٥).

(٢) مسلم (٤٢٧٥).

(٣) البخاري (٥٥٧٤).

(٤) البخاري (١٩٥١).

(٥) انظر: تاريخ الخلفاء، للسيوطي: (٣٩).

بماله كله، وهذا الفاروق عمر يخرج نصف ماله[١]، وهذا عثمان يشتري الجنة من رسول اللَّه ﷺ مرارًا، حين جهز جيش العسرة، وحين حفر بئر رومة، وحين اشترى أرض المسجد ليُوسَّع، وله مثلها في الجنة[٢]، حتى قال ﷺ مرتين: «**ما ضر عثمانَ ما فعل بعد اليوم**»[٣]، وهذا عليٌّ خرج من أرضه في ينبع ليصرف اللَّه تعالى عن وجهه النار يوم القيامة[٤].

وهذا ابن عوف يتصدق بشطر ماله على عهد رسول اللَّه ﷺ: أربعة آلاف، ثم تصدق بأربعين ألفًا، ثم تصدق بأربعين ألف دينار، ثم حمل على خمسمائة فرس، ثم حمل على ألف وخمسمائة راحلة في سبيل اللَّه تعالى[٥].

وهذا الزبير كان له ألف مملوك يؤدون إليه الخراج، فكان يتصدق بذلك كلِّه ولا يدخل بيته من ذلك شيء[٦]، وهذا طلحة الذي صحبه قبيصة بن جابر فقال: «صحبت طلحة فما رأيت

(١) انظر: الترمذي (٣٦٠٨)، وهو حسن.
(٢) انظر: تاريخ دمشق، لابن عساكر: (٣٩/ ٧٣).
(٣) الترمذي (٣٦٣٤)، وهو حسن.
(٤) السنن الكبرى، للبيهقي: (٦/ ١٦٠).
(٥) انظر: الزهد، لابن المبارك (٥٢٠).
(٦) انظر: الاستيعاب، لابن عبد البر (٢/ ٥١٤).

رجلاً أعطى لجزيل مال من غير مسألة منه»[١]، وباع مرة أرضًا له بسبعمائة ألف درهم فبات أرِقًا حتى أصبح ففرقه[٢]، وهذا سعد بن عبادة كان يرجع كل ليلة إلى أهله بثمانين من أهل الصُّفَّة يعشِّيهم[٣].

هذا غيض من فيض؛ وإنفاق كبار الصحابة ﷺ من المهاجرين والأنصار وبذلهم في سبيل الله تعالى أوسع من أن يحصر.

أما أهل العلم وأئمة الدعوة فقد كانوا آية في الخروج من الدنيا ومعرفة الآخرة والإيثار لها؛ فهذه عالمة النساء عائشة رضي الله عنها كانت تقسم سبعين ألفًا، وهي ترقع درعها[٤]، وفرقت في اليوم الواحد مائة ألف درهم، وهي صائمة فتقول لها خادمها: «ما استطعتِ فيما فرقت اليوم أن تشتري لنا بدرهم لحمًا نفطر عليه؟ فقالت: لا تعنِّفيني، لو ذكرتيني لفعلت»[٥]، وهذا ابن عمر رضي الله عنهما ما مات حتى أعتق ألف إنسان أو أزيد[٦]، وكان يقسم في المجلس

(١) الإصابة، لابن حجر (٣/ ٥٣٢).

(٢) انظر: تاريخ دمشق، لابن عساكر (٢٥/ ١٠١).

(٣) الزهد، لهناد (٢/ ٣٩٢).

(٤) المصنف، لابن أبي شيبة (٧/ ١٣١).

(٥) الزهد، لهناد (١/ ٣٣٨).

(٦) تهذيب التهذيب، لابن حجر (٥/ ٢٨٨).

الواحد ثلاثين ألفًا، ثم يأتي عليه شهرٌ ما يأكل فيه مزعة لحم[١]، وكان لا يعجبه شيء من ماله إلا خرج منه لله عز وجل[٢] يتأول قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، وهذا البحر ابن عباس جاءه رجل يستعينه على دَيْن، فقال له: كم دَيْنُك؟ قال: عشرون ألفًا، فأعطاه أربعين ألفًا وعشرين مملوكًا وكل ما في البيت»[٣]، وهذا حافظ الإسلام أبو هريرة كان في بادئ إسلامه يُصرَع من الجوع، لما كان في آخر عهده امتلك دارًا بذي الحليفة فتصدق بها على مواليه[٤]، وهذا الإمام الجهبذ ابن مسعود كان متخليًا عن الدنيا، فترك عطاءه الذي كان يُعطاه حين مات عمر، وحين عرض عليه عثمان أن يأمر له بعطائه، قال: لا حاجة لي فيه[٥]، ومن أقواله ﷺ: «حبذا المكروهان: الموت والفقر، وايم الله! إن هو إلا الغنى والفقر، وما أبالي بأيهما بُليت، إن حق الله في كل واحد منهما واجب، وإن كان الغنى إن فيه للعطف، وإن كان الفقر إن فيه للصبر»[٦]، وقال:

(١) حلية الأولياء، لأبي نعيم (١/ ٢٩٦).
(٢) الورع، لأحمد (٧٩).
(٣) سير أعلام النبلاء، للذهبي (٣/ ٣٥٢).
(٤) سير أعلام النبلاء، للذهبي (٢/ ٦٢٦).
(٥) انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي (١/ ٤٩٧ - ٤٩٨).
(٦) صفة الصفوة، لابن الجوزي (١/ ١٧٠).

«من أراد الآخرة أضر بالدنيا، ومن أراد الدنيا أضر بالآخرة، يا قوم: فأضروا بالفاني للباقي»[١]. وهذا مقدام العلماء معاذ كان رجلًا سمحًا، لا يُسألُ شيئًا إلا أعطاه، حتى ادَّان دَيْنًا أغلق ماله[٢]، وهذا أبو الدرداء آثر اليوم الباقي على الفاني. يقول ﵁ راويًا حاله: «كنت تاجرًا قبل أن يبُعَث محمد ﷺ؛ فلما بُعِثَ محمد زاولت العبادة والتجارة، فلم يجتمعا، فأخذت في العبادة وتركت التجارة»[٣]، وهذه إشارة، وإلا فمَنْ طالعَ سِيرَ القوم وجد الأمر غاية في الجلال والعظمة.

وكيف لا يكون مصابيح الدجى بهذه الحالة، وقد جلى النور المبين في أكثر من آية أن من أبرز ركائز النجاة وأسس التقوى: البذل والإنفاق في صروف الخير وما ينتصر به الدين. قال تعالى في تعداد خِلال عباده المتقين: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣]، وقال سبحانه: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٧-١٩]. وفي المقابل جاءت السنة مظهرة أن الحرص على الدنيا والشُحَّ بمتعها منطلق

(١) تاريخ دمشق، لابن عساكر (٣٣/ ١٧٣).
(٢) المصنف، لعبد الرزاق (٨/ ٢٦٨).
(٣) حلية الأولياء، لأبي نعيم (١/ ٢٠٩).

شرٍ وسبيل هلكةٍ ومستودع النقائص والخلال الذميمة. يقول ﷺ: «**صلاح أول هذه الأمة بالزهادة واليقين، وهلاكها بالبخل والأمل**»[١]، وقال ﷺ: «**اجتنبوا السبع الموبقات، قيل: يا رسول اللَّه! ما هي؟ قال: الشرك باللَّه، والشح، . . .** »[٢]، وقال ﷺ: «**شرُّ ما في الرجل: شح هالع، وجبن خالع**»[٣]، وقال ﷺ: «**إياكم والشح؛ فإنما هلك من كان قبلكم بالشح: أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا**»[٤].

فالشح بالدنيا والتكالب على متعها يتنافى مع النسيج الذي يربي عليه الإسلام أتباعه. قال حبيش بن مبشر: «قعدت مع أحمد بن حنبل ويحيى بن معين والناس متوافرون، فأجمعوا على أنهم لا يعرفون رجلًا صالحًا بخيلًا»[٥]. قلت: وإذا كان ذلك مع عامة الصلحاء؛ فما حال السادة المصلحين من الدعاة والعلماء الذين لن تجتمع حولهم القلوب، ولن ينالوا ثقة الناس ويظفروا

---

(١) المعجم الأوسط، للطبراني (٧٦٥٠)، وهو صحيح.
(٢) النسائي (٣٦٧١)، وهو صحيح.
(٣) ابن حبان (٣٢٥٠)، وهو صحيح.
(٤) أبو داود (١٦٩٨)، وهو صحيح.
(٥) الآداب الشرعية، لابن مفلح (٣/ ٤٧٨).

بمودتهم ما لم يتخلقوا بالكرم ويتصفوا بالجود فيرتهنوا بذلك لدى عامة الناس الشكر، ويسترقوا بمعروفهم أحرار الخلق؛ لأن من جاد ساد، ومن بخل رذل، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لَسادات الناس في الدنيا الأسخياء، وفي الآخرة الأتقياء»(١)، وقال ابن حبان: «كل من ساد في الجاهلية والإسلام حتى عرف بالسؤدد، وانقاد له قومه، ورحل إليه القاصي والداني؛ لم يكن كمال سؤدده إلا بإطعام الطعام وإكرام الضيف»(٢).

وتتأكد الحاجة إلى الجود حين يغرق الكثيرون في أوحال الترف، والتعلق بزخرف الحياة الدنيا، ويفقدون التوازن والقدرة على الجمع السوي بين تطلُّب الدنيا والعمل للآخرة، ولله در حاتم الأصم حين قال: «من ادعى حب الجنة من غير إنفاق ماله فهو كذاب»(٣).

كما تتأكد الحاجة إلى المبادرة للصدقة والإحسان في أوقات الحصار والتضييق على منابع الخير والبذل، لتعظم المسئولية عندها في حق جيل الصحوة وأبناء الدعوة في القيام بردف مشاريع البر وأعمال الخير وما فيه نصرة الدين وتأييده، وما لم

(١) أدب الدنيا والدين، للماوردي (٢٢٦).

(٢) روضة العقلاء، لابن حبان (٢١٤).

(٣) حلية الأولياء، لأبي نعيم (٨/ ٧٥).

يبادر الجميع إلى ذلك كلٌ بحسب وسعه وطاقته فإن العاقبة هي الفشل، والخاتمة هي الهلكة؛ إذ الدعوات لا تقوم إلا على جسور تضحية أبنائها وأعمدة بذلهم، ولله در الصحابة الكرام الذين كانوا يرون في أوقات الأزمات أن لا حق لأحدهم بما زاد عن حاجته، كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «بينما نحن في سفر مع النبي ﷺ إذ جاء رجل على راحلة له، فجعل يصرف بصره يمينًا وشمالاً، فقال رسول الله ﷺ: **من كان معه فضل ظهرٍ فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان له فضل من زادٍ فليعد به على من لا زاد له**، قال: فذكر من أصناف المال ما ذكر، حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا في فضل»[1].

كما تتأكد في فترات تنفير الناس عن الخير، والقيام بتشويه الدعوة والدعاة، ليكون في الجود عند ذلك حراسة للعرض، وستر للعيب، ونباهة للذكر، وتأليف للقلوب، وقضاء على كثير من المكائد المحبوكة والأخلاق المرذولة.

اللّهم يا كريم وتحب الكرماء، وجواد تحب الجَوَدة، وتأمر بمكارم الأخلاق وتكره سفاسفها.. ارزقنا صلاح النية وسخاء النفس وكثرة العطاء وحب السماحة وإيثار الآخرة على الدنيا،

---

(١) مسلم (٣٢٥٨).

وجنبنا دواعي الحرص والطمع، وحررنا من التعلق بالدنيا ونسيان الآخرة، وارزقنا التضحية لدينك والبذل في سبيلك من غير منٍّ ولا أذى، بإحسان منك وفضل يا جواد يا كريم!

* * *

١٠ - الاعتكاف وتربية الذات على اتباع الأسلاف

محمد بن يحيى اليحيى

لقد شرع اللَّه لعباده كثيرًا من الطاعات التي تجمع على المرء الجوارح والقلب لينشغل بعبادة اللَّه تعالى وحده... وإن من أجلّ هذه الطاعات تلك السّنّة التي يخلو المرء فيها بربه خاضعًا فيناجيه معترفًا، وينصرف بها عن الدنيا فتزكو نفسه وتسمو ليصبح إنسانًا ربانيًا، إنها السّنّة التي حافظ الرسول عليها طوال حياته.. إنها سُنّة الاعتكاف. عن أبي هريرة ﵁ قال: «كان النبي ﷺ يعتكف كلّ رمضان عشرة أيام؛ فلما كان العام الذي قُبِضَ فيه اعكتف عشرين يومًا»[١] .

لقد حرص رسول الأمة على هذه العبادة رغم أن انشغاله بالدعوة والتربية والتعليم والجهاد.. تاركًا لمن بعده ممن يقتفون أثره وينتهجون نهجه درسًا عظيمًا في أهمية الانقطاع إلى اللَّه - عزَّ وجلّ - والتحرر من المشاغل والمسؤوليات كائنًا مَنْ كان صاحبها في الدعوة والعلم. ولا شك أن هذا الاعتكاف ما شُرع إلا لحِكَمٍ عظيمة، لعل منها:

---

(١) رواه البخاري (٢٠٤٤).

* زيادة الصلة الإيمانية بالله، والجوانب العبادية التي تزكي النفس وتجعل المرء أكثر قدرة على مواجهة فتن الدنيا والعمل على استنقاذ الآخرين منها.

* أن الاعتكاف فرصة عظيمة لطلبة العلم الذين اشتغلوا بتحصيله ومن ثم تعليمه؛ وهذا لأمرين مهمين:

١- أن العمل هو الثمرة والغاية الحقيقية للعلم؛ وبدونه قد يصبح العلم حجة على صاحبه.

٢- أن العقلاء يرفضون أن يُعلّم المرءُ الناسَ ما فيه نجاتهم ثم ينصرف هو عن ذلك.

عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«مثل الذي يُعلّم الناس الخير وينسى نفسه مثل الفتيلة تضيء للناس وتحرق نفسها»**(١).

* أن سنة الاعتكاف فرصة كبرى للدعاة والمربين من جهتين:

١- تحقيق الحكمتين الأوليتين من سداد النقص الذي اعتراهم لانشغالهم بالخلْق، وزيادة صلتهم بالخالق.

٢- استغلال الفرصة للرقي بالمستوى الإيماني والتعبدي وغيرهما عند هؤلاء المدعوين والمتربين إلى مراتب أسمى.

فهذه بعض الحكم الظاهرة التي يمكن أن يستفيد منها أهل النظر

(١) صحيح الجامع، برقم (٥٨٣٧).

لتصبح مسار كثير من شباب الصحوة خلال أيام قلائل.. موجِّهين كانوا أو موَجَّهين ممن يُرتضى دينه وخُلقه وعقله.

إن من أهم أسباب طرح موضوع الاعتكاف من الجهة التي سيراها القارئ الكريم، ثلاثة أمور رئيسة:

الأول: حالة الضعف العام في همة الصالحين فيما يتعلق بالجوانب التعبدية والسلوكية كما سيأتي ضرب أمثلة لها مقارنة بما يراد منها لإصلاح المجتمع والارتقاء به لمشابهة مجتمع السلف الصالح.

يقول ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أعوذ باللَّه من سير هؤلاء الذين نعاشرهم، لا نرى فيهم ذا همة عالية فيقتدي إليها المبتدئ، ولا صاحب ورع فيستفيد منه المتزهّد»[١].

فإذا كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يتحدث عن أهل زمانه فلا شك أن الخطب أعظم في زماننا الذي فُتِحت فيه الدنيا من أوسع أبوابها. واللَّه المستعان. ولا شك أننا بحاجة لانتهاز فرصة الاعتكاف في تحسين الصورة العامة عن طريق مخاطبة الأفراد.

فكيف يكون الاعتكاف وسيلة لزيادة الهمة العامة يا ترى؟

الثاني: أن السنة دلت على أهمية الانقطاع عن الناس في خلوة

(١) قيمة الزمن عند العلماء، (ص٣١).

مع اللّه؛ لتنطلق الأنفس بعد ذلك في الدعوة وتحمّل الأعباء.

ولكن إذا كانت هذه إحدى الغايات العظيمة لهذا الانقطاع أي الاعتكاف. . فما صورة هذا الاعتكاف المطلوب يا ترى؟!

الثالث: أن الاعتكاف فرصة عظيمة لاختبار الإخلاص المحض للّه في كل الأعمال والحركات والسكنات. . وهذه النقطة وإن بدت ابتداءً أنها فردية بالدرجة الأولى إلا أن أهمية طرحها هنا تأتي من خلال معرفتنا بأن الإخلاص هو مدار قبول جميع الأعمال الموافقة للشريعة. ومنها كل ما يتعلق بالدعوة والتربية والتعليم. . وإنه لمن الخسران العظيم أن تنفق الأموال وتبذل الجهود ثم يكون المانع من تحقيق الأهداف المطلوبة شرعًا دَخَلٌ في إخلاص العاملين. . ولما كان تحقيق الإخلاص من الصعوبة بمكان في أوساط الجماعة الواحدة قال سهل بن عبد اللّه: «الدنيا جهل وموات إلا العلم؛ والعلم كله حجة إلا العمل به؛ والعمل كله هباء إلا الإخلاص؛ والإخلاص على خطر عظيم حتى يُختم به»[1].

وحُكي عن أحدهم أنه شعر بخجل عظيم من الناس عندما صلى يومًا في الصف الثاني، فعلم أن راحة قلبه في الصلاة في الصف الأول كانت بسبب نظر الناس إليه. وهذا من الدقيق الغامض الذي يغفل عنه الكثير من الناس.

---

(١) العلم ضرورة شرعية، د ناصر العمر، (ص٦٠).

فلما كان الأمر كذلك كان الاعتكاف فرصة عظيمة لاختبار الإخلاص.

والسؤال: ما الاعتكاف المطلوب للتحقق من سلامة القلب من شوائب الإخلاص؟

إن الاجابة عن هذا السؤال تتلخص في الجهة التي نطرح موضوع الاعتكاف من خلالها. .وهي أن الاعتكاف المطلوب ليس هو ذلك الاعتكاف الذي يجعل المساجد مهاجع للنائمين ولا عناوين للمتزاورين، ولا موائد للأكل، ولا حلقات للضحك وفضول الكلام. إنه ليس الاعتكاف الذي يخرج صاحبه وقد ازداد قلبه قسوة، وأتى بمعصية التعدي على حرمات مساجد اللَّه.

إنه ليس الاعتكاف الذي يجعله صاحبه وسيلة لزيادة الأصحاب وتقوية العلاقات الاجتماعية وتبادل الآراء الطبية والنفسية. . . ونحوها.

إن الاعتكاف المطلوب إنما هو ذلك الذي ينقل المرء إلى مشابهة حياة السلف الصالح في كل همسة ولفتة. نعم إن الاعتكاف الذي تسيل فيه دموع الخاشعين المتدبرين؛ وترفع فيه أكف الضارعين المخبتين، ويسعى المرء فيه جاهدًا لئلا تضيع من ثواني هذه الأيام المعدودة لحظة واحدة في غير طاعة فيفوته قطار الفائزين.

إنه الاعتكاف الذي يحقق مفهوم التربية الذاتية لمشابهة المحسنين. . ولعل فيما يأتي من الأمثلة توضيحًا لمن أراد أن يجعل من اعتكافه وسيلة انتقال للأفضل.

أسأل اللَّه أن ينفع بها الجميع.

في العبادات:

لقد بلغ السلف الصالح في جوانب العبادات غاياتٍ يستصعب ضعاف الهمم السعي إلى مقاربتها فضلاً عن الوصول إليها. . وأذكر هنا نماذج لحال السلف في عبادتين عظيمتين هما:

١- مداومة ذكر اللَّه.

٢- الصلاة. . مع التركيز على ذكر إمكانية اللحاق بهم رحمهم اللَّه باستغلال فرصة الاعتكاف

١- المداومة على ذكر اللَّه: قال مالك بن دينار رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما تلذذ المتلذذون بمثل ذكر اللَّه عز وجل فليس شيء من الأعمال أقلّ مؤونة منه ولا أعظم لذة، وأكثر فرحة وابتهاجًا للقلب»[1].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وحضرت شيخ الإسلام ابن تيمية مرة صلى الفجر ثم جلس يذكر اللَّه تعالى إلى قريب من انتصاف النهار ثم التفت إليّ وقال: هذه غدوتي ولو لم أتغد سقطت قوتي، «أو

(١) صحيح الوابل الصيب، (ص١٤٨).

كلامًا قريبًا من هذا»، وقال لي مرة: (لا أترك الذكر إلا بنية إجمام نفسي وراحتها ولأستعد بتلك الراحة لذكر آخر أو كلامًا هذا معناه»[١] .

وقال شيخ الاسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبينًا أهمية بقاء المرء في ذكر دائم: «الذكر للقلب كالماء للسمك؛ فكيف يكون حال السمك إذا خرج من الماء؟»[٢] .

لقد جاءت السنة بأذكار كثيرة متنوعة وذكرت فضلها وما أُعد لصاحبها من الثواب. .بل إن الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عدّ في «الوابل الصيب» ثمانين فائدة في الذكر. .ولا شك أن الناس إلا من رحم اللَّه على جانب كبير من التفريط في المداومة على ذكر اللَّه في كل حال. .لذلك لم يصلوا إلى اللذة التي يستشعرها الذاكرون اللَّه كثيرًا.

قال بعض العارفين: «وإنه لتمر بي أوقات أقول: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب»[٣] . وإن الاعتكاف فرصة عظيمة يحسن بالمرء استغلالها ليصل إلى مرتبة عالية؛ فيكون لسانه رطبًا من ذكر اللَّه تعالى. ليس للمعتكف شُغْلٌ عن

---

(١) صحيح الوابل الصيب، (ص٦٣).

(٢) تزكية النفوس، (ص٤٥).

(٣) صحيح الوابل الطيب، (ص٩٥).

أذكار الصباح والمساء التي فرط الناس فيها إلا من رحم الله، وليس له شغل عن أذكار الأذان والنوم والاستيقاظ، والخروج والدخول إلى المسجد، وأذكار الطعام والشراب، والأذكار المطلقة الكثيرة المتنوعة.

يستطيع المعتكف أن يحرص على كل ذكر منها في وقته ويحاسب نفسه على ما فاته، ولا يدع نَفَسًا من أنفاسه يخرج بغير ذكر الله تعالى. . فمن كانت هذه حاله في عشرة أيام متواليات رُجي له الخير العظيم بفضل الله وتوفيقه. ألا وإن من أعظم الذكر كما هو معلوم قراءة القرآن الكريم. قيل لأخت مالك ابن أنس: (ما كان يشتغل مالك في بيته؟ قالت: المصحف في بيته). قال أبو بكر الأوسي: «كان مالك قد أدام النظر في المصحف قبل موته بسنين، وكان كثير القراءة طويل البكاء»(١).

قال الطحاوي: «سمعت عن أحمد بن أبي عمران يحكي عن بعض أصحاب محمد بن الحسن، أن محمدًا كان حزبه في كل يوم وليلة ثلث القرآن»(٢).

---

(١) أعلام المسلمين، (٢٣، ص٣٢١)، سلسلة دار القلم.
(٢) أعلام المسلمين، (٤٧، ص ٢٣٧).

فهؤلاء رحمهم اللَّه كانت قراءتهم كثيرة في سائر أيام صيامهم، ووردت عنهم وعن غيرهم من السلف زيادة الاهتمام بكتاب اللَّه في رمضان.

فعلى العاقل أن يجعل من اعتكافه فرصة لتقوية علاقته بكتاب اللَّه تعالى قراءة وتدبرًا وخشوعًا وفهمًا.. ولا شك أن الاكتفاء باستعراض كتاب اللَّه كلِّه مرة واحدة فقط في هذه الأيام العشرة يُعد من التفريط؛ إذ فيم سيمضي المعتكف وقته إن لم يمضه في تلاوة كتاب اللَّه تعالى؟

جاء عن الحسن أنه قال: «أدركت أقوامًا كان أحدُهم أشحَّ على عمره منه على درهمه»[1].

فلو حرص المرء على لحظات اعتكافه ألّا تنقضي إلا في ذكر وتلاوة لكان لاعتكافه لذة وحلاوة، ولأصبح من السهل عليه أن يتشبه بالسلف الصالح.

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالكرام فلاح

ولعل مما تجدر الإشارة إليه أن من ثمرات المداومة على ذكر اللَّه في الدنيا أنها تعطي الذاكر قوة تعينه على زيادة عمله خلال يومه.. فقد ثبت أن الرسول علّم ابنته فاطمة وعليًا رضي الله عنهما أن

---

(١) شرح السنة، للبغوي، (١٤/ ٢٢٥).

يُسّبحا ويحمدا ويُكبّرا كلَّ ليلة إذا أخذا مضجعهما، ذلك لما سألته أن يحضر لهما خادمًا، وقال لها: «**إنه خير لكما من خادم**»[١] .

فقيل: إن من داوم على ذلك وجد قوة في يومه مغنية عن خادم[٢] .

والمعتكف بحاجة لهذه القوة حتى يستعين بها على الزيادة من العبادات في هذا المَوْسِمِ العظيم.

الصلاة: قال محمد بن عمران: سمعته أي: محمد بن سماعة (ت٢٣٣هـ) يقول: «مكثت أربعين سنة لم تفتني التكبيرة الأولى إلا يوم ماتت أمي»[٣]. إن مثل هذا الأثر يحتاج أن يقف المرء معه ليتأمل حال نفسه ومدى اهتمامه بأداء الصلاة على الوجه الأكمل.. ومتى ما وجد التقصير في نفسه توجب عليه أن يجعل من اعتكافه فرصة ليصل إلى مثل هذه المراتب العالية في أداء الصلاة.. ومن فرط في التكبيرة الأولى حاسب نفسه أشد الحساب؛ فكيف يساغ له أن يتأخر عن إدراك التكبيرة الأولى وهو مقيم في بيت من بيوت اللّه تعالى؟ كما أن التأخير عن

---

(١) رواه البخاري (٣٧٠٥) ومسلم (٢٧٢٧).

(٢) الفائدة (٦١) من فوائد الذكر لابن القيم في صحيح الوابل الصيب، (ص١٤٤).

(٣) السير، (١٠/٦٤٦).

إدراك التكبيرة الأولى له دلالة على إهمال السّنة القبلية وفقد أجر انتظار الصلاة بين الأذانين، ونقص الخشوع، وغير ذلك. والله المستعان.

قال ابن وهب: «رأيت الثوري في الحرم بعد المغرب صلى، ثم سجد سجدة فلم يرفع رأسه حتى نودي للعشاء»[١].

وقال مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ: «كان إذا قام أحدهم يصلي يهاب الرحمن أن يشدّ بصره إلى شيء أو يلتفت، أو يقلب الحصى، أو يعبث بشيء، أو يحدث نفسه في شأن الدنيا إلا ناسيًا ما دام في صلاته»[٢].

وهذه مرتبة أخرى عظيمة ينبغي أن يحرص المرء عليها وهي مجاهدة النفس على تعظيم المولى سبحانه وتعالى في الصلاة، وحسن الاتصال فيها بتحقق الطمأنينة والخشوع والخشية.. والمعتكف تتهيأ له من الفرص ما لا يتهيأ لغيره بسبب انقطاعه عن كثير من علائق الدنيا. فعليه أن يجاهد نفسه للوصول لهذه الغايات وأكثر منها من خلال أيامه العشرة لتكون بداية انطلاقة جادة له بعد ذلك.

---

(١) السير، (٧/ ٢٦٦).

(٢) تعظيم قدر الصلاة، (١/ ١٨٨).

ألا وإن من أعظم وأجلّ القربات التي تتهيأ بالاعتكاف خاصة في رمضان قيام الليل. . ذلك الشرف العظيم الذي فرط فيه الناس إلا قليلاً.

كان سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا أصبح مدّ رجله إلى الحائط ورأسه إلى الأرض كي يرجع الدم إلى مكانه من قيام الليل»(١).

وجاء عن شداد بن أوس أنه كان إذا دخل الفراش يتقلب عليه لا يأتيه النوم فيقول: «اللَّهم إن النار أذهبت مني النوم؛ فيقوم فيصلي حتى يصبح»(٢).

وفي ليالي رمضان فرصة عظمى للمعتكف لإطالة القيام بكتاب اللَّه تعالى وتشجيع نفسه بكثرة القائمين ومنافستهم؛ على ألّا يجعل لنفسه غاية دون هذه النماذج العظيمة من السلف ونحوها.

كيف لا وقد قال أبو سليمان: «أهل الليل في ليلهم ألذ من أهل اللَّهو في لهوهم، ولولا الليل ما أحببت البقاء في الدنيا»(٣).

كذلك يحسن المحافظة على سنة الفجر والإشراق والنوافل المطلقة والمقيدة حتى ينوّع المرء من عباداته، ويعتاد ما انشغل عنه في سائر أيامه.

---

(١) الجرح والتعديل، (١/ ٩٥).
(٢) صفوة الصفوة، (١/ ٧٩).
(٣) تزكية النفوس، (ص ٦٢).

في المباحات: هناك جوانب أخرى يحسن بالمعتكف أن يخالف ما جرى أكثر الناس عليه فيها. .أذكر منها ثلاثة أمور لعلها جماع كثير من الخسران:

١- فضول الكلام.

٢- فضول الأكل.

٣- فضول المخالطة.

١- فضول الكلام: كتب عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ إلى بعض أصحابه: «أما بعد: فإنه من أكثر ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير، ومن عد كلامه من عمله قلّ كلامه إلا فيما ينفعه والسلام»[١].

قال عطاء بن أبي رباح: «يا بن أخي! إن من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام، وكانوا يعدون فضوله ما عدا كتاب اللّه عز وجل أن تقرأه، وتأمر بمعروف أو تنهى عن منكر، أو تنطلق بحاجتك في معيشتك التي لا بد لك منها. أتنكرون أن عليكم حافظين كرامًا كاتبين؟»[٢].

والشباب في هذا الزمان أَخُصُّ الصالحين منهم أصبح هذا

(١) السير، (٥/ ١٣٣).

(٢) صفة الصفوة، (٢/ ٢١٣).

الجانب عند أكثرهم مفقودًا. . بل ربما هو لا يُفكر فيه ابتداءً إلا من رحم اللَّه تعالى؛ لذلك نشأ عنه عند كثير من الصالحين والدعاة وطلبة العلم فقدان السمت، ونقص الحكمة في الكلام، وخلط الجد بالهزل؛ فضلاً عن الوقوع في بعض المحرمات كالغيبة والكذب والسمعة ونحوها. . ولعل بقاء المرء في معتكفه وسيلة عظيمة لحبس لسانه ومحاسبة نفسه على كل حرف يخرج منه في غير ذكر اللَّه أو ضرورة. .

كما أن المعتكف ينبغي له أن يعوّد نفسه ويعوّد كلَّ من يقطع عليه اعتكافه على عدم الاسترسال في الكلام الذي لا حاجة له، مع مراعاة الأدب وحسن القصد.

قال إبراهيم بن سليمان: «كنت جالسًا مع سفيان، فجعل رجل ينظر إلى ثوب كان على سفيان ثم قال: يا أبا عبد اللَّه! أيُّ شيء كان هذا الثوب؟ فقال سفيان: كانوا يكرهون فضول الكلام»[(١)] .

ويُتنبه هنا إلى أنه يُكره للمعتكف الصمت عن الكلام إذا اعتقد أنه عبادة أو قربة؛ لحديث الرجل الذي نذر أن يقوم في الشمس ولا يتكلم ويصوم، فأمره الرسول أن يستظل ويتكلم ويقعد ويتم صومه، والحديث في الصحيح[(٢)] .

---

(١) حلية الأولياء، (٧/ ٦٠).
(٢) الاعتكاف، د أحمد الكبيسي، (ص ٧١).

٢-فضول الأكل: قال إبراهيم بن أدهم: (من ضبط بطنه ضبط دينه، ومن ملك جوعه ملك الأخلاق الصالحة، وإن معصية الله بعيدة من الجائع قريبة من الشبعان)[١].

إن قلة الطعام توجب رقة القلب وانكسار النفس وضعف الهوى والغضب، كما أنها تطلق المرء من قيود الكسل والدعة والخمول.

قال لقمان لابنه: «يا بني إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة وقعدت الأعضاء عن العبادة»[٢].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما فضول الطعام فهو داع إلى أنواع كثيرة من الشر؛ فإنه يحرك الجوارح إلى المعاصي وينقلها عن الطاعات وحسبك بهذين شرًا»[٣].

ولا شك أن المعتكف بحاجة إلى نبذ كل ما يقعده عن الطاعة ومن ذلك كثرة الأكل وتنويعه.. قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «من كثر أكلُه لم يجد لذكر الله لذةً»[٤].

كما أنه فرصة للمرء ليُربي نفسه عن التقلل والتزهد في أصناف

---

(١) تزكية النفوس، (ص ٤١).
(٢) الأدب النبوي، للخولي، (ص ٢١٢).
(٣) بدائع الفوائد، (٢/ ٢٧٣).
(٤) الحلم، لابن أبي الدنيا، (ص ٧٨).

المطعومات ويجاهد نفسه عن الاستغناء عن كثير مما اعتاده.

قُدّم لعمر بن عبد العزيز طعامٌ كثير عند بعض أهله فقال: «ويحك! هذا ما يسد الجوعة ويُذهب سَورة النفس، وتقدّم فضل ذلك ليوم فقرك وفاقتك؟»[(١)].

وكذلك فإن عدم الاهتمام بتنويع الأكل والبحث عنه سيوفر للمرء وقتًا في معتكفه هو بحاجة ماسة إلى صرفه في ذكر وطاعة.

قال أبو الوفاء ابن عقيل: «وأنا أقصر بغاية جهدي أوقات أكلي حتى أختار سف الكعك وتحسيه بالماء على الخبز لأجل ما بينهما من تفاوت المضغ توفرًا على مطالعة أو تسطير فائدة لم أدركها»[(٢)].

٣-فضول المخالطة: وهذه أمرها جلل؛ لأن أكثر الناس درجوا على الاجتماع والخلطة حتى افتقدوا إلى القدرة على إنشاء الطاعات وإتمامها بأنفسهم بعيدًا عن الرفاق.

وصورة ذلك في الاعتكاف ما يُرى من تجمع المعارف ليعتكفوا في مسجد واحد أو مكان معين في مسجد ما... وهذا وإن كان يسوّغه أحيانًا لبعض الناس وجود مصالح راجحة من منظور تربوي دعوي.. إلا أنه يحسن بالمرء معرفة أمور ومراعاتها:

---

(١) دار القلم، أعلام المسلمين، (ص ١١٨)، رقم (٤٠).

(٢) سوانح وتأملات في قيمة الزمن، خلدون الأحدب، (ص ٣٤).

❊ منها أن كثرة الخلطة تقصر همة العبد عند همة أصحابه أو دونهم: يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فما على العبد أضر من عشائره وأبناء جنسه؛ فنظره قاصر وهمته واقفة عند التشبه بهم ومباهاتهم والسلوك أين سلكوا؛ حتى لو دخلوا جحر ضب لأحب أن يدخل معهم»[١].

فهذا يدعو المرء للانفراد حتى يعامل اللَّه مباشرة؛ فكلما ظن أنه مقصر ازداد اجتهادًا..

❊ ومنها أن الخلطة مظنة كثرة المزاح مما يقود إلى التقليل من هيبة مكان وزمان الطاعة وأن ينجر المرء إلى بعض الآثام كالغيبة والكذب ونحوها. قال ابن عبد البر: «وقد كره جماعة من العلماء الخوض في المزاح لما فيه من ذميم العاقبة ومن التوصل إلى الأعراض واستجلاب الضغائن وإفساد الإخاء»[٢].

❊ ومنها أن الاعتكاف فرصة ليقيم المرء عبادته بعيدًا عن أعين معارفه ليختبر إخلاصه، فعن بكر بن ماعز قال: «ما رُئي الربيع متطوعًا في مسجد قومه إلا مرة واحدة..»[٣] وذلك لا يتأتى بالخلطة.

❊ ومنها أن كثرة الخلطة تدعو إلى فضول الكلام والنظر وتضييع

---

(١) الهمة العالية، (ص ٧٣).

(٢) بهجة المجالس، (٢/ ٥٦٩).

(٣) صفة الصفوة، (٣/ ٦١).

كثير من الوقت في النوم وانشغالات خدمة الجماعة بغير ضرورة، وتُفقد المرء لذة المناجاة، وغير ذلك من مناقضات جوهر الاعتكاف. فعلى المرء أن يجاهد نفسه على العزلة والتطلع الدائم إلى معالي الرتب، واستشعار الرقابة الدائمة للّه، وتذكر فجأة الموت. .عسى أن يخرج من اعتكافه بذات أخرى يكتب اللّه لها نصيبًا أكبر من الفلاح وخدمة دينها وأمتها. . وبعدُ: فإنه ليس من الصعب تغيير النفس وقطعها عن كل ما اعتادته لمن أخلص نيته وصدق في عزيمته.

يقول المنذر بن عبيد: «تولى عمر بن عبد العزيز بعد صلاة الجمعة فأنكرت حاله في العصر»[1] .

ولكن من الضروري أن يصاحب ذلك أخذ على النفس بالجد والحزم في معالجة قصورها. .قال ابن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ يحدث نفسه: «كانت فِيّ عيوب، فلم أزل بالرياضة واطلاعي على ما قالت الأنبياء صلوات اللّه عليهم والأفاضل من الحكماء المتأخرين والمتقدمين في الأخلاق وآداب النفس، أعاني مداومته حتى أعان اللّه عز وجل على أكثر ذلك بتوفيقه ومنّه»[2] .

كما يحتاج المرء إلى همة عالية ونفس أبية لا ترضى بالدون.

(١) دار القلم، (ص ٢٣٢)، رقم (٤٠).
(٢) الأخلاق والسير، لابن حزم، (ص ٢٣).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا طلع نجم الهمة في ليل البطالة، ورَدَفَهُ قمر العزيمة، أشرقت أرض القلب بنور ربها»[١].

كذلك يحتاج المرء إلى استغلال أيام الاعتكاف كفرصة للنقلة الإيجابية المطلوبة.

ومهما حفظ الإنسان من الحِكَم وكانت رغباته صالحة فلن تتحسن أخلاقه وتقوى إلا إذا انتهز كل فرصة تسنح له[٢].

وأخيرًا.. فإنني أختم بتحذيرين اثنين:

الأول: أن يحذر الإنسان من طلب الكمالات المحضة التي تسبب انتكاسة في الهمة.

قال العلامة محمد الخضر حسين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والخطل أن ينزع الرجل إلى خصلة شريفة حتى إذا شعر بالعجز عن بلوغ غايتها البعيدة انصرف عنها جملة، والتحق بالطائفة التي ليس لها في هذه الخصلة من نصيب، والذي يوافق الحكمة ويقتضيه حق التعاون في سعادة الجماعة أن يذهب في همته إلى الغايات البعيدة ثم يسعى لها سعيها ولا يقف دون النهاية إلا حيث ينفذ جهده ولا يهتدي للمزيد على ما فعله سبيلاً»[٣].

---

(١) الفوائد، (ص ٧٩).

(٢) الأخلاق، أحمد أمين، (٣٨).

(٣) الهمة العالية، (٦٩).

الثاني: أهمية تعظيم حرمات اللَّه مكانًا وزمانًا..إذ ربما يجهد المرء للعلاج ثم يُحرم الخير بتهاونه في هذا الجانب الناتج عن طول المكث والاعتياد.

قال أبو عبيد القاسم بن سلام: «كنت مستلقيًا في المسجد الحرام، فجاءتني عائشة المكيّة وكانت من العارفات، فقالت: يا أبا عبيد! لا تجالسه إلا بأدب؛ وإلا محاك من ديوان العلماء والصالحين»(١).

أسأل اللَّه أن يعيننا على طاعته ويكتب لنا فيها القبول، واللَّه أعلم، والحمد للَّه من قبل ومن بعد.

* * *

(١) شذرات الذهب، (٢/ ٥٥).

أحكام رمضانية

١) تحري دخول رمضان[١]

تجوز الاستعانة بآلات الرصد في رؤية الهلال ولا يجوز الاعتماد على العلوم الفلكية في إثبات بدء شهر رمضان المبارك أو الفطر؛ لأن اللَّه لم يشرع لنا ذلك، لا في كتابه ولا في سنة نبيه ﷺ وإنما شرع لنا إثبات بدء شهر رمضان ونهايته برؤية هلال شهر رمضان في بدء الصوم ورؤية هلال شوال في الإفطار والاجتماع لصلاة عيد الفطر وجعل الأهلة مواقيت للناس وللحج، فلا يجوز لمسلم أن يوقت بغيرها شيئًا من العبادات من صوم رمضان والأعياد وحج البيت، والصوم في كفارة القتل خطأً وكفارة الظهار ونحوها، قال اللَّه تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ﴾ [البقرة: ١٨٥] وقال تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّۗ﴾ [البقرة: ١٨٩] وقال ﷺ: «**صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته فإن غمَّ عليكم فأكملوا العدة ثلاثين**»[٢] وعلى ذلك يجب على من لم ير الهلال في مطلعهم في صحو أو غيم أن يتموا العدة ثلاثين إن لم يره غيرهم في مطلع آخر

---

(١) من فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء رقم (٣١٩)، (١٠/ ٩٩).

(٢) رواه البخاري (١٨١٠)، ومسلم (١٠٨١).

فإن ثبت عندهم رؤية الهلال في غير مطلعهم لزمهم أن يتبعوا ما حكم به ولي الأمر العام المسلم في بلادهم من الصوم أو الإفطار؛ لأن حكمه في مثل هذه المسألة يرفع الخلاف بين الفقهاء في اعتبار اختلاف المطالع وعدم اعتباره فإن لم يكن ولي أمرهم الحاكم في بلادهم مسلمًا عملوا بما يحكم به مجلس المركز الإسلامي في بلادهم من الصوم تبعًا لرؤية الهلال في غير مطلعهم أو الإفطار؛ عملًا باعتبار اختلاف المطالع.

* * *

٢) الأعذار المبيحة للفطر[١]

الأعذار المبيحة للفطر: المرض والسفر كما جاء في القرآن الكريم، ومن الأعذار أن تكون المرأة حاملًا تخاف على نفسها، أو على جنينها، ومن الأعذار أيضًا أن تكون المرأة مرضعًا تخاف إذا صامت على نفسها، أو على رضيعها، ومن الأعذار أيضًا أن يحتاج الإنسان إلى الفطر لإنقاذ معصوم من هلكة، مثل أن يجد غريقًا في البحر، أو شخصًا بين أماكن محيطة به فيها نار، فيحتاج في إنقاذه إلى الفطر، فله حينئذ أن يفطر وينقذه، ومن ذلك أيضًا إذا احتاج الإنسان إلى الفطر للتقوي على الجهاد في سبيل الله، فإن ذلك من أسباب إباحة الفطر له؛ لأن النبي ﷺ قال لأصحابه في غزوة الفتح: «**إنكم ملاقو العدو غدًا والفطر أقوى لكم فأفطروا**» فإذا وجد السبب المبيح للفطر وأفطر الإنسان به فإنه لا يلزمه الإمساك بقية ذلك اليوم، فإذا قدر أن شخصًا قد أفطر لإنقاذ معصوم من هلكة فإنه يستمر مفطرًا ولو بعد إنقاذه، لأنه أفطر بسبب يبيح له الفطر، فلا يلزمه الإمساك حينئذ، لكون حرمة ذلك اليوم قد زالت بالسبب المبيح للفطر،

---

(١) من فتاوى فضيلة الشيخ صالح العثيمين رَحِمَهُ اللهُ رقم (٦٦)، (١٧/ ٧٦).

ولهذا نقول بالقول الراجح في هذه المسألة: إن المريض لو برىء في أثناء النهار وكان مفطرًا، فإنه لا يلزمه الإمساك، ولو قدم المسافر أثناء النهار إلى بلده وكان مفطرًا فإنه لا يلزمه الإمساك، ولو طهرت الحائض في أثناء النهار فإنه لا يلزمها الإمساك؛ لأن هؤلاء كلهم أفطروا بسبب مبيح للفطر، فكان ذلك اليوم في حقهم ليس له حرمة صيام؛ لإباحة الشرع الإفطار فيه، فلا يلزمهم الإمساك.

* * *

٣) حكم من مات وعليه صيام[١]

من أفطر في رمضان لعذر شرعي ولم يتمكن من القضاء من غير تقصير منه حتى مات فلا قضاء عليه ولا إطعام، أما إن كان التأخير من دون عذر حتى مات فيشرع لأحد أقربائه أن يصوم عنه؛ لما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**من مات وعليه صيام صام عنه وليه**» متفق على صحته[٢].

* * *

(١) من فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، رقم (٢٠٠)، (١٠/ ٣٦٨).

(٢) رواه البخاري (١٩٥٢)، ومسلم (١١٤٧).

٤) حكم تذكير من أكل ناسيًا[١]

من رأى مسلمًا يشرب في نهار رمضان أو يأكل أو يتعاطى شيئًا من المفطرات الأخرى ناسيًا أو متعمدا وجب إنكاره عليه؛ لأن إظهار ذلك في نهار الصوم منكر ولو كان صاحبه معذورًا في نفس الأمر؛ حتى لا يجترئ الناس على إظهار ما حرم اللَّه من المفطرات في نهار الصيام بدعوى النسيان، وإذا كان من أظهر ذلك صادقًا في دعوى النسيان فلا قضاء عليه؛ لقول النبي ﷺ: «**من نسي وهو صائم فأكل أو شرب فليتم صومه فإنما أطعمه اللَّه وسقاه**» متفق على صحته[٢].

وهكذا المسافر ليس له أن يظهر تعاطي المفطرات بين المقيمين الذين لا يعرفون حاله، بل عليه أن يستتر بذلك حتى لا يتهم بتعاطيه ما حرم اللَّه عليه، وحتى لا يجرؤ غيره على ذلك، وهكذا الكفار يمنعون من إظهار الأكل والشرب ونحوهما بين المسلمين؛ سدًا لباب التساهل في هذا الأمر، ولأنهم ممنوعون من إظهار شعائر دينهم الباطل بين المسلمين. واللَّه ولي التوفيق.

❊ ❊ ❊

---

(١) من فتاوى سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ رقم (٧٠)، (١٥/ ٢٥٦).

(٢) رواه البخاري (١٩٣٣)، ومسلم (١١٥٥).

٥) إفطار الحامل والمرضع إذا شق عليهما الصوم[١]

حكم الحامل التي يشق عليها الصوم حكم المريض، وهكذا المرضع إذا شق عليها الصوم تفطران وتقضيان؛ لقول الله سبحانه: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] وذهب بعض أصحاب النبي ﷺ إلى أن عليهما الإطعام فقط. والصواب الأول؛ لأن حكمهما حكم المريض؛ لأن الأصل وجوب القضاء ولا دليل يعارضه. ومما يدل على ذلك ما رواه أنس بن مالك الكعبي رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الله وضع عن المسافر الصوم وشطر الصلاة وعن الحبلى والمرضع**» رواه إمام أحمد والنسائي[٢] بإسناد حسن. فدل على أنهما كالمسافر في حكم الصوم تفطران وتقضيان. أما القصر فهو حكم يختص بالمسافر لا يشاركه فيه أحد وهو صلاة الرباعية ركعتين. وبالله التوفيق.

* * *

(١) من فتاوى سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله رقم (٦١)، (١٥/ ٢٢٣).
(٢) أحمد (١٩٨١٤) والنسائي (٢٣١٥).

٦) الفطر في السفر[١]

من مرض أو سافر فله الفطر، بل يستحب له ذلك؛ لقول الله عزَّ وجل: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾.

وقول النبي ﷺ: «**إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يكره أن تؤتى معصيته**» رواه أحمد[٢]. بشرط أن يكون المريض يشق عليه الصوم، أما إذا لم يشق عليه فليس له الفطر؛ لأنه لا يعتبر معذورا.

فالصواب هو أنه يستحب له الفطر في السفر وإن لم يشق عليه الصوم؛ لقول الله سبحانه وتعالى: وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ؛ ولأن النبي ﷺ وأصحابه ﷺ كانوا يفطرون في السفر. ومن صام فلا حرج عليه؛ لأن النبي ﷺ صام في السفر وأفطر، وسأله حمزة بن عمرو الأسلمي عن ذلك، فقال: «**إن شئت فصم وإن شئت فأفطر**»[٣]. والله ولي التوفيق.

***

(١) من فتاوى سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله رقم (٦٣)، (١٥/ ٢٣٤).

(٢) برقم: (٥٦٠٠).

(٣) رواه البخاري (١٨٠٧)، ومسلم (١٨٨٩).

٧) استعمال الإبر التي في الوريد والإبر التي في العضل[١]

الصحيح أنهما لا تفطران، وإنما التي تفطر هي إبر التغذية خاصة. وهكذا أخذ الدم للتحليل لا يفطر به الصائم؛ لأنه ليس مثل الحجامة، أما الحجامة فيفطر بها الحاجم والمحجوم في أصح أقوال العلماء؛ لقول النبي ﷺ: «أفطر الحاجم والمحجوم»[٢].

❊ ❊ ❊

(١) من فتاوى سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله رقم (٧٢)، (١٥/٢٥٨).
(٢) رواه أحمد (٨٧٦٨)، والترمذي (٧٧٤).

٨) المريض الذي لا يستطيع الصوم[١]

المريض ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: مريض يرجى برؤه مثل ذوي الأمراض الطارئة التي يرجى أن يشفى منها، فهذا حكمه كما قال الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ ۚ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، ليس عليه إلا أن ينتظر البرء ثم يصوم، فإذا قدر أنه استمر به المرض في هذه الحال، ومات قبل أن يشفى فإنه ليس عليه شيء؛ لأن الله إنما أوجب عليه القضاء في أيام أخر وقد مات قبل إدراكها، فهو كالذي يموت في شعبان قبل أن يدخل رمضان لا يقضى عنه.

القسم الثاني: أن يكون المرض ملازمًا للإنسان مثل مرض السرطان - والعياذ بالله - ومرض الكلى، ومريض السكر وما أشبهها من الأمراض الملازمة التي لا يرجى انفكاك المريض منها، فهذه يفطر صاحبها في رمضان، ويلزمه أن يطعم عن كل يوم مسكينًا كالكبير والكبيرة اللذين لا يطيقان الصيام يفطران

---

(١) من فتاوى فضيلة الشيخ صالح العثيمين رَحِمَهُ اللهُ رقم (٨٦)، (١٧/٧٨).

ويطعمان عن كل يوم مسكينًا ودليل ذلك من القرآن قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ﴾. فكان هذا في أول الأمر على الذين يطيقونه فدية طعام مسكين، ولكن الصيام خير له كما قال اللَّه تعالى: ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾، فكان فيه التخيير بين الصيام والإطعام، ثم وجب الصيام عينًا في قوله تعالى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ فجعل اللَّه تعالى الإطعام عديلاً للصيام، إما هذا وإما هذا في أول الأمر ثم تعين الصيام، فإذا لم يتمكن الإنسان من الصيام لا وقت رمضان ولا ما بعده، رجعنا إلى العديل، الذي جعله اللَّه معادلاً للصيام وهو الإطعام، فيجب على المريض المستمر مرضه، وعلى الكبير من ذكر وأنثى إذا عجزوا عن الصوم أن يطعموا عن كل يوم مسكينًا، سواء إطعامًا بتمليك بأن يدفع إلى الفقراء هذا الإطعام،

أو كان الإطعام بالدعوة يدعو مساكين بعدد أيام الشهر فيعشيهم كما كان أنس بن مالك رضي الله عنه يفعل حين كبر صار يجمع ثلاثين مسكينًا فيعشيهم فيكون ذلك بدلاً عن صوم الشهر.

وخلاصة ذلك أن المرض قسمان: مرض طارىء يرجى زواله، فهذا ينتظر حتى يعافيه اللَّه ويقضي.

ومرض ملازم فهذا يطعم عن كلّ يوم مسكينًا.

* * *

٩) أمر الصبيان بالصيام[١]

يؤمر الصبيان الذين لم يبلغوا بالصيام إذا أطاقوه، كما كان الصحابة رضي الله عنهم يفعلون ذلك بصبيانهم، وقد نصَّ أهل العلم على أن الولي يأمر من له ولاية عليه من الصغار بالصوم، من أجل أن يتمرنوا عليه ويألفوه، وتتطبع أصول الإسلام في نفوسهم حتى تكون كالغريزة لهم. ولكن إذا كان يشق عليهم أو يضرهم فإنهم لا يلزمون بذلك، وإنني أنبه هنا على مسألة يفعلها بعض الآباء أو الأمهات وهي منع صبيانهم من الصيام على خلاف ما كان الصحابة رضي الله عنهم يفعلون. يدعون أنهم يمنعون هؤلاء الصبيان رحمة بهم وإشفاقًا عليهم، والحقيقة أن رحمة الصبيان أمرهم بشرائع الإسلام، وتعويدهم عليها، وتأليفهم لها؛ فإن هذا بلا شك من حسن التربية وتمام الرعاية. وقد ثبت عن النبي ﷺ قوله: «**إن الرجل راع في أهل بيته ومسئول عن رعيته**». والذي ينبغي على أولياء الأمور بالنسبة لمن ولاهم اللّه عليهم من الأهل والصغار أن يتقوا اللّه تعالى فيهم، وأن يأمروهم بما أمروا أن يأمروهم به من شرائع الإسلام.

---

(١) من فتاوى فضيلة الشيخ صالح العثيمين رحمه الله رقم (٧٣)، (١٧/ ٥٨).

الفهرس

❁ مقدمة ٥

❁ هدى للناس ٧

١- الوصية بالقرآن الكريم ٩

٢- ذكرٌ منزلٌ محفوظٌ ١٢

٣- أوصاف القرآن ١٥

❁ تدبر القرآن ٢٥

١- مدخل لتدبر القرآن ٢٧

٢- منزلة تدبر القرآن ٣١

٣- وجوب تدبر كلام الله ٤٠

٤ - تدبرٌ لا تفسير ٤٢

٥ - وما تدبر آياته إلا اتباعه ٤٦

٦-أحزاب القرآن ٦٠

٧- منهج مقترح لتدبر القرآن ٧٦

❁ قبس من القرآن ٩٣

١- تأملات في معاني الاستعاذة ٩٥

٢- تأملات في معاني البسملة ٩٩

٣- حكم وأسرار في سورة الفاتحة ١٠٨

مسائل في قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ ١٢٦
فصل الإتيان بالضمير في قوله: ﴿وَاهْدِنَا﴾ ١٢٩
٤- رعاية الله لقلب نبيه ﷺ ١٣١
٥- قصة إبراهيم عليه السلام ١٣٣
٧- أسرار لطف الله في الحياة ١٤١
٨- حقيقة الانتصار ١٥١
٩- الدعاء في كتاب الله ١٦١
* واحات رمضانية ١٧٥
١- الأوقات الفاضلة والمسابقة للخيرات ١٧٧
٢- رمضان والصفوة ١٨٧
٣- كيف تنال فضائل رمضان؟ ١٩٢
٤- رمضان شهر للجهاد بالقرآن ٢٠٩
٥- الحكمة من الصيام ٢١٥
٦- خيرات الصيام ﴿وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ ٢٢٧
٧- آيات الصيام.. والدعوة إلى الإسلام تأمل أسلوب الدعوة في آيات الصيام ٢٣٤
٨- حتى لا تصبح صلاة التراويح عادة ٢٤٠
٩- الجود والصدقة شيمة المصلحين ٢٥٨
١٠ - الاعتكاف وتربية الذات على اتباع الأسلاف ٢٦٩

* أحكام رمضانية ٢٨٩
١) تحري دخول رمضان ٢٩١
٢) الأعذار المبيحة للفطر ٢٩٣
٣) حكم من مات وعليه صيام ٢٩٥
٤) حكم تذكير من أكل ناسيًا ٢٩٦
٥) إفطار الحامل والمرضع إذا شق عليهما الصوم ٢٩٧
٦) الفطر في السفر ٢٩٨
٧) استعمال الإبر التي في الوريد والإبر التي في العضل . ٢٩٩
٨) المريض الذي لا يستطيع الصوم ٣٠٠
٩) أمر الصبيان بالصيام ٣٠٣
الفهرس ٣٠٤